الكتاب المعاصرون

أضواء على حياتهم

بقلم

أنور الجندي

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب المعاصرون

حلقة جديدة من دراسات الأدباء المعاصرين

« ٣٥ شخصية »

الحلقة الأولى تضم ٤١ شخصية

باسم « أضواء على حياة الأدباء المعاصرين »

مطبعة الرسالة

٣ شارع حموده المقاول - عابدين

الكتاب المعاصرون

أين « حياة » الكاتب فى إنتاجه ؟ .

ذلك هو السؤال الذى كان يتردد على لسانى ، وأنا أدرس كل « شخصية » من شخصيات هذا الكتاب . ولقد كانت أسهل هذه الدراسات ما وجدت مادة حياة صاحبها ميسرة قريبة المنال . ولعل « شخصيات » كثيرة أجهدنى البحث عن حياتها فيما كتبت . ولعل شخصيات بارزة كبيرة الشأن والأثر ، أجلت دراستها لأننى لم أستطع العثور على المادة التى تعطينى صورة الحياة فيها . ولعل الكثير من مفكرينا الأعلام حرصوا على أن يتجاهلوا مشاعرهم الخاصة فلا يبرزوها . وبذلك أعجزونا عن الوصول إلى معالم أنفسهم . وخفقات قلوبهم . ومظاهر حياتهم والأحداث الضخام التى أثرت فى ماضيهم أو حاضرهم .

حقا . أن الكتابة عن « النفس » عند بعض المفكرين وخاصة العقليين والعلماء عيب ، وقد كان من « النقائص » التى أحصيت على زكى مبارك وغيره من الكتاب أنهم تحدثوا عن أنفسهم فى مقالاتهم . ولكن « الترجمة الذاتية » فن من فنون الكتابة أوغل فيه كثيرون منهم طه حسين وأحمد أمين وتوفيق الحكيم وسلامه موسى وهى عندى عملية ضرورية لازمة لأنها ترسم التجربة التى يمر بها المفكر فى ميدان الحياة حين يصارع خصومه ويعلن رأيه ويواجه المعارضة .

وقد صادفتنى هذه العقبة وأنا أعد كتابى الأول عن حياة الأدباء المعاصرين كما صادفتنى اليوم . ذلك أننى فى هذه الدراسة انما كنت أحرص على أن أرسم « صورة حياة » لكل كاتب من هؤلاء تكشف عن طبيعته ونفسيته والعوامل

التى أثرت فى أدبه . ولونت فنه مستهدفا من ذلك أن أضع فى يد القارىء « مفتاح » أدب هؤلاء الكتاب فليس من اليسير فهم روح إنتاج كل أديب دون الإلمام بطرف من حياته يلقى الأضواء على التيارات المختلفة التى أحاطت بفنه وانتاجه محاولا بقدر ما أستطيع أن أكشف عن معالم الحياة الخاصة وما اضطرم فيها من عواصف وأهواء .

وقد استعنت ما وسعنى ذلك بأثار الكتاب وما صوروا به حياتهم من صميم « انتاجهم » نفسه فهو أصدق فى هذا الصدد من كل الأسانيد .

* * *

وتعد هذه الدراسة عن حياة الأدباء والكتّاب المعاصرين من أهم جوانب العمل الأدبى الكبير الذى رصدت له جهودى منذ عشر سنوات وهو « مسح » الحياة الأدبية والفكرية المصرية منذ أول القرن العشرين بصورة تمكن الشباب المثقف من الإحاطة بها إحاطة شاملة . وقد قسمت هذا البحث إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول هو دراسة حياة الأدباء المعاصرين وإلقاء الأضواء عليها وتعقمها وقد أصدرت عام ١٩٥٥ الجانب الأول من هذه الدراسة وعن « الأدباء » وهذا السفر أردت أن أميزه ، فاسميته « الكتاب المعاصرين » وهو يجرى فى نفس الاتجاه ويشمل طائفة أخرى • وقد ضم كتابى « أعلام الأهرام » مجموعة ثالثة وبذلك يبلغ مجموع الشخصيات التى تمت دراستها ٧٩ شخصية وأرجو أن اتبع ذلك بمجموعة ثالثة لما تكتمل لى بعد عناصرها • والقسم الثانى هو الدراسة الموضوعية وقد ظهر من هذا الجانب كتابنا « نزعات التجديد فى الأدب العربى المعاصر » الذى تناول عرضا شاملا مفصلا للاتجاهات والتيارات المختلفة التى تفاعلت فى خلال فترة النصف قرن .

أما القسم الثالث فهو التحليل الكامل المشتمل على آرائى وملاحظاتى عن الأدب المعاصر والكتاب المعاصرين وهو لم يكتب بعد .

وبذلك أكون قد أعطيت القارىء العربى دراسة شاملة لهذه الفترة على أساس التجريد الشامل والبحث العلمى القائم على النصوص والأسانيد ولعلى بعد فترة وجيزة أتمكن من اتمام هذا البحث بالنسبة للأدب العربى كله من « دمشق إلى مراكش » وإن كان هذا يتطلب منى جولة فى الوطن العربى لهذا الغرض .

– ٢ –

أحاول اليوم أن أعود إلى الوراء : إلى نوفمبر عام ١٩٣٨ عندما صدر أول كتاب لى بعنوان « عرائس البكارى » مشتملا على أول دراسة قمت بها للأدب العربى المصرى المعاصر : كنت يومها أقيم فى الريف بين : « دروط والقوصية » من أعمال مديرية أسيوط . أقرأ وأدرس وأكتب فى الصحف الأقليمية وصحف القاهرة . وأتطلع إلى المستقبل وفى نفسى أمل وشوق .

وقد تناولت فى هذا الكتاب : نقد موضوعات كثيرة منها : القصة . والشعر . سمة الخلود فى الأدب . استقلال الشخصية الأدبية . أدب الهدم . أدب البناء . الأدب القوى . أساليب الكتابة . النقل والترجمة . أدب القوة . الأدب الوجدانى . كما تضمن الكتاب فصلا عن علاقتنا بالغرب والحضارة والدعوة إلى التجديد الاجتماعى .

ويعد هذا الكتاب العلامة المميزة لاتجاهى الفكرى كله منذ ثلاثين عاما ويلقى الضوء على المعانى التى كانت تتجمع فى هذه الفترة فى نفسى لترسم خطا واضحا لعملى الأدبى فيما بعد امله تبلور فى هذه الدراسات .

وانظر اليوم فى هذا الـكتاب فأجده يتسم بالجرأة والقوة والحملة الواضحة على أوضاع الأدب المنحرف وعلى معالم الضعف فيه . وعلى شعر المناسبات . وتأثر الأدب بالصداقات . فهو يحارب الألوان الهزيلة والمتميعة ويحمل على أدب اللفظ واغراء الـكتاب للقراء بالألوان وجمال الطبع عن المعانى النافعة والآراء القيمة .

ولقد كانت آرائى — إذ ذاك — جريئة مندفعة فيها عنف وحماسة . ولا غرو فقد كنت فى سن العشرين وأن ظلت الحماسة طابع أدبى خلال فترة طويلة من حياتى الأدبية حتى عام ١٩٤٨ عندما دخلت السجن نتيجة هذه الجرأة فى كتابى « أخرجوا من بلادنا » الذى هاجمت فيه القصر والاستعمار والحـكم الحزبى .

وقد أمضيت من حياتى الأدبية بالريف أكثر من أربعـــة عشر عاما (١٩٣٢ — ١٩٤٥) . ففى عام ١٩٣٢ نشرت لى مجلة (أپولو) مقالا عن « حافظ ابراهيم » باعتباره من مواليد بلدى « ديروط » وعندى أن هذا المقال فى مجلة أدبية تصدر فى القاهرة هو « علامة البدء » فى دراساتى الأدبية . وفى ابريل ١٩٤٦ حضرت إلى القاهرة للاشتراك فى تحرير إحدى الصحف اليومية الـكبرى التى صدرت فى مايو ٤٦ وتوقفت فى نوفمبر ١٩٤٨ وكتبت فيها عدداً ضخماً من المقالات والدراسات . وفى خلال هذه الفترة أيضا أصدرت بضعة عشر كتابا فى السياسة والوطنية والاسلام . وتميزت هذه الفترة الأولى من عملى الفعلى بالصحافة بالعنف فى الهجوم على الحزبية والأحزاب والحـكومات المتواليـة . وكان التأليف والـكتابة الأدبية عندى أقوى من العمل الصحفى اليومى . وكان اتجاهى أصلاحى اجتماعى قائما على تغليب الفـكرة الاسلامية وإبرازها وقد تناولت بالدراسة (١) الحزبية وأثرها على الوطنية (٢) الاســـتعمار وأثره فى العالم الإسلامى وقضايا الحرية فى الشرق (٣) الاسلام والحضارة الأوربية (٤) حركات الثورة والتحرر ودعوات الاصلاح فى الشرق . وكنت قد انتهيت

من إعداد هذا الـكتاب قبل اعتقالى بأيام وأودعته لدى أحد المعارف الذى تخلص منه بإعدامه فلم ير النور ...

وعندما أعود إلى مؤلفاتى فى هذه الفترة لا تعجبنى . ذلك لأنى أجـد فيها الحماسة تغلب الفـكر . والعنف يسبق الرأى . والعاطفة توجه التاريخ . وقد لاحظ هذا أستاذنا الرافعى عندما أصدرت كتابى « أخرجوا من بلادنا » فقد كتب إلى يقول :

« قرأت الـكتاب قراءة أولى وسأقرأه مرة ثانية أكثر استيعابا وامعانا من الأولى لأنى وجدته جديرا بأن أقرأه مرة أخرى . وإنى لأقدر هذا الشعور الفياض الذى يتجلى فى عبارات الـكتاب وهذه الدراسة العميقة للمسائل الوطنيـة . فإن النهضة الوطنية لهى فى أشد الحاجة إلى دراسات عميقة . لتبصـير الجيل بحقائق الأحوال فى المحيط العام ورسم الأهداف التى يتجه إليها فى كفاحه . وإنى مع إعجابى بقوة وطنيتـكم وعمق تفـكيركم لا أشاطركم الرأى فى بعض آرائـكم . ولعل فوارق السن هى الباعث على هذا الذى لا أوافقـكم عليه . وسأحتفظ بهديتـكم القيمة كذخيرة وطنية وثمرة يانعة من تفـكير الشباب وكفاحه فى سبيل مصر بقلمه وقلبه ولسانه[1] .. » .

فلما دخلت السجن وأمضيت فيـه عام ١٩٤٩ كاملا مع شهور من عامى ٤٨ و٥٠ كانت فرصة كافية لـكى أراجع آرائى وأفـكارى وأنقحها فقد استطعت أن أفهم أننى كاتب ومفـكر وباحث ليس غير وأن مجالى الوحيد هو تراجم الأعلام وتاريخ الأدب . والـكشف عن أمجادنا كمصريين وعرب ومسلمين .

---

(١) ٢١ ديسمبر سنة ١٩٤٦ .

ولما خرجت من المعتقل كنت قد وضعت الخطوط العامة للأعمال الأدبية التى قمت باعدادها بعد ، والتى أصدرتها فى خلال السنوات التى تلت عام ١٩٥٠ . ولعل الاعتقال هو أبرز « الأحداث » التى حولت تفكيرى فأعطته طابع التركيز والاعتدال والواقعية وتغليب « العقليات » على الوجدانيات .

ومن ثم قلت حماستى واندفاعى حتى إن صديقا هو الأستاذ يوسف الحطاب عندما التقى بى أول مرة عام ١٩٥٢ قال لى أنه يعرف كاتبين اسمهما « أنور الجندى » أولهما الكاتب الاسلامى المتحمس . والثانى الكاتب الاجتماعى المعتدل .

ولعلى عندما خرجت من المعتقل عام ١٩٥٠ كنت قد بلغت من العمر الثالثة والثلاثين . وكنت قد مررت بمرحلة « الانفجار النفسى » الذى ظهر فى اندفاعى الكتابى بعد حضورى إلى القاهرة بصورة عجيبة بحيث أننى كنت أكتب أكثر من عشرين صفحة يوميا . وهو ما أعلله بأنه « رد فعل » للحرمان الذى قاسيته بانعزالى فى الريف . وأنا أتطلع إلى الحياة الصحفية والفكرية فى القاهرة . وأحاول بكل وسيلة أن أفك هذه القيود وأهرب . فقد كانت أيامى خلال هذه السنوات قاسيه . إذ كان الضيق والحرمان ، بالإضافة إلى الريف والفقر والوحدة ، كانت هذه العوامل تجعلنى ضيق الصدر أدفن نفسى فى قراءات متصلة . ثم أخرج فى المساء إلى الطريق الزراعى الطويل فى « القوصية » مع صديقى طه لأشاهد القطار العائد إلى القاهرة فى المساء . وهو يمرق بأضوائه من بين الأشجار والنخيل . وأجلس هناك على طرف ترعة الابراهيمية أناجى النفس بالأمل المرموق : السفر إلى القاهرة .

فلما تحقق هذا الأمل . وتركت العمل فى بنك مصر لأعمل فى الصحافة بالقاهرة . كانت هناك قوة « مطموره » تريد أن تندفع كما تندفع النار والحمم من قلب البركان ...

ولم ألبث أن وجدتني في السجن ...

فلما خرجت لم يكن السجن قد انقص إيماني الوطني أو ثقتي برسالة القلم . ولكنه عدّل اتجاهي وأسلوبي · وجعلني اتجه إلى خدمة الوطن والفكر والاسلام، بوسائل جديدة وفي آفاق جديدة ولقد كان ايماني بقرب إشراق الفجر الجديد ايمانا أكيدا · ولذلك فإنه ما كاد يبزغ حتى تلقيته حفيا به ، صادق الاحساس بأنه « النور » الذي تطلعت إليه من خلال الدخان والسحب ... في خلال الليل الطويل الذي عاشت فيه مصر ...

* * *

واليوم (٢٠ ديسمبر ١٩٥٧) وأنا أعدّ هذا الكتاب للطبع ماذا أجدني بعد أحد عشر عاما في القاهرة · وبعد ثمان سنوات لم تكتمل منذ خروجي من المعتقل وبدأ اتجاهي الجديد ...

الحق أنني أجدني لم أصل بعد إلى ما أريد · فقد فشلت في إخراج مجلة أدبية شهرية مرتين « عطارد » ١٩٥٣ و « أضواء » ١٩٥٧ · ولعلي أعاود الكرة مرة ثالثة واجدني قد فصلت بين عملي الصحفي وعملي الأدبي مضطراً وقد كنت أتمنى أدمجهما . فأنا أعطي شباب يومي للصحافة · ثم أفرغ في المساء لدراساتي ابحاثي · واعتقد أنها العمل الباقي . أو العمل الذي يمكن أن يوضع في الميزان ·

ولا أكرر هنا ما كتبته في هذا الصدد في مؤلفاتي الأخرى[1] عن أثر الصحافة في الأدب وغلبة الصداقات على التقدير المجرد للأعمال الأدبية · وعن تجاهل

---

(١) « عشرون عاماً » : مقدمة كتاب أضواء على حياة الأدباء المعاصرين . ومقال « القلب الموزع » ص ١٥٧ من كتابي جولات ومقال « من سلة المهملات » ص ١٩٢ من نفس الكتاب المذكور .

كبار الصحفيين ورؤساء التحرير لبعض الكتاب والمفكرين الذين أعلنوا اعتزازهم بشخصياتهم وبعدهم عن أساليب النفاق والملق وحرصهم على كراماتهم .

وعندى أن الكسب المادى . والمنصب اللامع فى الصحافة . لا يكون أبداً ثمناً للتبعية والسير فى ركاب الكتاب الكبار . ولن يقبل « مفكر » مثالى — أعطاه الريف روح الاعتزاز — التضحية باستقلاله والاندماج فى المواكب التقليدية ، ليتحقق له مظهر تافه من مظاهر الظهور والتبرير المصنوع . وعلى الكاتب الصادق الإيمان بنفسه وكرامته أن يظل بعيداً عن هذه الأضواء المفتعلة التى لا تقوم على تقدير صحيح لآثاره الأدبية إلى أمد يطول أو يقصر ، يتحقق بعده التقدير المجرد لإنتاجه وأدبه وقد حدث هذا مع الكثيرين من الكتاب والمفكرين الذين عزفوا عن الكسب بالصداقة أو حرق البخور أو حمل القماقم لكبار الكتاب الذين بيدهم سلطة الأمر بالنشر فى صدر الصفحات الأدبية ..

ولعله من الخير أن أسجل أننى لم أكن يوما من اتباع « مدرسة » من هذه المدارس ذات المذاهب المختلفة التى تظهر فى الصحف : سواء مدرسة الواقعية أو الانحلال أو اليسارية أو الألحاد أو الوجودية أو الأدب الجنسى أو الأدب الأسود مؤمنا بأننا لسناشرقيين ولاغربيين ولم اندمج فى موكب كاتب من الكتا أو أديب من الأدباء أو صحفى من الصحفيين مكتفيابقوتى الذاتية فى الاندفاع هدفى وغايتى الأدبية .

كما أننى حررت نفسى من مغريات الصحافة فلم أجنح إلى كتابة أى « لون » من الألوان الطريفة أو الخفيفة أو الفكاهية أو الجنسية التى يحفل بها أصحاب الصحف والمجلات ويجندون لها الكتاب بأجور عالية بالرغم من المحاولات والمغريات التى بذلت ...

ولقد واجهت هذه « المتاعب » فى خلال هـذه الفترة من حياتى الأدبية بصرامة وعناد شديدين . ذلك لأننى بدأت حياتى العملية مبكراً ... قبل السابعة عشرة وقبل أن أتم تعليمى . هجرت بلدتى وبدأت حياة جديدة منفصلة عن الأهل ... واعتمدت على نفسى منذ ذلك اوقت البا كر . واستطعت أن أحمل متاعى على كاهلى . وأمضى بها لأشق الطريق الطويل الملىء بالصخور . وقد استطعت أن أمضى فعلا وأن أحقق انتصارات قوامها العزم والتصميم دون أن اعتمد على شفاعة أو صداقة أو مجاملة أو اصطناع النفاق أو الخداع أو السير فى ركب الأدباء الـكبار زلفى ومجاملة على طريقة الأمـّـعات ...

وقد وصلت إلى « مطلع » الطريق بعد جهد عسير وزمن أطول . ولـكنى وصلت حقا وصدقا . وأنا متأ كد من أن خطواتى على « السفح » ثابتة راسخة ليس فيها افتعال . وأنها أهل لأن تثبت أمام « أعاصير » القمة الباردة عندما أقترب منها . فإن الوصول السريع يؤدى إلى الانحدار السريع - أما الوصول البطىء فإنه علامة النصر الأ كيد . والظفر المحقق .

وسأمضى ليس معى من عون إلا « الله » وقوتى الذاتية المستمدة من إيمانى وخلقى . ولن أطلب من « انسان » عونا . وصدق اسماعيل مظهر وهو يقول لى : أن العبرة ليست بالوصول بل بوسائل الوصول .

كم من البارزين الذين تلمع أسماؤهم ويخدعون القراء وصلوا ... ولـكن من أى سبيل وبأى سلاح ! هذا هو السؤال ؟

وعقيدتى الأدبية هى إيمان صادق بروح الثورة المصرية العربية الـكبرى ، هذه

الجذوة التي انبثقت من ضمير الأمـة فى صورة من النـار تحرق الاستـعمار والاستبداد . وصوره من النور تضيء للاجيال طريق النصر .

لقد شقيت حقا بأيامى فى هذه الفترة فقد كان « الحب » يستطيع أن يخفف من جفاف أيامى . ويهدهد نفسى . ويملأ حياتى ببريق السعادة . لقد استطاع أن يوحى إلى ويمدنى بقوة العمل سنوات أربعا ولـكنه فيما يبدو قد ضاق بجفاف أيامى فلم يشأ أن يقطع معى الطريق الصخرى الصحراوى الجاف ... فتركنى ثمة . ثم عاد ليلتقى بى مرة أخرى ... وأنا منه خائف ومشفق : ترى هل سيمضى معى هذه المرة أم سيدعنى وحدى . ليته لا يفعل الأخرى !؟

٢٠/١٢/١٩٥٧

أنور الجندي

المتوفون

- ١ -

أحمد زكى باشا

شخصية نادرة قليلة المثل اليوم : عندما نذكره يرد إلى الذهن إشباه له ونظائر « أحمد تيمور . شكيب أرسلان . محمد كرد على . فريد وجدى . رشيد رضا » عاش حياة خصبة عامرة بالعمل من أجل فكرة كانت أيام دعوته لها تقاسى صراعاً ضخماً من دعاة القومية الخاصة والوطنية المحدودة من ناحية . ومن دعاة التغريب والارتباط بالحضارة الأوربية من ناحية أخرى فكان هو وصفوه قليلة يحملون لواء العمل للعروبة . وكان أحمد زكى باشا شيخ العروبة من أشد هؤلاء حماسا . يؤمن فكرته إيماناً صادقاً عنيفاً من أعماق روحه ويدعو إليها فى قوة . وله من ذاتيته الخاصة وشبابه وحيويته ومن ثرائه وغناه ما يحقق له ذلك فى الوانه وصورة المختلفة . دارة مجمع الأعلام من القادة والزعماء المفكرين يسمرون ويتحدثون ورحلاته إلى أوربا فى مختلف بلادها دراسة وقراءة وزياراته للمتحف ودور الكتب ينقل عددا من المخطوطات النادرة بالفوتغرافيا . وهو فى الشرق يقابل ملوك العرب وأمرائهم وزعمائهم ويسفر بينهم ويسوى خلافاتهم ، وهو فى مصر مشغول بالبحث والدرس يكتب ويراجع ويبحث . ويعقب على كل من يعرض للاسلام ولأمجاد العرب ويصحح له أخطائهم التاريخية . وقد قرأ ما كتب المستشرقون والتقى بهم مرة وثانية وثالثة فى مؤتمرات متعددة فى لندن وغيرها من عواصم أوربا .

وهو فى جريدة الأهرام يكتب منذ ١٨٩٢ يصحح الأغلاط ويصوب الأخطاء ويدعو إلى مجد العرب ويدافع عن الإسلام ويرد قالة السوء .

وقد شغل الدنيا أكثر من أربعين عاماً بالبحث والمناظرة المحاضرة يعكف صفوه نهاره على مكتبته الضخمة التى تحوى ١٠ آلاف مجلد بين مطبوع ومخطوط فإذا جاء المساء عاد إلى بيته حيث يستقبل صفوه الأقطاب .

لا يمر يوم دون أن يكتب شيئاً عن رحلاته أو إبحاثه أو يحضر إجابة عن مسألة أو يحبر مقالة . أفاد من المستشرقين منهجهم فى البحث مع غيره قوية على اللغة والدين والعروبة . وهو أول من دافع عن العروبة وحماها وأول من وقف فى وجه التيار الضخم الذى تحطم على ساحل مصر والشرق . من دعوة الألحاد والعامية والتقليل من قيمة أمجادنا وأثارنا وتراثنا .

حضر مؤتمرات جنيف وهمبرج وأثينا ورفع صوت العروبة فيها داويا . كتب عن الصخرة فى القدس . والأندلس . واليمن والدنيا فى باريس . وأربعة عشر يوما فى خلافة الأمير محمد عبد الرحمن الأندلسى . ومؤلفاته الأخرى عن الحضارة الإسلامية والترقيم فى اللغة العربية وقاموس الجغرافية القديمة وموسوعات العلوم العربية والبريد فى الاسلام كما جدد وصحح كتب ابن المقفع وابن الكلبى والجاحظ والصفدى . وترجم لجول فيرن وفيكتور هيجو .

وقد كان من أول مؤسسى الجامعة المصرية القديمة وهو أول سكرتير لها . وأستاذ تاريخ الحضارة الاسلامية بها . وقد ألقى محاضرات فى الجامعة عن الجغرافية القديمة عام ١٩١٠ — ١٩١١ وكتب فى الأهرام فصولا عن حضارة الأندلس عام ١٩٢٣ صور فيها كيف عاشت وكيف اندثرت وعرفت بالبحث الدقيق مدعمه بالوثائق والأسانيد . كما كتب عن مضايق اللغة ومتاعب الترجمة بمناسبة نقل

ا لسير في الورقة من الأصل

ات الأفرنجية إلى اللغة العربية وقد جمع عدداً كبير من
وقدمها للطبع فى دار الكتب المصرية وقد بلغت ٨٧ كتاباً
موعات العربية .

* * *

وكان أحمد زكى باشا من ذوى النفوس النقية المتطلعة إلى الحياة فى صفاء ، الراغبة فى السلام والمرح والانطلاق . كان بيته على شاطىء النيل كعبة القاصدين وقد بنى مسجداً أنيقا ومقبره ظل يعمل فى إعدادها أربع سنوات كاملة . وقد حرم من الأولاد فلم يعقب أحداً وقد صور مشاعره أزاء الجمال والحسن ... «[1] بعد أن فرغنا من المؤتمر ذهبت إلى بلجيكا وفرنسا وانجلترا وانتهزت الفرصة لإمتاع النفس والقلب والفؤاد بكل ما فى لندرا وباريس من متع ومسرات وظللت أعبر « المانش » بين العاصمتين الكبيرتين أحدى عشر مرة ، دون أن يصبنى دوار البحر أونيالنى منه سوء ولم يكن جل همتى فى تلك الرحلات إلا الاستزادة من العلم والتوسع فى البحث . على أننى فيما بين ذلك كنت لا أضن على نفسى بما تصبوا إليه من التطلع إلى كواكب الجمال . وجمال الكواكب . فى ذلك الفلك الدوار » .

ويروى قصة الفتيات اللواتى قابلنه فى لندن . وطلبت منه إحداها قراءه الكف . . « ثم بادرتنى بأن بسطت لى يمناها لا للتقبيل — ولكن لقراءه البخت . فانتهيت إلى كفها بسطا وقبضا وتقليبا وغمزا وحسا وجسا وصرت انتقل من البنان إلى الراحة ومن المعصم إلى الذراع . ثم إلى المرافق . وهكذا صار أحمد زكى عالما للكف رغم أنفه » .

---

(١) كتاب الدنيا فى باريس عام ١٩٠٠ .

وعندما سئل عن الحياة والموت قال «ماأودالوصول إلى

المتشبثون بالحياة . وإذا وصلتها رغم أنفى فمالى بها عزاء ـ لخدمة العروبة والاسلام . سوى مواصله السعى لتقويم الأغلاط الجارية السكتاب . سوى اقامة الحجة على نصرة الصواب » .

وتلك كانت من آخر ما تحدث به من أحاديث صور فيها أهدافه فى خدمة العروبة والاسلام وتقويم الأغلاط وتصحيح التاريخ وهو يقول مع الطغرائى :

تقدمتنى أناس كان خطوهم — وراء خطوى لو أمشى على مهل

وكانه أحس بغلبه أصحاب البريق على أصحاب الحق . .

* * *

كان أحمد زكى باشا يملك ذوق الفنان وأسلوب السجع والبديع . وفى نفسه إعتداد بالعروبة وتطلع إلى المستقبل ووفاء وغيره وروح بشريه خفاقه وقلب عامر بالإيمان والحب

وقد امدته رحلاته المتعددة بطاقة ضخمة من الخبرة والتجربة فقد زار أسبانيا وأسيا وأفريقية وأوربا وتخوم القطب الشمالى والقوقاز ..

وقد شارك فى كل قضية عربية فى خلال حياته : اليمن وفلسطين والحجاز وكان يقول دائماً « اللغة العربية رابطة بين الأقطاع العربية وأنا مصرى ولكنى أيضاً عربى .. »

* * *

ويقول أحمد زكى باشا « أننى رجل أميل إلى الحركة والبحث منذ كنت شابا يافعا أقتل الليل منقبا عن مسألة ما . واجتاز البحار وأقطع القفار للعثور على أثر

أو حقيقة ضائعة . وقد حدث أنى رغبت فى الوقوف على أصل كلمة « زفتى » هل هو عربى أم مصرى قديم فذهبت ذات يوم إلى دار الكتب وصرت أبحث وأنقب طوال الوقت علنى أعثر على أصل هذه الكلمة فلم أوفق . فعاودت البحث والتنقيب فى اليوم الثانى والثالث . ومكثت أقلب القواميس وأتصفح الموسوعات ولكنى بالرغم من إضاعتى لجميع الوقت لم أظفر برغبتى .

وأخيرا بينما كنت أجيل النظر فى كتاب « ياقوت الحموى » وقفت فيه على أن « زفتى » اسم قبطى لهذه البلدة المشهورة . ولما جاء العرب أطلقوا عليها منية زفتى .

وتعتريني فى كثير من الأحيان حمى تستفزنى إلى الكتابة ، ولا سيما إذا أيقظتها غلطة مؤرخ » .

— ٢ —

البـــارودى

الشاعر . الفارس . الوزير . الوطنى . المنفى : تلك مراحل حياته . جدد الشعر . وخاض المعارك . وولى الوزارة فى أحرج الأوقات . واشترك فى الثورة العرابية وأمضى أربعة عشر عاما فى المنفى ، حتى كف بصره ، ثم عاد إلى مصر فلم يلبث أن لفظ أنفاسه الأخيرة بعد سنوات أربع فى ١٢ ديسمبر ١٩٠٤ .

يعطيك تاريخه صورة الرجل القوى الممتاز . فيه الاعتزاز بالنفس يكاد يبلغ الذروة . وفيه الأنفة والسمو والتعالى . ولعل هذا هو الذى حال بينه وبين الايغال فى نظم شعر العاطفة المشبوبة التى كانت ولابد لها فى حياته نصيب كبير .

سئل فى أى أحوال حياته كان أميل إلى الشعر وأكثر اشتغالا به فأجاب بقوله : « ... إن خطرات الشعر صحبتنى فى أيامى كلها . ولم تفارقنى إلا فى أقلها . لقد كنت فى ريعان الفتوة واندفاع القريحة بتيار القوة الهج به لهج الحمام بهديله . وآنس به أنس المديل بمديله . لاتذرعا إلى وجه انتويه ولا تطلعا إلى غنم احتويه. وإنما هى أغراض حركتنى وإباء جمح بى . وغرام سال على قلبى . فلم أتمالك أن أهبت لحركت بى جرسى أو هتفت فسريت به عن نفسى ... »

كذلك يبدو لى «البارودى» من وراء قراءتى عن حياته وشعره وأحداث عمره ، يبدو لى فى أهاب الاباء وقد صقله الألم فى أيامه الأخيرة واعطى شعره مسحة من الحزن المشبوب بالحرمان ، وهو مالم يبرز فى شعر شوقى الذى عاش خمس سنوات فى المنفى أو شعر ولى الدين يكن الذى قاسى النفى أيضا ...

فإذا عرفنا أنه من أسرة محـــاربة جركسية الأصل صقلتهما أرض مصر وملأت روحها مصرية صميمة لم نستغرب طبيعته العسكرية ولا اندفاعه إلى الميادين . ثم اتجاهه إلى الشعر كأنما هو كما وُصف « رب السيف والقلم » . اعطته العربية روحها والسيف وقاره · وقد كان له من كفاحه وحربه فى كريد وبلاد الروس ما كان بعيد الأثر فى نفسيته وشعره ·

وقد سجل النقاد جميعا أثر البارودى على الشعر باعتباره يمثل مرحلة انتقال أكيدة بين المدرستين القديمة والحديثة · وإن كان قد جارى القدماء وقلد النواسى والشريف والنابغة وأبى فراس غير أنه صور عواطفه وتعمقها . وتجاوب مع روحه الحرة المطلقة إلى مقاومة الظلم .

وقد بدأ فى عهد اسماعيل يذم الحكام ويحرض على طلب العدل وكان هذا مقدمة لاتجاهه فى الانضمام إلى العرابيين والعمل معهم ·

* * *

دخل المدرسة الحربية وتخرج منها ضابطا . وأتيح له أن يخوض المعارك . وهنـــاك بهر القواد بجرأته · فقد ذهب فى حملة الجيش المصرى الذى ساعد الدولة العلية لإخماد ثورة كريد ١٨٦٨ ثم سافر مرة أخرى لنجدة الدولة العليا عام ١٨٧٧ .

وكان قبل ذلك قد رحل إلى الاستانة ودرس الأدب التركى والفارسى ونظم القصائد بهاتين اللغتين ·

ثم عين وزيرا للأوقاف . وكان فى خلال ذلك مهتما بالأدب والقراءة صديقا للسيد جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ودعاة الإصلاح والشورى ·

ثم تولى رئاسة الوزارة فى أحرج الأوقات . وكان فى خلال هذه الفترة « يد عرابى وعينه » فى مجلس النظار على حد تعبير الأستاذ الرافعى .

فلما طعن الخونة ثورة عرابى كان واحداً من قادتها الذين حوكموا ونفوا إلى سرنديب حيث قضى فترة سبعة عشر عاما بعيدا عن الوطن .

وكان النفى بعد ارتفاع السن وفى حدود الخامسة والأربعين ، وهى مرحلة من العمر تثقل فيها حياة الوحدة .

هناك تحول شعره من العاطفة والفروسية والجمـــال إلى عاطفة الشوق والحرمان والدين . وقد نظم أكثر شعر المنفى فى مدينة كندى بجزيرة سرنديب . وكان شعر المنفى صورة صادقة لنفسه المتألمة الموتورة وفيه يأسف لذهاب الشباب ويحن إلى الوطن .

وعندما اختلف مع زملائه فى كولمبو هاجر إلى كندى . وكان الشعر سلواه . ومتنفس عواطفه . وقد عاش يترقب العودة ، فإذا البريد يحمل له أنباء الموت وهو يتخطف ابنته وزوجه وأصحابه وقد بدا بصره يضعف . والفناء يدب إليه .

كان شديد الحنين إلى الوطن . يملأ نفسه النوى . ثم راضته الأيام بعد الجموح فاتجه إلى الزهد . ثم عاد فثارت نفسه وجاشت وقد قام بدور لا ينساه له التاريخ فى كندى إذ علم طائفة من الأهالى اللغة العربية والإسلام .

فلما عاد إلى مصر أعيدت له حقوقه وإن ظل فى جفوة من الناس الذين كانوا يخشون لقائه .

وفى نماذج من شعره يصور ألم المغترب فى منفاه .

لم اقترف ذله تغنى على بمـــا أصبحت فيه فماذا الويل والحرب

فهل دفاعى عن دينى وعن وطنى ذنب أُدان به ظلما واغترب

فــلا يظن بى الحساد مندمة فإننى صــابر فى الله محتسب

وفى قوله .

ردوا على الصبا من عصرى الخالى وهل يعود سواد اللمة البــالى

غبتم فأظـلم يومى بعد فرقتكم وساء صنع الليـالى بعد إجمـال

فاليوم لأرسنى طوع القياد ولا قلبى إلى زهرة الدنيا بميـــال

ويذكر حلوان وكانت من جلوات عاطفته واجب الأماكن إليه .

إذا خطرت من نحو حلوان نسمة نزت بين قلبى شعلة تتوقـد

فــا هى إلا أن نظرت فجاءة بحلوان حيث أنهار وانعقد الرمل

فتاة يحـار الطرف فى قسماتهـا لهــا منظر من رائد لا يخلو

لطيفه مجرى الروح لو أنها مشت على ساريات الذر ما آده الحمل

غبتم فأظـلم يومى بعد فرقتكم وساء صنع الليـالى بعد إجمـال

وفى منفاه تـكشفت عاطفته الدينية ووضحت حيث نظم قصائد نهج البردة وكشف الغمة ومدائح أخرى للرسول .

وهو يذكر ماضيه كله فى حنان عجيب .

لختام بشرى فى دياجير محنـــة يضيق بها عن صحبه السيف غمده

إذا المرأ لم يدفع يد الجور إن سطت

عليه فــلا يأنف إذا ضاع مجده

عفاء على الدنيا إذا المرء لم يعش

بهـــا بطلا يحمى الحقيقـــة سده

وإنى أمرؤ لا أستـكـــين لصولة

وإن شد سـاق دون مسماى قده

ويصور شعر البارودى شخصيته المتجملة المتعاليه عن صغائر الأمور المترفة فى شعر الحب .

فـكيف يعيب الناس أمرى وليس لى

ولا لأمرىء فى الحب نهى ولا أمر

ولو كان ممـــا يستطاع دفاعه لألوت به البيض المباتر والسمر

على أننى كاتمت صدرى حرقة من الوجد لايقوى على حملها صدر

حياء وكبرا إن يقال ترجحت به صبوة أو قل من غربه الهجر

وإنى أمرؤ لولا العوائق إذعنت لسلطانه البدو المغيرة والحضر

من النفر الغر الذين سيوفهم لهـا فى حواشى كل داجية فجر

إذا استل منهم سيد غرب سيفه تفزعت الأفلاك والتفت الدهر

وكان البـــارودى قد عرف فى شبابه الحب والطرب والشباب وقرأ الشعر القديم واجب أحلام الفرسان واعتز بشخصيات أبو فراس الحمدانى وعنترة وأقام ثمة على ضفاف السفور وسافر إلى إوربا . وكان طوال حياته طموحا عالى الهمة . عرف بشرف النفس وسمو الخلق والجود والروية والأناة . ووصفـــه المرابيون بالاعتدال والذكاء والجمع بين الروية والحنـكة . وهو أول من خرج بالشعر إلى

الحياة وقد أكب منذ يفاعته على تراث الأقدمين من الشعراء وإن لم يتمكن من فن العروض وقواعد النحو[1].

* * *

ويقول هيكل أن الشعر مكث حوالى عشرة قرون وهو مهلهل الأسلوب مفكك العبارة سطحى المعنى محدود الأغراض إلى أن ظهر البـــارودى · وقد اتفقت كلمة النقاد المحدثين على أنه الصوت المدوى فى عالم الشعر الحديث · وأنه هو الذى خرج به إلى الحياة .

---

(١) اقرأ « شوقى والبارودى فى المنفى » لأنور الجندى ص ١٦٠ من كتابه « الجباه العالية »

المويلحيان

هما ابراهيم المويلحى ومحمد المويلحى : الأب والإبن أديبان . مال ابراهيم إلى الترسل . واتجه محمـــد إلى السجع . وقال محمد عبده إن ابرهيم المويلحى هو أبرع الكتاب إذا وصف وأوجعهم إذا هجا . وقال ابراهيم عن أسلوب ابنه محمد « ابنى صائغ جواهر » .

أما إبراهيم المويلحى فقد عاش حائراً لا يستقر ثائراً لا يهدأ . جاب أطراف الدنيا . وارتفع إلى مجالس الخديويين والخلفاء والسلاطين . مال إلى الأدب وأقبل على الدواوين والرسائل ومؤلفات التاريخ وأعجب بطريقة الجاحظ . واتصل بجمال الدين وتأثر بآرائه .

عرف بالطبع الجرىء فلم يصبر على الوظيفة . وضارب فى سوق المراهنات . ملك من النضار الألوف ثم بعثرها . نزل إلى ميدان السياسة بقلم من نار . ودعا إلى المجلس النيـــابى . وعرف باستقلال الرأى وحرية الفكر وطبيعة الفنان . وأنشأ جريدة نزهة الأفكار مع صديقه محمد عثمان جلال ثم عطلها الخديو بعد صدور العدد الثانى .

سافر إلى إيطاليا فتركيا بعد الاحتلال وتلقفه السلطان عبد الحميد شأنه مع أحرار الفكر ليضمه فى قفص جمال الدين ونديم الذهبى ، وأغدق عليه واختاره عضواً فى مجلس المعارف وعاش هناك تسع سنين واستطاع أن يفلت من القيد ويعود إلى مصر ...

وبالرغم من أن السن قد ارتفعت به بعد إلا أنه ظل قوى العارضة فأصدر « مصباح الشرق » وبدأ حملة على العيوب السياسية والاجتماعية بقلمه النارى، وأسلوبه البارع وطريقته الساخرة فى تناول الأشخاص ونقد الأوضاع . . .

وتحدث عن « تسميرة » الرتب والألقاب . كما تنـاول الأمراء والأعيـان وصورهم فى صور البلاهة والغفلة . . .

وله كتاب « ما هنالك » جمع فيه مقالاته فى نقد الحياة السياسية فى تركيا أبان عهد عبد الحميد . وقد صودر هذا الـكتاب وأحرق وتسرب منه عدد قليل .

وقد وصف بأنه ليس أبرع منه ولا أقذع من أسلوبه فى النقد . وقد رسم شخصيات كبيرة كانت تعيش فى تركيا فى ذلك الحين ووصف الدولة التركية وهى فى طريقها إلى الفناء .

وقد شارك فى تحرير مجلة « أبو زيد » حيث كتب فصولا فى الحوار بين أبو زيد الهلالى وأبو زيد السروجى .

ويعد « ابراهيم المويلحى » من أعلام حركة البعث للنثر الفنى . وقد كان أمام المدرسة التى اتبعت الطريقة الجاحظية فى الترسل موثراً الجزالة والسهولة …

ومن نماذج كتاباته تعليقا على حادث قتل فيه أعمى بصيراً : « . . إذ أصبح الأمى محرراً . والأعشى مصوراً . وأصبح الوزير شاكيا ، والغنى باكيا . وأصبح القاضى محتالا . والوصى مغتالا . وأصبح العالم مخرفا . والجاهل مؤلفا . وأصبح الأجنبى مدللا والوطنى ذليلا . وأصبح الطاهى مهندسا والفقيه مدلساً . وأصبح الطبيب صوفياً . والصيدلى سياسياً . ومدير المعارف أعجميا . وأصبحت ذوات الأوراق فى مقـام ذوات الأطواق . ينشد الأشعار والأشواق فى الحـانات

والأسواق . وأصبح خطيب القوم . صبيا رقيما . وحامل اللواء غلاما وضيما .
وأصبح الفكر يسمى عرفا . والثقل يسمى لطفا وأصبح الأحمق يسمى رشيدا .
والألمعي يدعى بليداً . وأصبح عميد الشيطان يتعبد ويتهجد . وإسم المسلم خريستو
بعد أحمد . وأصبح التزوير صناعة والنفاق بضاعة . وأصبح الدعى حسيبا نسيبا .
وكف العارف بالله في الحضرة خصيبا . والمريد له في الخلوة شكيبا . والمراد من
أمرهما شيئا عجيبا . وأصبح الزاهد مرابيا . والعابد محابيا .

وطاولت الأرض السماء سفاهة   وفاخرت الشهب الحصى والجنادل

وقال السها للشمس أنت ضئيلة   وقال الدجى للصبح لونك حائل

فليس من غريب أن يفتك الأعمى بالبصير . . »

* * *

أما محمد المويلحي صاحب حديث « عيسى بن هشام » الذي جاء نسقا فريدا
من نوعه في القصة فقد كان محبا للعزلة والانزواء . زاهدا في الشهرة . أشبه
بالفيلسوف القانع . يقتصر في المعرفة على فئة قليلة من صفوة معارفه . لا تهمه
الحياة . ليس طامعا في مال أو منصب أو جاه .

تحقق له الجمع بين الثقافتين العربية والغربية . وهو في هذا يختلف مع والده
المقتحم الجرى الطموح .

ولكنه يلتقي معه في أنه كان حجة في اللغة راوية للشعر . اشتغل بالصحافة
فلفت الأنظار ببلاغته وقدرته .

اشترك في تحرير « مصباح الشرق » حيث كتب فصول عيسى بن هشام .
وفي خـــلال تلك الفترة دب خلاف بين والده وبين المرحوم على يوسف

فتبادلت جريدتيهما الجدل فترة حدث خلالهـــا أن كان محمد المويلحى جالساً فى مكان عام عندما اعتدى عليه محمد نشأت بأن ضربه بالـكف بسبب انتصار المويلحى له فى جريدة مصباح الشرق ٠ وانتهز الشيخ على يوسف هذه الفرصة وفتح بابا فى جريدته أطلق عليه إسم « عام الـكف » وأخذ الـكتاب ينشرون فيه رسائل عدة ٠

وأسلوب محمد المويلحى يميل إلى السجع وحسن الصياغة مخالفا أباه ٠ وقد ذكر بعض النقاد أن كتاب عيسى بن هشام انما كتبه ابراهيم المويلحى وهو قول مردود لاختلاف أسلوب الـكاتبين ومذهبهما فى الانشاء ٠

وقد كان محمد المويلحى صديقا لحافظ ابراهيم ومحمد البابلى ولطالما قال عن نفسه أن الله أنعم عليه بشيئين : أنه لم يرث ولم يتزوج ٠

— ٤ —

أمين الريحاني

« ... دخلت الغابة التاريخية القدسية وأنا أتلمس فى سكينتها الرهيبة موطنا للقلب الهائم . ومحرابا للروح الخاشعة . ودخلت الهيكل مؤمنا مستأمنا · ومشيت فى الأروقة المفروشة بالطنافس السوداء المصنوعة من ورق الأرز وترابه · ووقفت تحت القبة الخضراء إلى جنب عضاده من المضادات الكبرى وأنا أفكر بما دهمنى ساعة الاستظلال وما غمرنى ساعة التجلى ·

سكينة يحتضنها الجبل ويعطر جوانبها الأرز . سكينة تتهادى تحت الأغصان فتجر الأذيال على ما تناثر منها . فتحدث صوتا ولا صوت النسيم فى السحر . صوتا هو الهمس السهل الممتنع الذى تحنو له أساليب البلاغة والبيان .

... وقفت فى ذلك الهيكل تحت القبة الخضراء بين العمد الساحقة أعفر فى تراب السكينة وجه الشك · وأمسح بعطرها عين الشوق . وأرهف بهمسها أذن الحب والغفران ، ثم سمعت للبلاغة أصواتا قديمة وللبيان لهجات غريبة . وللتمجيد همسات ونبرات كانت تتساقط كورق الأرز فى أحضان السكينة أو كقطر نيسان على ورق التوت وأصواتا كهديل الحمام فى سكينة الفجر . وأصواتا كهمس الأشجار على ضفاف الأنهار وأصواتا رفيعة حادة . وأصواتاً كصدى أجراس المساء فى الجبال » تلك هى صورة موطنه ومسقط رأسه « الفريكة » حيث ولد وشب ووعت نفسه صورة الحياة الأولى ... ثم ذهب يطوف فى البلاد طواف المغامرين . وقد ذهب إلى نيويورك شأن جبران وميخائيل نعيمة ثم انتقل

إلى انجلترا ففرنسا فالأندلس فالمغرب فمصر فنجد فالحجاز فاليمن فالكويت فالبحرين فالعراق وفى كل مكان يحل فيه يقابل ملوكه وحكامه ويكتب مذكراته .

وفى سن الخامسة والستين . بعد أن شاب رأسه وحمل فى عقله وقلبه خبرة الدنيا وتجربة الحياة عاد إلى الفريكة ... وأراد أن يجدد شبابه فى موطنه فامتطى الدراجة وانطلق بها فى طريق ... كثير الأخاديد والحصى . فلم تلبث أن عاودته الرجفة العصبية فى كتفه اليمنى التى إذا هادنته دقائق فلن تهادنه ساعات – فانتابته تلك الرجفة فجأة فهوت به الدراجة إلى الأرض فمات بعد تسعة وعشرين يوما فى ١٥ من آب سبتمبر ١٩٤٠ . وبذلك انتهى عمر حافل بالمغامرات والثورات والهدم والبناء .

كان فى شبابه ثائراً على الدين ورجال الدين . ثم تحول إلى مصلح ينادى بحقوق الانسان والمساواة والأخاء بين الناس ... وهو إلى ذلك كله شاعر يجوب أجواء الجمال ومسالك الروح ... ومؤرخ يستخلص من الماضى عبر الحاضر ...

وعندما سافر إلى نيويورك كان قليل الخبرة بالأدب والفكر ولكنه كان يؤمن فى أعماق نفسه بموهبته الكامنة ... ولم يلبث أن انكب على القراءة فقرأ أبى العلاء وشكسبير وابن الفارض وملتون وابن زيدون . والحلاج والغزالى وفولتير وروسو وابن خلدون وكارليل وعمل على التبريز فى دراسة العربية .

وكان أمين الريحانى شاعرا وله ديوان طبعه عام ١٩٢١ عنوانه « أنشودة المتصوفين » وهو فى رأى نقاده شاعر أجود منه ثائراً ... وله مؤلفات « الريحانيات وزنبقه الفور . وخارج الحريم . ملوك العرب . المغرب الأقصى ... »

ولا شك أن ابرز ملامح حياة أمين الريحانى هى الرحلة الطويلة التى عاشها مطوفا فى العالمين .

يقول : هجرت بلادى وأنا فى العاشرة من سنى . فكانت نيويورك مسرح أمانى ومغامراتى . وطبعت نفسى بطابعها الخاص ، فصرت من أبنائها وعندما حاولت الانطلاق من قيود تلك العبودية فى ماكان من رحلاتى العربية لم أتوفق كل التوفيق لأن تلك الرحلات جددت فى بعض نتائجها حق نيويورك علىّ . والسبب أن لغة شكسبير سبقت لغة أبى العلاء إلى لسانى وقلمى فوقعت فى فخ التأليف هناك قبل أن وقعت فيه هاهنا فى وطنى الأول .

ومن عجيب ما حدث فى ارتقائى وتطورى الوطنى — إذ كان من الواجب على أن أكون أميركيا قلبا وقالبا ، لبا وقشرا ، مائة بالمائة كما يقال — من عجيب ما حدث ليفسد ذلك الواجب هو أنى نهضت ذات ليلة من نومى عند صياح الديك وأنا أتصور نفسى أكبر من أمريكا ... أنا اللبنانى العربى المفكر الوحيد — لله درى — مفتكرا ... »

ويقول أمين الريحانى أنه بدأ يطلع الناس فى العالم الجديد على ان فى العالم أناس غيرهم . وأنهم أى الأمريكان هالكون حتما إذا استمروا فى جهلهم أو استقووا — يقول « والغريب أنهم كالبرابره قلبا ووجها ، كانوا يصفقون الخطيب ... » .

ويؤمن أمين الريحانى بالماضى « ... ليس من الضرورة أن يعاد الماضى بحذافيره . بل أن ذلك لا يجوز ، وأنه — وإن جاز — غير ممكن . على أنه من الضرورى الواجب أن نعود نحن إلى الماضى لنستمد من أمجاده ما يساعدنا فى أعمالنا التى نريد أن تكون كذلك مجيده . انما الماضى للاستيحاء لا للتقليد . للتكملة لا للتكرار »

والذين يقرءون كتب الريحانى عن رحلاته يجدوها عذبة رائعة ، تصور أسفاره

ورحلاته فى قصص طريف وعرض رائع وقد صور ذلك أحد نقاده فقال « أنه فى رحلاته عين صافية تصور لك أهم ما تقع عليه من أمور هى أدق ألوانها وظلا لها . وهى إلى ذلك فكر ثاقب يجيد تنظيم ما تصوره عينه وتنسيقه وعرضه فى إطارات تتناسب ومعانيه وألوانه ... »

ويقول ميخائيل نعيمة : أن أمين ريحانى ولوع بالاستكشاف والتنقل لا ينزل بقمة حتى ينزح عنها طالبا سواها . وقد عرفناه بادىء بدىء بمقالاته من اجتماعية وسياسية وأدبية ثم برواياته بين تمثيلية وغير تمثيلية ثم بأقاصيصه الصغيرة وكذلك ببعض شعره المنثور ... » .

حفنى ناصف واسماعيل صبرى

يقترن اسمهما فى نفسى على أنهما مرحلة من مراحل أدبنا المعاصر . فقد عاشا فى عصر واحد وقضيا فى الربع الأول من القرن العشرين على مسافة سنوات قليلة حيث مات حفنى ناصف فى ٢٥ فبراير ١٩١٩ ومات اسماعيل صبرى فى ٢٠ مارس ١٩٢٣ ، وهما عندى أشبه بشوقى وحافظ اللذين كانا أعظم حظا من الشاعرين القديمين . فان حفنى ناصف الذى أطلق عليه لقب « أستاذ الأساتذة » لم يطبع ديوانه إلا عام ١٩٥٧ أى بعد وفاته بأربعين عاما ...

وهما يجتمعان فى صورة العصر الماضى . الفكاهة الحلوة والنادرة الطريفة والحديث العذب والمجالس الفنية بالحب والوفاء . والسخرية المزوجة بنوادر الظرفاء وأخبار السلف الصالحين . وقد اختفى هذا اللون تماما من حياتنا الأدبية اليوم .

وهما يجتمعان فى أن كل منهما كان قاضيا . وأن حافظ وشوقى كانا تلميذيهما وصديقيهما وكلاهما سافر إلى أوربا وشهد مظاهر الحضارة الأوربية وقرأ آثار الأدب الأوربى وتأثر بذلك كله .

أما حفنى ناصف فقد كان محدثا من الطراز الأول . وصديقا لحافظ وقد خلف أثاراً من الشعر الجاد والشعر الفكه لا يقل روعه عن شعره الآخر وترك مجموعة ضخمة من الأزجال والأغانى والفوازير . وكانت نكته وأحاديثه ومفارقاته حديث المجالس طوال حياته واشترك فى نظم بعض الأغانى التى لحنها وغناها عبده الحولى ومحمد عثمان وجرت بينه وبين أدباء عصره مساجلات وكان راوية لنوادر الظرفاء وأخبار السلف الصالحين .

وقد تخرج على يديه أعلام مصر : مصطفى كامل وعبد الخالق ثروت وطلعت حرب وإسماعيل صدقي وعبد العزيز فهمي ولطفي السيد وطه حسين وهو من مؤسسي الجامعة الأولى . وأول من وضع تاريخ الأدب وجمله علما ودرّسه في الجامعة المصرية القديمة وقد بهر مؤتمر المستشرقين ببحثه عن « مميزات لغة العرب » وعمل في الوقائع مع محمد عبده وعبد الكريم سلمان وأعاد إلى المصحف رسم عثمان . وعلم ابنته « ملك » فكانت من رائدات النهضة وامتاز شعره بصفاء الأسلوب وبراعة الأداء .

ومن مداعباته قصيدته التي سجل فيها قصة الرثاء الذي ألقي على قبر محمد عبده فإن المتحدثين بترتيب رثائهم . فقد لاحظ حفني ناصف أن الأربعة الذين سبقوه في رثاء محمد عبده ماتوا واحدا بعد واحد ..

أبو خطوة ولى وقفاه عاصم	وجاء لعبد الرازق الموت بطلب
فلبى وغابت بعده شمس قاسم	وعما قريب نجم محياي يغرب

ويقول الحافظ بعد ذلك « لا تخش هلكا ما حييت وأن أمت » :

وكان حفني من أبناء الأزهر تعلّم فيه عشر سنين درس خلالها فقه الشافعي ونال أجازة « الأشموني في الحديث » ثم التحق بدار العلوم ثم تقلب في الوظائف التربوية ثم عمل قاضياً في طنطا وكان من أول من دعا إلى إنشاء بنك مصر وشجع المجددين على المناداة باستعمال الأسماء الأجنبية للمستحدثات . وكان واحداً من الذين آزروا « عبد الله نديم » في الثورة العرابية .

ومعنى هذا أن ميدان نشاطه امتد إلى القضاء والشعر والصحافة والجامعة ودار العلوم .

* * *

أما « إسماعيل صبري » فقد بدأ حياته الأدبية عام ١٨٧٠ وسافر إلى فرنسا حيث تلقى علومه المالية فى معاهد الحقوق والشرائع ثم أصبح من رجال القضاء عام ١٨٧٨ وأصبح نائباً عاما ١٨٩٥ ومحافظـا للاسكندريه ١٨٩٦ ووكيـلا للحقانية ١٨٩٩ .

وهو كصاحبه له من النوادر القضائية والأدبية ما ثور كبير ووصف بأن له ذوقاً قاهريا صادقا .

وشعره القليل هو أبرز شيء فى حياته الأدبية . وكان المصرى الوحيد الذى لم يقابل لورد كرومر ولم يدخل الوكالة البريطـانية بالرغم من منصبه وحاول كرومر استمالته فرفض وقيل له لعلك لو فعلت كنت اليوم رئيساً للوزارة قال وماذا تفيدنى رئاسة الوزارة غير أغضاب ضميرى وإرضاء ذوى المطامع وأصدقاء الجاه . وخاصم رياض باشا فى حكمه فى قضية من قضاياه ولا شك أن الحادثتين تعطى صورة طبيعته القادرة على مقاومة الملق . وأنه لم يكن يجرى مع التيار . أضف إلى هذا شخصيته الحلوة الداعبة التى تقول النـكتة فى أشــــد الأوقات حلـكة .

وقد حوى شعره غزل المرأة وحبها . وإن لم يتأثر بالشعر الأوربى .

وفى شعر صبرى صوفية وحب للطبيعة وميل إلى الحياة الناعمة الهادئة وقد خطا خطوة فى التجديد بعد البارودى . وأطلق عليه لقب شيخ الشعراء وكان بيته ندوة كبيرة .

وقد أحب البحترى وظل يقلده ولا يتحرر عنه حتى بلغ الأربعين وهذا ما وصف بأنه بطء النضوج فى شعر صبرى .

ومن كلماته قوله : أن شوقى ينظم وحافظ يبنى ومطران يبتدع . ويقول المؤرخون أنه بدأ ينضج فى كهولته . عند ما كان البارودى فى منفاه . ووصف شعره بأنه يمثل الصوفية من حيث سمو المثال ونزاهه الشيمة وغرابه الوضع .

يقول الدكتور محمد صبرى أنه يمثل المرأة وكأنها قطعة من النور الالهى هبطت على الأرض لتلقى عليها عزاء وسلاما . وهنا يقف الشاعر وتصفو نفسه وتعلو كقطعة من نور تلتقى بالأخرى . وكانت المرأة شغل فؤاده . وقيل أنه كان ينشر الشعر بامضاء « بنتاءور » .

وكان صبرى يقول أحب الحرية فى ثلاثة : فى « المرأة تحت ظل زوجها ، وفى الرجل تحت ظل شريعته . وفى الوطن تحت ظل الله » .

* * *

قال خليل مطران أن أكثر ما نظم صبرى « انما كان لخطرة تخطر على باله من مثل حادثه يشهدها أو خبر ذى بال يسمعه . أو كتاب يطالعه . ولما كان لا ينظم للشهرة بل لمجاراة نفسه على ما تدعوه إليه . فالغالب فى أمره إنه يقول الشعر متمشيا . وربما قاله بحضرة صديق وهو مائل عنه بعنقه . ينظم المعنى الذى يعرض له فى بيتين عادة إلى أربعة إلى ستة . وقلما يزيد على هذا القدر . شديد النقد لشعره كثير التعديل والتحويل فيه حتى إذا استقام على ما يريده ذوقه من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب أهمله ثم نسيه .

ويقول الدكتور صبرى « كان صبرى فى شعره فنانا » .

وقد أدرجه عبـــد الرحمن الرافعى من بـين شعراء الوطنية وأن لم يدرج

حفنى ناصف . واعترف له شوقى بأنه استاذه . كما اعترف حافظ بأثره وبناديه الذى كان مورد الأدباء وأعلام الفكر .

وقال الرافعى « أن شعره يتجلى فيه الروح الخالص للوطن ووطنيته عميقة الجذور وانه ظل متمسكا بالعزة والكرامة والشمم والاباء » وقد كان صديقاً وفيا لمصطفى كامل .

وشعره فى دعوته إلى الدستور وحادث دنشواى ورثاء مصطفى كامل يدل على صدق وطنيتة فقد طالما ندد بالمستعمرين وحارب الامتيازات ودعا إلى الوحدة والحرية وتغنى بعظمة مصر .

خليل مطران[1]

عاش بين الشعر والصحافة والترجمة والعمل الاقتصادى . لا يعرف قدره ولا يذكر إلا قليلا عندما يقال الشعراء الثلاثة : شوقى وحافظ ومطران . فيطلق عليه شاعر القطرين .

رضى الخلق ، عالم متواضع ، لا يحب الشهرة ولا الظهور . يحرص على البعد عن الأضواء ماستطاع إلى ذلك سبيلا . وبالرغم من أن النقد الأدبى الذى كان يعرف المظاهر والطبول الجوفاء قد ظل يتجاهله فترة طويلة ، غير أنه لم يلبث أن اعترف به فى نهاية عمره وكان اعترافه قويا ضخما واضحا جهيراً فاحتفل بتكريمه وشهد أعلام الأدب بفضله على الشعراء القدامى والمحدثين .

وكان خليل مطران فى شعره كله مجدداً ، ولعله كان سابقا لعصره لأنه استوعب الثقافة الأوربية فى الشعر والفن على نحو أكثر قوة من صاحبيه شوقى وحافظ فضلا عن البيئة الأولى التى نشأ فيها فأثرت فى تكوينه ونفسيته، فقد ولد فى « بلعبك[2] » وهى منطقة من أنصع مناطق الشرق جمالا يحوطها الحسن من كل جانب . وتتخللها الهياكل والحدائق والينابيع وصور الجمال فى الأرض الخضراء والسماء الزرقاء . ففى هذه الربوع نشأ وتفتحت نفسه ثم عرف خليل وابراهيم اليازجى وتتلمذ عليهما فامداه بروح البلاغة . التى عرف به فى ترجماته الرائعة

---

(١) انظر ص ١٥١ من كتابنا نزعات التجديد فى الأدب العربى المعاصر .

(٢) ولد عام ١٨٧٢ .

لقصص شكسبير . ثم سافر إلى باريس فى شبابه فكان لذلك أثره فى نفسه فى فهم الأدب الأوربى . وقد لقى خليل مطران ما لقى زملاؤه من رجال الفكر والرأى من اضطهاد فى بلاده التى كانت رازحة تحت الظلم التركى مما وجهه إلى الهجرة إلى مصر ملاذ الأحرار .

وقد اشتغل فى الصحافة وكان مراسلا للأهرام فى القاهرة أبان صدورها فى الاسكندرية . كما حرر فى المؤيد واللواء وأنشأ المجلة المصرية والجوائب اليومية وتعد المجلة المصرية من أولى المجلات الأدبية فى الشرق العربى فقد فتح صفحاتها لأبواب جديدة فى الأدب واستمرت فى الصدور ثلاثة أعوام كما استمرت الجوائب خمس سنوات .

وقد عمل فى الصحافة أثنى عشر عاما ثم انتقل منها للعمل فى الاقتصاديات . وسر انصرافه عن الصحافة أنها كانت فى ذلك الوقت مهنة قائمة على الاشتراكات وتحصيلها . وكان لهذا أساليب لم ترضاها نفسه ولم تتفق مع طبيعته الحييه وقال هو فى تصوير ذلك أنه خرج من الصحافة لأنه أحس بأن كل المشتركين يعتبرون أنفسهم ممتنين على الصحيفة حتى أن أحد المشتركين عندما ذهب الجابى لمطالبته قال له « أهو ثمن عيش » عندئذ فكر فى أن يطلق الصحافة ويعتزلها فوهب جريدته وباع مطبعته وانصرف إلى ممارسة الأعمال الاقتصادية .

* * *

وخليل مطران الهادىء الصامت الذى تستهويه السكينة والسلام ، نشأ ثائراً على الاستبداد وجاشت نفسه منذ صباه الباكر بالثورة على الاغلال . وقد أحرق شعره ونثره يوم طارده والى بيروت التركى « على باشا » وأراد القبض عليه وإرساله إلى سجن عكا الذى كان يطلق عليه إذ ذاك « باستيل الشرق » .

وقد كره له والده قول الشعر وقال له : دعك يابنى من الشعر وانصرف عن هذه الصناعة فإننا ما وجدنا شاعراً على جلده قميص ... »

وقد خرج خليل مطران فاراً من بيروت ، هاربا من وجه الظلم عام ١٨٩٢ إلى باريس ثم عاد إلى مصر ·

وقد ذهبت كل أشعاره التى قالها فى صباه إلا قصيدة واحدة نظمها عام ١٨٨٨ ثم مضت عليه فترة اعتزم فيها الانصراف عن الشعر ·

« ... ولكننى لم أستطع . فعدت إليه واتخذته فنا رفيعا لامورداً للرزق والكسب · ونزلت إلى ميدان العمل واشتغلت بالصحافة والتجارة ومارست الاقتصاديات ومضيت أصعد واهبط وأصعد فهذبتنى آلام الحياة ومصاعبها · وصرت أقرب إلى الإيثار والنجدة ورأيت فى نفسى حافزا على القيام بشعر آخر — شعر حى لاخيال فيه — هو معاونه الناس فى السراء والضراء » ·

* * *

ولقد أحب خليل النيل والأهرام . وأخلص لمصر شأنه شأن أعلام الشام الذين هاجروا إليها وأحبوها وبذلوا لها من ذات أنفسهم أمثال جبرائيل تقلا وداود بركات وأنطون الجميل ·

وقد عرف خليل بالسماحة والدعة وصفاء السريرة . وكان صديقا لمصطفى كامل ومحمد فريد . ووصفه اسماعيل صبرى بأنه صورة صادقة لشعره وقلبه · وأن شعره حقائق كريمة لا كذب فيها ولا اغراء ولا غلو ووصف حفنى ناصف شعره بقوله :

يا شعر مطران لعبت بلبنا ونفثت سحرك

لله ما أحـــلاك ياسحر البيان وما أمرّك

ما أنت للآداب مطران ولكنه أنت بطرك

وقد ترجم للمسرح الكثير من الروائع وابتدع في الترجمة فنا في العربية لم تعرف له مثيلا — كما يقول زكي طليمات — إلا عند أمثال ابن المقفع في كتاب كليلة ودمنه ، ابتعد فيه عن مبتذل المعاني وسما بالافة وحافظ على الأصل وأعطى الديباجة والمعنى قوامهما في الترجمة .

والخليل مطران شعر في الغزل فقد عرف الحب وقاسى من مرارته وآلامه .

ويمكن القول بأن أثره في تجديد الشعر كان حاسما وأنه أول من ألف بين أسلوب الفرنج ونهج العرب .

وقد وصف مكانه في الشعر في أكثر من مناسبة وحديث. فقال أنه اجرأ من شوقي وحافظ على التجديد « ولكني مع ذلك لم أجدد شيئا عظيما . والواقع أن أسلوبنا قديم يدخله شيء قليل من المصطلحات والأفكار الجديدة .

وقال أنه يقصد بالتجديد « أن يخلق الشاعر موضوعا من أوله لآخره ويصوره ويفصله على النحو الذي وجدنا كل شعراء الغرب العبقريين قد نحوه في مولدات قرائحهم . ولكن التجديد الذي يحتاج إلى الخلق والابداع وتكوين الموضوع من أوله لآخره لم يقدم عليه ولم يفكر فيه أحد الآن ، ومن اجترءوا على التجديد مازالوا يعدون قدماء . وهناك محاولات ولكنها لا تزال في طريق التكامل[1] ... »

وصور طريقته في النظم فقال « شعري الفني إنما يجيء بإيحاء قاهر من حادثة أو قصة أو غاية اجتماعية أو سياسية يخطر لي تأييدها والدعوة إليها. وعندئذ تتجمع في ذهني في جملة أيام فكرة القصيدة بمجموعها وأحيانا أدون ما يخطر ببالي من الأفكار بشأنها في قالب النثر ثم أعود فانظمها وأحيانا لاأدون هذا الأفكار. ومعظم

(١) الهلال — ١٩٢٨ .

نظمى فى الصباح . وأحيانا أنشده الخلوة الذهنية فى قهوه ولا يعوقنى عندئذ عن النظم كلام الأشخاص أو لعبهم النرد أو الموسيقى وأنا أعيد النظم كثيراً فما أسرع ولا أتعجل . ولـكن هناك ظروفا تجملنى أحسن النظم فأوفيه حقه ولو كنت مع ذلك مستعجلا . فلما مات صديقى شبلى شميل مثلا حزنت عليه جداً ونظمت رثائى فيه فى يوم واحد ولـكن هذا اليوم كان يعدل لدى ثلاثين يوما فقد خرجت منه مجهوداً مقتولا . . »

وتتميز آراء مطران بالرصانة والاعتدال والعمق . فهو حين يسئل عن خلق الآيات الفنية وكيف يتأتى ذلك للفنان يقول :

« . . تجول الفـكرة بادىء بدء فى رأس العبقرى . وقد تـكون خطرة موفقة من خطرات الصبى فتلبث فى أوائلها مستقرة خفية حتى تصادفها قراءة جدت أو حادثه فى الحياة حدثت أو عبارة لم يفطن كاتبها لـما تحتها . فألقى بها فى عرض كلامه رمية من غير رام فتنبت منها فى تلك الفـكرة المستكنة روح تشعرها بما لها من القيمة ، وبما قد يكون لها من الشأن فتشرع من ذلك الحـين تتغذى بـكل ما يمر بها من المحتويات الأسفار أو محتويات المحادثات آخذه كل العناصر التى تستصلحها لنمائها وتقويتها . . »

ويصور الـكتاب الناجح بأنه الـكتاب الذى يكون المجتمع فى حاجة إليه « وأن تـكون الحاجة نتيجة تجارب مرت على المـؤلف فيستخلص من هذه التجارب موضوعا يرى أن المجتمع مفتقر إليه . ولا تنسى شرطين من شروط الـكتاب الناجح هما : التشوق وحسن الوضع . . »

ويصور الوقت فيقول : ذلك الشىء الثمين . ذلك الشىء الذى لا يقوم بقيمة

اللهم إلا إذا جعل فى كفة من الميزان وجعلت المدنية بجماع ما أنت من المعجزات فى العالم كله منذ مبدأ الخلق فى كفة أخرى . . »

وكان يطمع فى أن يجد العبقرى الذى يتريث ويحتمل شظف العيش ولا يبالى احتقار الناس ليعيش الحياة كما يحب ويهوى لا كما يحب الناس له أن يحياها ... « أن هذا العبقرى المنتظر الذى يعكف على الخلق الفكرى ناسيا نفسه محتقراً شهوات هذا الجرم الأرضى ومتعه ولذاذاته والذى يتألم لشقاء الانسانية أكثر مما يتألم لبؤسة ونفسه : هو الذى يضع حجر الأساس فى نهضة أدبيه يدوى صداها فى الخافقين » .

* * *

ويقول خليل مطران أنه كانت له أمنية لم تتحقق وهى أن يكون قادراً على الانقطاع لخدمة الأدب « حتى أعطيها كل وقتى وأرصد لها مجهودى . وما طمعت قط فى الغنى الوافر الابهة . وأنما كنت أحب أن تكون أعبائى أقل مما هى حتى يخلو ذهنى للادب .

وإنما دفعنى إلى ذلك أنى أحب على الدوام أن أقف موقف الرجل الحر الابى لا أنكس رأسى لأحد . وقد وجدت أن لزومى لحرفة الأدب سيدفعنى إلى مواقف من الهوان لا أرتضيها لنفسى فهجرته وقنعت بأن أحوم حوله فقط . ولو كانت مطالبى قليله وبالى خالياً لما كان لى عمل آخر سوى الفن » .

ويقول فى موضع آخر « أمنيتى الكبرى : الحياة إلى الساعة الأخيرة من العمل والموت متى جاءت ساعته بلا وجل » .

وبعد فقد كان خليل مطران غيوراً على فنه حفيا بأن يقدم شعراً ممتازاً غير

عابىء بالوقت والزمن يقول « لقد يهون على أن أنفق العام كله فى قصيدة واحدة ترفع القارىء إلى مستواها الرفيع وتحفزه إلى متابعتها فى الألفاظ وفى المعانى . يهون على ذلك قدرما يصعب على أن أهبط بالشعر إلى مستوى الكافة فأحدثهم بكلام مقفى وأصرفهم إلى قصائد ينصرفون إليها وفى نفوسهم ألم مر لأنهم لم يستوعبوا فيها إلا خيالا دارجا أو حكمة مكروه أو رأيا فطيرا أو نظرة لا تشمل الأجواء البعيدة ولا تتدافع إلى الهام بمقدار ما تهوى إلى الهاوية متأملة متمتعة فى جمهرة من السفاسف منتقلة متقلبة بين ضروب من الأخاديد . . »

* * *

خليل مطران : أنه الرجل الذى عاش زهرة حياته مجهولا منسيا . فلما بلغ مرحلة المشيب بدأ الدهر يبسم له ويعرف قدره ويوضح موضعه فى دولة التجديد . ولكن ذلك لم يغير من طبيعته المنطوية الحيية والراغبة عن الشهرة والدوّى . .

رشـــيد رضا

« ... إن الله بعث لى بهذا الشاب ليكون مددا لحياتى . ومزيدا من عمرى أن فى نفسى أمورا كثيرة أريد أن أقولها . أو أكتبها للأمة . وقد ابتليت بما شغلنى عنها . وهو يقوم ببيانها كما اعتقد وأريد ... وقد رأيت فى سفرى من آثار عمله وتأثيره ما لم أكن أظن ولا أحسب فهو قد أنشأ لى أحزابا وأوجد لى تلاميذاً وأصحابا ... »

هذا ما سجله الشيخ محمد عبده فى تصوير أثر « رشيد رضا » فى الفكر الإسلامى فى هذه الفترة من حياة مصر والعالم الاسلامى بمجلته « المنار » وقد كان المنار هو أكبر آثاره .

عاش رشيد سبعين عاما . قدم مصر عام ١٨٩٦ وتوفى عام ١٩٣٥ وفى خلال أربعين عاما كتب رشـــيد رضا عدداً من المؤلفات الضخمة والأبحاث المتعددة فى التفسير والاجتماع والسياسة والترجمة والدين . وهو الذى أذاع آراء محمد عبده وأن ظل حر الفكر له رأيه الذى قد يخالف رأى أستاذه على أساس من الحجة والاقناع . وقد نشر الدين عن طريق الصحافة وأذاع أفكار الإسلام وحررها وقربها إلى الأذهان بعد أن كانت مدفونة فى أعماق المؤلفات التى لا يقرأها إلا المتخصصون .

وقد تأثر رشيد رضا الشاب الشامى بمجلة العروة الوثقى التى أصدرها جمال الدين ومحمد عبده فى باريس وهى التى غيرت مجرى حياته ودفعته بعد أن أتم علومه فى مدارس

(١) إقرأ فصل الإسلام من كتابى نزعات التجديد ص ٢٤٤ .

طرابلس الشام أن يقدم إلى مصر ويتصل بالشيخ عبده ويصاحبه مصاحبة متصلة زمنا يزيد على ثمانى سنوات .

فلما مات محمد عبده عام ١٩٠٥ ظل من بعده ثلاثين عاما يحمل المشعل . وقد ربط نفسه بابن تيمية وابن القيم .

وقد سجل رشيد رضا أن غايته من انشاء المنار مواصلة السير على نهج العروة الوثقى . وقال « برج »[1] أن المنار كانت أول مصباح أرسل شعاعا من هذا التفكير الجديد حتى وصل أرخبيل الملايو فأحدث حركة عظيمة فى أراضى باندنج الواطئة . »

ورشيد رضا عالم استكمل أدواته فى البحث بقراءة واسعة للتراث الإسلامى فقد استوعبت أحياء علوم الدين للغزالى . وكان قوى المعارضة وحجة فى مداخل الصراع والرد والسجال . وكان لسانا صادقا فى الرد على كل حملة على العرب والاسلام ، خبيراً بأحوال المسلمين فى العالم الاسلامى .

وكانت أمنيته انشاء « مدرسة » تجمع بين علوم الإسلام والعلوم العصرية وقد جعل نواتها « المنار » .

وقد حارب الشيخ على يوسف فى جريدة المؤيد صاحب المنار كما حاربته المقطم لأسباب تتعلق بإرتباط المؤيد بالخديو وخصومه المقطم للاسلام .

* * *

أجمع المؤرخون على أنه بتفسير المنار قد حرر الفكر الاسلامى من الثقافة التقليدية التى لا توافق العقل ولا تتمشى مع العلم وقد كان لهذه الحرية أثرها فى الجدل العنيف بين رشيد وبعض العلماء .

وقد تفرغ رشيد رضا لغايته وفكره أربعين عاما . مكبّا على الدرس والبحث

(١) كتاب الإسلام والتجديد فى مصر

والتحرر . واسترخص فى سبيل غايته كل غال ونفيس . جريئا شجاعا متزنا .

وفى حياة رشيد الخاصة كان طابعه الوضوح والحرية والصراحة : يقول المعتصم رشيد رضا أن والده علمه أن يحذر من أن يأتى فى السر ما يستحي منه فى العلن .

ولا شك أن آثار رشيد رضا تعطى اليوم صورة حقه لذلك الصراع الذى لقيه فى سبيل تحرير الاسلام من التقليد . فى أيام سود كان الظلام فيها عاماً وكانت كلمة الحق خليقة بأن تصم صاحبها بالكفر ...

ولم يكن رشيد رضا كما يتصور بعض الناس فقيها يكتفى بالدراسات الدينية ولكنه كان سياسيا وباحثا يتناول قضايا العالم الاسلامى تناولا عميقا ومن هذا قوله .

« أود لو يعلم قادة الأمة العربية وكبراؤها أنهم لو جمعوا كلمتهم فى هذه الفرصة لأسسوا لأنفسهم وحدة خلقية تحفظ بها إستقلال كل منهم ويعود به مجد الأمة العربية وتحيا حضارتها الشريفة التى فاقت حضارة جميع الأمم بجمعها بين الرفاهة المقصودة من الحضارة وبين الفضيلة ولكنهم أجابوا داعى شيطان التفريق وتغريره لهم بالمال والمآل . ولم يجيبوا داعى الوحدة وهو داعى الله تعالى. فهذا وقت الوحدة الداخلية أمام الدواهى الخارجية لا وقت فض مشكلات حدود البلاد ولا تحكيم العصبية الدينية والمذهبية[1] .

وقد تحدث عن جميع المشاكل التى عرفها عصره وهى الشيعة : والوهابية والخلافة والمسلمون والقبط ومقاصد ترجمة القرآن والوحدة الاسلامية ومساواة المرأة بالرجل — فى مناظرة مع الدكتور عزمى — ومحاكمة القادرية والرفاعية

---

(١) المنار ١٩٢٠ .

فى الرد على أبو الهدى الصيادى المحتال الذى خدع الخليفة عبد الحميد وقد ناله نتيجة لحرية رأيه أذى من جماعة أبى الهدى .

وقد قضى حياته — كما يقول شكيب ارسلان[1] — فى مقارعة الخصوم من مختلف الطبقات . صريحا ينبذ على سواء ويخاصم فى صراحة ولا يكتفى بالإشارات وقلما يعود بالمعاريض .

ويقول شكيب ارسلان وهو من أخلص أصدقائه أنه لامه على الصراحة . ولكنه كان يرى فيه شدة الاقتناع برأيه :

وبالرغم من أن « رشيد رضا » هو أقوى من قارع الصوفية فى عصره فإنه بدأ حياته صوفيا مغرقا فى التصوف . ولكتاب أحياء علوم الدين أكبر الأثر فى « دينى وأخلاق وعلمى وعملى » فقد كان يطبقه حرفيا ويحاول أن يحاسب نفسه حتى على الخواطر المارة . ثم تطورت ثقافته وعمقت . فاتجه إلى ابن تيمية وابن القيم فتأثر بهما ثم مزج تصوف الغزالى بفقه ابن تيمية وكون رأيه الخاص متحرراً من التقاليد .

وقد آمن بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فأنكر على رجال الدولة والحكام ورجال الطرق وذم العلماء الذين يتقربون إلى الملوك فلما طورد وضيقت عليه السياسة الحميدية عزم على الهجرة إلى مصر وفى أعماق نفسه رغبة فى انشاء صحيفة تدعو إلى الاصلاح .

ويروى رشيد رضا عن نفسه أنه أحب الأدب فى أول شبابه ونظم الشعر وأن هذا قد أعطاه قوة الأسلوب ووضوح المعنى . ومما سجله شكيب ارسلان فى كتاب « رشيد رضا أو أخوة أربعين عاما » أن ما كتبه رشيد رضا من صفحات يربو على ما كتب عدد كبير من أصحاب الأقلام فى مثل زمنه وأنه أثرت عنه رسائل خاصة إلى عدد كبير من أصدقائه تضم تراثا ضخما من الفكر الاسلامى لا يقل عما سجله فى المنار وفى مؤلفاته المختلفة وتفسيره للقرآن .

(١) كتاب « رشيد رضا أو اخوة أربعين عاما » بقلم شكيب أرسلان .

شكيب أرسلان

إذا قلنا أن قلمه أشبه بالبحر ، فى طرافة خبر وجمال عباره وحسن فهم وعمق توجيه لما تجاوزنا الحق . أريد هنا « شكيب أرسلان » الكاتب البليغ الذى وصف بأنه أمير البيان والذى عاش قلمه سيفا بتاراً فى وجه المستعمر وسلاحا صارما فى سبيل حماية العربية والاسلام وأمجادها .

المغترب الذى قضى زهرة عمره منفيا عن وطنه مخرجا من الشرق . مع ذلك فقد زاده الاغتراب قوة وإيمانا وأصراراً على حقه وحق وطنه فى الحرية .

كان فى سويسرا كالمنار الضخم ، ما من شرقى أو عربى يذهب إلى هناك إلا يلقاه ويرعاه وهو بين العمل المتعدد النواحى فى خدمة القضايا العربية والاسلامية والسفر والترحال يجد الوقت ليكتب هذه التعليقات الضخمة على كتاب حاضر العالم الإسلامى الذى ترجمه حجاج نويهض ويكتب عن أمجاد الإسلام فى البحر الأبيض وأوربا والأندلس ويكتب عن شوقى ورشيد رضا .

قال عنه المنفلوطى : لو لم يكن أكتب كاتب لكان أشعر شاعر « ولكن أرسلان يرى غير هذا : « لست أنا ممن يسوقه الغرور إلى أن يظن فى نفسه أنه أشعر شاعرا وأكتب كاتب وما حفلت بشىء فى حياتى من هذه الألقاب ولا أحلولى فى صدرى ما يحملنى الناس أياه منها كأمير البيان وما إليه . والكاتب سمته بيانه » أول قدم إلى مصر المرة الأولى عام ١٨٩٠ وكان فى سن العشرين

فقابل محمد عبده وسعد زغلول وعلى الليثى وعبد الكريم سلمان وإبراهيم اللقانى وحفنى ناصف وعلى يوسف وأحمد زكى (باشا) .

وكان ينشر مقالاته فى الأهرام بتوقيع (أحد أفاضل السياسيين) وهو الذى دفع شوقى إلى أطلاق اسم (الشوقيات) على ديوانه . وقد ظل حياته يدافع عنه ويقول كنت : جـــلاداً لأعداء شوقى » وكانت بينهما دعابات . ولقد طوف شكيب أرسلان بالشرق والغرب فزار مصر وفلسطين والحجاز وأقام فى سويسرا وذهب إلى نيويورك . وسافر إلى الاستانة وفرنسا وانجلترا وأسبانيا واشترك عام ١٩١١ فى حملة الأتراك على الإيطاليين فى طرابلس الغرب . وعادى الاتحاديين فى تركيا . ولم يعد إلى الشرق بعد الحرب الكبرى وأقام فى سويسرا وإنما عاد بعد أن تم الاتفاق السورى الفرنسى ، حيث عمل فى المجمع العلمى ١٩٣٧ — ١٩٣٩ ثم عاد إلى سويسرا كرة أخرى بعد أن تغير الموقف مرة ثانية فظل بالمنفى حتى عام ١٩٤٦ حيث عاد إلى وطنه « الشويفات » بلبنان مشوقا إلى « أمه » التى كان يحبها حبا عظيما . والتى ما لبثت أن انتقلت إلى الدار الأخرى بعد عودته ببضعة أسابيع بعد فرقة أربعين عاما .

ما أشبه شكيب أرسلان بالزعيم المصرى محمد فريد الذى نفاه الظلم من وطنه فعاش فى برلين مدافعاً عن وطنه . كان شكيب ركنا من أركان الحركات السرية التى قام بها العرب ضد طغيان جمال باشا السفاح وقد اشترك مع العرب فى الدفاع عن القضية فى مؤتمر باريس وحمل على اتفاق سيكس ـ بيكو وكان فى مقدمه الثوار ضد الاستعمار الغربى . فلما نفى ظل يطوف كمحمد فريد أنحاء أوربا معلنا سخط العرب على الاستعمار منددا بفظائعـه فى سوريا والعراق وفلسطين ومصر وتونس والجزائر .

ولكنه زاد على ذلك بأن أخذ يبحث عن مخلفات العرب العلمية وعمل على إخراجها فى كتب وقد رد فيها على ما وجهه المبشرون والمستشرقون من أكاذيب وإدعاءات .

وقد عرف بسلاسة أسلوبه وبلاغته . وهو الذى عرف بالسهل الممتنع .

قال مرة لصاحبه وهما يهبطان إلى الطرق فى بلدته بلبنان «هذا الجبل لايخاف من الغيوم التى تداعب قمته ولا من البحر الذى يداعب قدمه . وهكذا يجب أن نكون فى الحياة ... »

وقد كان شكيب ارسلان خصما لجمال السفاح الذى نصب المشانق للمجاهدين العرب فى سوريا فى أوائل الحرب العالمية الأولى .

وهو أول من أدعا إلى اتحاد العرب فى هيئة عاملة وأول من طاف أوربا باحثا منقبا عن مخطوطات العرب المحفوظة فى مكاتبها .

وتناولت رسائله التى كان يبعث بها إلى أصدقائه فى مصر موضوعات علمية كثيرة ومن هؤلاء الذين يحتفظون برسائله السيد محب الدين الخطيب والأستاذ حبيب جاماتى وقد أضاع ثروته الطائلة فى الجهاد لمجد العروبة وكان رسول سلام فى كل خلاف وداعيه وئام وصفاء .

* * *

يكاد شباب « شكيب ارسلان » يمهد لحياته كلها . أصـــدر ديوانه « الباكورة » فى السابعة عشرة من عمره عام ١٨٨٧ . وعرف محمدعبده وهومنفى فى بيروت . وذهب إلى طرابلس مجاهدا عام ١٩١١ ثم برح برقة عام ١٩١٢ إلى

الإستانة حيث نشبت حرب البلقان وكلف بالإشراف على الهلال الأحمر وكتب في المنار من عام ١٩٢١ إلى نهاية عمر المنار . وقد أتاحت له إقامته في أوربا فرصة للبحث والدرس والكتابة ، فاستطاع أن يكتب تعليقاته الضخمة على كتاب « حاضر العالم الاسلامي » الذي ألفه لوثروب ستودارد وترجمه عجاج نويهض. وكتاب « غزوات العرب في فرنسا وسويسرا » . و « لماذا تأخر المسلمون » و « الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف » .

وقد عاش « شكيب ارسلان » في أوربا مغتربا نتيجة لأيمانه برأيه وأصراره على أفكاره « لأنني ما تعودت أن أراعي كبيرا ولا صغيرا عندما أكون مقتنعا بقضية من القضايا » .

ولعل أبرز قضية في هذا الصدد موقفه من العرب عام ١٩١٦ عندما اتفقوا مع بريطانيا . فقد عارض اتجاههم وكان من المقتنعين بكذب بريطانيا في وعودها بإقامة دولة عربية . وقد اختلف مع الملك فيصل لهذا السبب . واتهم شكيب بأنه قاوم الحركة العربية وجنح إلى الأتراك. فلما وضعت الحرب اوزارها وتبين الرشد عرف العرب أن الانجليز غدروا بهم . وقد سجل هذه المذكرات ونشرها في المنار . كما نشر في الأهرام فصولا في هذا الصدد كان يوقعها بإمضاء « عربي صميم لم ينخدع من القديم » . ومن هذا قوله شعراً :

سيعلم قومي أنني لا أغشهم ومهما استطال الليل فالصبح واصله

وقد ظل شكيب ارسلان يتردد على الشرق فيمنع حينا من دخول مصر ومرة أخرى من دخول سوريا أو لبنان . وقد كان واحداً من وفد الصلح بين الملك سعود والإمام يحيى .

ووصف أسلوبه بأنه قريب من أسلوب ابن خلدون واشتهر بالمناظرة والخطابة والكتابة السياسية والاجتماعية .

وفى مؤلفاته كتابية « شوقى أو صداقة أربعين سنة » صور فيها علاقته بشوقى ورأيه فى شعره وذكرياته؛ وهولون من الكتابة التاريخية عرف به. يحوى الدراسة والنقد والعرض والأخوانيات والذكريات . وشبيه به كتابه « رشيد رضا أو أخاء أربعين سنة » سجل فيه ما كان يتبادله مع رشيد رضا من رسائل وذكريات وأحاديث .

وقد عرض فى كلا الكتابين لما قام بينه وبين شوقى ورشيد رضا من خلاف أو جدل فى مسائل علمية أو دينية أو فلسفية .

عبد القادر حمزة

لم يدع عبد القادر حمزة[1] — وهو الأديب — للصحافة أن تغلبه فلا تسجل له غير مقالاته السياسية وأفكاره الوطنية فصنع مجده الفكرى فى رسالة « على هامش التاريخ المصرى القديم » تناول فيها بالدراسة مصر الفرعونية فى أسلوب عذب وبيان واضح وعرض علمى دقيق .

كان يمكن أن يكون عبد القادر حمزة رئيس تحرير البلاغ وصاحبه من كبار العلماء والأدباء . لولا أنه توجه بكليته إلى الصحافة . وانفق فى الصراع السياسى حياته ، ولكنه بالرغم من هذا فقد كان تقديره للأدباء وانفساح المجال لآثارهم وانتاجهم دليلا أكيدا على تغلغل روح الأدب فى نفس الصحفى الكبير . فقد كان عباس العقاد ولطفى جمعة وسلامه موسى وزكى مبارك ومحمود الشرقاوى يكتبون على صفحات البلاغ آيات أدب ما تزال بعيدة الأثر فى النهضة الفكرية .

عرف بالأسلوب الهادىء العميق . اختاره سعد زغلول ليعمل معه بعد أن اختلف مع أمين الرافعى عام ١٩٢١ فانشأ البلاغ عام ١٩٢٢ وسجل له مؤرخوه بأنه كان يؤمن بالصراع القائم على أسس من البراهين والأسانيد وأنه اتخذ هذا الأسلوب فى خضم السجال الحزبى ولم يتخل عنه مرة واحدة .

عرفت مقالاته باسم « العصا » لأنها كانت غالبا فى مساحتها تملأ عاموداً وربع عامود ... وقيل أنها سميت كذلك لأنها كانت تؤدب وتهذب .

---

(١) توفى فى ٦ يونية ١٩٤١ .

وقد أقبل عبد القادر حمزة على البحث التاريخى فكتب سفره عن الفراعنة فكشف فيه عن الكثير من حقائق التاريخ الفرعونى ·

ويقول زكى مبارك عنه أنه كان يستمد للدهر والأيام أكل إستمداد « كان يقضى ليله ونهاره فى تدبير وسائل الحياة لجريدة البلاغ · وقد حدثنى مرة أنه يحب أن يعيش صحفيا ويموت صحفيا وأن يشتهى أن ينقل لأبنائه هذا الميراث ... »

وقد تحقق هذا فعلا ·

وقيل عنه « أنه لا يكتب فى موضوع حتى يجمع الحجج الدامغة والأسانيد المفحمة ويسدد الضربة فى الصميم · وهو لم ينسى فى خلال خصومته عفه قلمه ولسانه فى الخصومة · وأن له طريقة فى الجدل . ومذهب فى النقـــد · وعناد فى الخصومة · وأنه يعادى بعنف ويصادق بعنف · »

وقد سجل زكى مبارك فضل عبد القادر حمزة عليه فى مقدمة كتابه « ذكريات باريس » حيث أشار إلى أن الرجل وصل جناحه « وراش سهمه » وقد عمل عبد القادر حمزة فى الصحافة مع حافظ عوض ومع العقاد ومع المازنى .

وتحدث عبد القادر حمزة عن صلة الصحافة بالأدب فقال :

« أن الأدب عنصر من عناصر الصحافة . ولكن الصحافة ليست هى الأدب بل هى فن أعم منه وأوسع · الأدب بضاعة من بضاعات عدة · لابد للصحفى منها ولا ريب أنها بضاعة جميلة · ولكن إذا اقتصر الصحافى عليها وإذا هو برز فيها ولم يعط البضاعات الأخرى إلا القليل من عنايته لم يكن صحافيا ·

... وإذا كان معنى الأدب أنه التبرز فى اللغة وفى الكتابة · وفى معرفة الشعر فهو حينئذ أدب ضيق غير متفتح . أما إن كان معنى الأدب أنه التثقيف

الكامل علما ولغة وكتابة وخبرة بالناس والأشياء والأذواق ثم قدرة على الانتاج فهذا هو الأدب الواسع المنتج .

وقد عرف عبد القادر حمزة بأنه كان لا يمتنع عن نشر رأى يناقض رأيه وقد صور الزيات حياته فقال « بلغ ما بلغ من رفيع المنزلة وبعد الصوت بحسن استمداده وطول اجتهاده . فلم يتكىء فى جهاده المادى والأدبى على سند من أسرة أو ثروة أو وظيفة وهو فى ذلك أحد الأفذاذ الذين شقوا طريقهم الوعر بسن القلم وقلمه فى يده كالمبضع فى يد الجراح الماهر لا يشق إلا بتقدير ولا يقطع إلا بقدر ولم يتميز عن الأساليب الصحفية غير أسلوبه وأسلوب لطفى السيد من قبل : تميزا بالايجاز والاشراق والطلاوة والمنطق وبرئا مما تجره الصحافة على كاتبها من ضرورة الثرثرة واللغو .

عالج المحاماه فى مقتبل عمره ثم دفعته الظروف بمعونة ميله الفطرى إلى الصحافة فبرز فيها تبريزا لا يتهيأ إلا لأصحاب الملكات القوية وكان مما ساعد على هذا التبريز طريقته الواضحة فى الجدل . ومذهبه العفيف فى النقد . ونظرته الثاقبة فى الأدب . ورجولته العنيدة فى الخصومة[1] » .

وقال زكى مبارك عنه « أنه كان يحترم أصحاب المبادىء ولو كانوا من خصومه الإلداء .

ويقول محمود الشرقاوى[2] أن الصراع بينه وبين خصومه دام سنتين لقى فيها من العنف والجبروت ما يوهن عزائم جيش من الرجال الصامدين وكان هو بين تلك الزعازع كالأشم الراسخ لا تنال منه الرياح والأعاصير . ولا يزيده العنت إلا عناداً . كنا نراه فى البلاغ يزلزل أقدام خصومه كل يوم . ثم هو يسير إلى حجرته صامتا ويجلس إلى مكتبه صامتا ويكتب ويراجع ويصحح صامتا . ويعود

(١ و ٢) مجلد مجلة الرسالة سنة ١٩٤١ .

للعمل فى المساء معنا صامتا . كان هذه القيامة القامة فى مصر ليست منه ولا بسببه وكان فى أشد الأيام حلوكه وسواداً لا ينى يقول : نحن قريبون من النصر ... »

* * *

أما عبد القادر حمزة الأديب فقد كان واضحا فى قدرته وتبريزه فى الترجمة وكتابة التاريخ المصرى القديم . وقد عرض الأدب فى مصر القديمة فقال « من أسف أن المثقفين منا يعرفون إلى جانب الأدب العربى الأدب الانجليزى والفرنسى والألمانى . ومنا من يعرفون حتى الأدب الفارسى واليونانى ولكننا لم نُعن إلى الآن بمعرفة أدبنا المصرى القديم » .

ثم إذا هو حاول الترجمة للتراث الأدبى الفرعونى القديم قال أنه لن يستطيع أن يعطى صورة صحيحة كاملة لما يترجمه من الأدب الفرعونى ذلك لأن « الشعر أو النثر الفنى الذى يسمى أدبا سيكونان من عنصرين أحدهما الفكرة والثانى الصياغة واجتماع هذين العنصرين هو الذى يبعث فى النفس أثراً خاصاً وموسيقى خاصة والترجمة تنقل الفكرة ولا تنقل الصياغة فكأنها تنقل الهيكل العظمى دون اللحم والدم » .

ولا شك أن الترجمة من الأدب الفرعونى القديم هى أصعب فنون الترجمة وقد وصف قلم عبد القادر حمزة بأنه قلم يجادل ويحاور ويجمع الحجج الدامغة والأسانيد المفحمة ويسدد الضربة فى الصميم .

وهكذا يمكن القول بأن عبد القادر حمزة الصحفى هو « الأديب » و « المترجم » و « المؤرخ » .

وليس أدل على تواضعه من أن يكتب إسم كتابه الضخم عن مصر الفرعونية « على هامش » التاريخ المصرى القديم . وليس أدل على إيمانه بمصريته من شغل

وقت فراغه بدراسة أراد أن يدلل بها على أن المدنية المصرية قامت على أساس علمى وأن المدنية الحديثة وما سبقها من مختلف المدنيات وفى طليعتها المدنية اليونانية انما هى « سير » مطرد لمدنية مصر .

وهو فى كتابه هذا كشأنه دائما ينقل حماسته للفكرة وإيمانه بها إلى أسلوب من أساليب العقل والحجة والمنطق ولا يدع العاطفة تدفعه مجردة . فهو مؤمن بمصر . ويريد أن يدفع عنها اخطاء المؤرخين أمثال هيرودت وغيره . ولكنه لا يصل إلى ذلك إلا بوثائق وأسانيد من الأناشيد التى وجـــدت منقوشة على المعابد والأهرامات .

* * *

ومن تاريخ عبد القادر حمزة أنه عمل فى صحيفة الجريدة مع لطفى السيد عام ١٩٠٧ وترجم طائفة من القصص فى شبابه . وعارض مشروع ملنر . ثم أصدر المحروسة والأفكار والرشيد والبلاغ واعتقل مع أعضاء الوفد وترجم كتاب التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر الذى ألفه ويلفريد بلنت وكتاب السيف والنار فى السودان الذى ألفه سلاطين باشا .

ومن نماذج كتاباته الوطنية قوله « ... أنه يسهل على القوة أن تستبد وتطغى ولكنه ليس سهلا عليها أن تمتلك قلوبا . وإذا تحركت فى شعب قلوبه تطلب الحرية فكل قوة فى الأرض عاجزة عن أن تخمده أو تقيده وإذا تأخرت الحرية حينئذ عن أن تضع يدها فى يد هذا الشعب فما ذلك إلا زمن للجهاد يطول قليلا أو يقصر بمقدار ما فى الطريق من العقبات . ولكنه منته حتما إلى غايته فعلى الذين يعتريهم الملل أثناء الطريق أن يعلموا أن الغاية تدنو منهم يوما بعد يوم وعلى الذين يتعبون أنفسهم فى معالجة الشعوب بالقوة أن يعلموا أنهم يعالجون مستحيلا ... »

فريد وجدى

عاش « عالماً » بكل ما للعلماء من شمائل . الخلق والبعد عن البريق والتسامى عن الصغائر · والانتاج الباقى الخالد بالرغم من أنه عمل بالصحافة وأصدر « الدستور » وكتب وألف فانه ظل نقى السريرة حفيظا على الود . عزوفا عن الدخول فى الصراع أو الجدل حول المسائل التى كان يدور حولها السجال فى حياتنا الفكرية خلال النصف قرن الماضى ·

وما زال العقاد يعترف له بأثره فى تفكيره وحياته وعندى أن فريد وجدى فى الصحافة من أمثال جاويش وأمين الرافعى ، وفى العلم من أمثال شكيب أرسلان وأحمد زكى وفى التحقيق والبحث من أمثال الرافعى ورشيد رضا .

وقد وجه فريد وجدى نفسه للعلم وللاسلام وللدراسات الروحية التى تتعلق بالدين والعقيدة وعنى فى أول أمره باللغة وأبحاثها وهو من العلماء ذوى الباع العريض والثقة بالنفس ولقد دفعه هذا إلى أن يصدر دائرة معارف كاملة فى عشرة مجلدات ضخام وقاموسا لغريب اللغة وتفسيراً للقرآن الكريم · وكان قد أصدر قبل ذلك « كنز العلوم واللغة » الذى اعتبره أساساً لموسوعته التى اشترى لها مطبعة خاصة .

عاش فريد وجدى حياة طويلة خصبة ، وقفها كلها للبحث وجردها للعلم . فقد بدأ يكتب وينشر عام ١٩٠٣ أى وهو فى سن الخامسة والعشرين[١] ومنذ

(١) ولد عام ١٨٧٨

ذلك التاريخ حتى وفاته فى ١٥ فبراير ١٩٥٤ فى خلال خمسين عاما شغل المفكرين بأبحاثه وأثاره وإنتاجه الغزير الذى كان يصدره صامتاً دون دعاية أو جعجعة أو طبل ودوى . وفى عام ١٩٢٢ أصدر كتابه (على إطلال المذهب المـادى) يعارض فيه الدعوة المادية التى كانت قد استفحلت وحملتهـا إلينا الحضارة الغربية وأغرم بها فى مصر أمثال شبلى شميل وسلامه موسى وإسماعيل مظهر وقد دحضها فريد وجدى بالعلم والاقناع والدليل والمنطق دون أن يجعل لعاطفته الاسلامية أو عقيدته دخلا فى هذا العمل . وقد رجمت أوربا ممثله فى علمائها من بعد عن المذهب المـادى .

ولم يتعلم فريد وجدى فى الأزهر، كما يخيل للبعض من هذا التعمق فى الدراسة للاسلام والروحية . أو نتيجة لأنه ظل رئيساً لتحرير مجـلة الأزهر الشهرية أعواماً طوالا . بل هو الذى علم نفسه .

ولعل دراسة فريد وجدى للاسلاميات هى نقطة تحول كبرى فى حياته فقد كان أول شبابه معارضاً للنظريات الدينية . شاكا فى وجود الخالق . ثم تحول من النقيض إلى النقيض .

يقول « . . كان أهم ما وجهنى إلى البحث فى العلوم الدينية حادث الشك فى العقيدة الذى أدى بى إلى الشك فى كل شىء حتى الدين وعلومه . » فقد كان يحضر مجالس والده ويسمع المناقشات الدينية » كنت إذا ناقشت مسألة من مسائل الـكون والخلق أسرع أبى إلى قفل باب المناقشة وأمرنى إلا أخوض فى المسائل الدينية . ومن هنا تزلزلت عقيدتى وشرع الشك يتسرب إلى عقيدتى حتى صرت لا أرتاح إلى رأى واحد ولا اقتصر على فـكرة معينة ولذلك جعلت أتناول بالقراءة والدرس جميع الـكتب الدينية والـكونية والاجتماعية وسائر ما يتعلق منها بعلم النفس وأكببت على ذلك عدة سنين . فاكتسب علماً غزيراً

واتسع أمامى نطاق الحياة وجال نظرى فى المكتبات جولات أفادتنى فيما تناولته بالبحث والدرس حتى صرت لا اقتنع بفكرة دون أن أعنى بدرسها أو تمحيصها معتمداً فى ذلك على تجاربى الذهنية التى مرت بى . ولقد أفادنى هذا الشك استقلالا فى الفكر واعتماداً على النفس ورغبة فى استيعاب ما يقع فى يدى من الكتب بصبر وجلد . . »

وقد جمل فريد وجدى هدفه المواءمة بين محاسن الفكرة الإسلامية[1] وأصول المدنية المصرية . وصور ذلك فى عدد من الفصول والدراسات نشرها المؤيد واللواء و الدستور والجهاد ومجلة الأزهر .

ويقول « أن الفلسفة هى أحدى الشموس التى تنير لنا ما حولنا من وجود وتكشف لنا مدى الصلة التى تربطنا بهذا الوجود السرمدى . وأن الرجل المثقف لا يستطيع أن ينقطع عن التفكير فى هذا الكون الهائل وما يحتويه من غرائب وعجائب . وما يتخلله من تطور وتبدل . وحياه وموت .

وقد حملنى على التعمق فى دراسة الإسلام ما وجدته فى أصوله التى ذكرها القران وصحيح الحديث من مطابقه ومقاربه لأرقى دساتير الفاسفة المصرية من حيث اندنع بأهله إلى أرقى درجات الكمال المادى والمعنوى . فهالنى البعد بين أصول الإسلام وحالة أهله فى العصر الحاضر فأخذت على عاتقى أن أجلو بقلمى ما استطعت وما حييت هذا الظلام الحالك الذى يغشى الإسلام والمسلمين . . »

وقد عانى فريد وجدى فى دراساته موقفين متعارضين هما موقف الموجه وموقف الباحث وصور هذا فى قوله « . . أشد ما يعانيه من يزاول « الاجتماع » شعوره بشيء من التناقض فى موقفه ناصحاً وموقفه باحثاً . فهو مضطر فى موقفه الأول إلى تجسيم الانحرافات ، وتضخيم الغلطات والذهاب بها إلى أقصى

(١) إقرأ ص ٢٤٤ من كتابى نزعات الجديد فى الأدب العربى المعاصر .

احتمالاتها جانحاً بها ناحية التشاؤم لتتمكن من التأثير فى النفوس فتخليها عن أهوائها وتردها عن غلوائها . ولكنه فى موقفه الثانى يرى من واجبه حيال الحقيقة أن ينظر فيما هو بصدده من وجهة علمية محضة كأنه يحل مسألة رياضية »

* * *

وقد عاش فريد وجدى حياة خصبه ، فقد كان مدرعا بالعافية لاستقامة خلقه وبعده عن الأهواء . وكان يعمل ست عشرة ساعة اليوم ، حتى إذا جاوز الخمسين عاش على النباتات وكان يؤمن إيماناً يقينياً ببقاء الروح وخلودها وإمكان استحضارها . وقد أوغل فى دراسات الفلسفة وعلوم الروح والعبقرية والمسائل الكونية .

يقول عنه الدكتور بول كراوس « . . يستمد أدبه وعلمه من وثيق إيمانه وصدق إسلامه . وإيمانه بالله يضىء به ظلمات الفكر . وبحوثه تهدى الحيارى من قرائه وسر نجاحه يرجع إلى استمساكه بالألفاظ العربية القديمة . وأدبه مشدود إليها بأمراس قوية . . »

ويقول عنه العقاد[1] وقد عاشره طويلا وعمل معه فى مطلع شبابه لأول عهده بالصحافة فى جريدته (الدستور) .

« قليل النظير فى نزاهته وصدقه وغيرته على المصلحة القومية واستعداده للتضحية بماله وراحته فى سبيل المبدأ الذى يرعاه . ولا يتزحزح عنه قيد أنمله . فقد عطل صحيفته وبين يديه عرض سخى من جماعة تركيا الفتاة التى أرادت أن تتخذ منها لسان حال لهـا فى مصر والشرق العربى باللغة العربية . وهذا غير العروض السخية التى توالت عليه من جانب المعية الخديوية فأقدم على تعطيل

---

(١) فصول « حياة قلم » كتبها العقاد فى مجلة آخر ساعة أكتوبر ١٩٥٧ .

الصحيفة كيلا يخالف عقيدة من عقائده السياسية مرضاه لهؤلاء وهؤلاء وباع كتبه ليؤدى حساب العمال والصفافين والموظفين ملما عليهم ..»

وتعطى هذه العبارات صورة صادقة لشخصية العالم العظيم الذى عاش طيب السيرة وعرف بالخلق والسماحة ونبالة الطبع .

وإذا كان فريد وجدى قد حاول أن يصفى ما بين الفسفة والدين من مسائل فأنه قد وفق إلى حد كبير فى تبسيط هذه المعالم المعقدة التى استخدمها مفكرو المسلمين فى العصور الوسطى ولا شك أنه قام بجهد فى الدعوة التحررية التى عملت للعودة بالدين إلى منابعه الأولى وتخليصه من الشوائب سواء أكانت فلسفية أو فقهية .

ولقد ترك فريد وجدى تراثاً علميا منثوراً فى الصحف والمجلات حبذا لو عنى بجمعه وطبعه وإذاعته للانتفاع به .

محمد لطفى جمعه

شخصية جمعت بين الصحافة والأدب والفلسفة والمحاماه . تألق لطفى جمعه فى أبان النهضة الأدبية (١٩٢٠ - ١٩٣٥) وساهم فى السجال الأدبى والاصلاح الاجتماعى وعرف بالأسلوب البليغ والفكاهة فى التعبير . ولقد شهر عدداً من المعارك فكان فيها بارعا يفحم غريمة بالحجة والمنطق وبالسخريه والتهكم وهو فى جملة اتجاهه الفكرى ينحو نحو الدفاع عن الاسلام ويظاهر التراث العربى ويرد عنه عادية المعتدين فى قوه وإيمان .

وهو واحد من الذين صارعوا طه حسين عندما أصدر كتابه الشعر الجاهلى بكتابه « الشهاب الرصد » . وكتابه « حياة الشرق » يعد من أعظم المراجع فى تسليط الأضواء على خفايا السياسية العربية يضع به النقط فوق الحروف على كثير من الحقائق التى لم تكن واضحة . فهو صريح جرىء فى الكشف عن زعماء الشرق الذين كانوا صنائع الاستعمار .

وقد كتب لطفى جمعه قصة طويله لعله لم يكملها بعنوان « عايده » كان ينشر كل يوم « اثنين » فصلا منها فى البلاغ عام ١٩٣١ يتناول منها القضايا السياسية والاجتماعية هذا إلى بابه الثابت الذى كان يحرره فى الصفحة الأولى من البلاغ بعنوان « لعل وعسى » وقد نشر فى الرسالة والدستور ومختلف المجلات والصحف عدداً من البحوث العلمية والأدبية العميقة التى تحس فيها روعه الاستيعاب وشمول العرض .

ويعد لطفى جمعه أول من كتب عن النهضة النسائية فى مصر ومقالاته بتوقيع « الخنساء » هى باكورة ما كتب عن قضية المرأة عام ١٩٢٥ .

* * *

ولطفى جمعه درس الحقوق فى مصر ثم أتم دراساته فى فرنسا حيث كان زميلا لمصطفى كامل فى كلية ليون وقد حصلا على إجازة الحقوق فى حفل واحد واتجه لطفى جمعه إلى المحاماه والصحافة وألم الماما كاملا بالسياسة الخارجية والقضية العربية ولعله من أول الدعاة إلى الوحدة العربية .

ومن ذلك قوله «.. السبب الجوهرى[1] للحال التى يئن منها العالم انقسام الإنسانية إلى شطرين : الشطر الأول هو أوربا · والشطر الثانى هو الشرق · وأوربا تريد اغتيال الشرق واستغلاله والقضاء على مصادر الحياة فيه وتسخيره لأغراضها حتى فى محاربة أعدائها ولو كانوا من الأوربيين أنفسهم » وتتجلى روح « لطفى جمعه » الفلسفية فى تأليفه كتب « فلاسفة الإسلام » حيث تناول بالدراسة : الكندى والفارابى وابن سينا والغزالى وابن ماجه وابن طفيل وابن رشد وابن خلدون أخوان الصفا وابن الهيثم ومحى الدين بن العربى وابن مسكوية ·

ويقول أنه فكر فى تأليفه منذ عام ١٩٠٧ عندما كان يدرس فى ليون وقرأ عنهم خلال أسفاره بين ليون وجنيف ولندن وفلورنسا وهو يقدمهم بكلمة رائعة «لولاكم أيها الفلاسفة من الكندى إلى ابن رشد لم يكن لفيلسوف أوربى حديث أن يظهر فى عالم الوجود · وأنكم أنتم الذين حفظتم تلك الشعلة المقدسة التى خلفها سقراط وأفلاطون وأرسطو من مغاور الماضى السحيق ·· »

وحمل على الفكرين فى عصره دعواهم التجديدية إذ أحس أنهم يحاربون بها أمجاد الإسلام .

« وأحق الناس بتفهم هذا القول هم الفريق الذين ظهروا فى الزمن الأخير

(١) مقدمة كتابه فلاسفة الإسلام .

بمظهر تحقير الفكر الشرقي الإسلامي والحط من أقدار رجاله المتميزين . والطعن في علومهم وآدابهم وحكمهم والانتقاص من آثارهم .

... إذ كيف يستبيح أديب أو عالم أن يقلل من قيمة أسلافه في الثقافة الانسانية . وهل استباح كاتب أوربي من الذين يدعى هؤلاء الناس تقليدهم لنفسه الحط من قدر أسلافه في العلم والفلسفة لمجرد قدمهم ومضى الأجيال الطويلة على اختفائهم على عالم الوجود المادي ... »

ومن عبارته عن المجددين يتبين فهمه العميق لجودة المعاني بصرف النظر عن الزمن يقول « ... من هؤلاء القوم فريق يدعون أنهم مجددون ويذمون كل قديم لمجرد قدمه . ويتهوسون بعبارة كل جديد لمجرد جدته على أنهم لو عقلوا لعلموا أن من لا قديم له لا جديد له وأن الشرف والنبل يرجعان إلى عراقه الأصل » .

وهو يعتبر « الاسلام » مدنية كاملة شاملة حافلة بكل معاني الحياة العقلية والثقافة الأوربية . وعلى هذا يكون الفلاسفة المسيحيون من أحرار الفكر الذين نشأو وترعرعوا في كنف المدنية الاسلامية حكماء اسلاميين بحكم الفكر والوسط .

وقد كتب « لطفي جمعه » عن التصوف كتابة تدل على عمق الفهم وسعة الأفق «التصوف نوع من الفلسفة إذ هو رسم خطة للحياة الانسانية وصاحبه يبحث عن الحقيقة ويسعى في حل لغز الحياة وتفهم أسمى أسرار الكون وهو ينكر في الفلسفة الأوربية عوادي المذهب المادي الذي جعلها تستغرق شهوات البشر من طموح إلى السيادة وطمع في السعادة فسدت بذلك مسالك الفكر الصحيح أمامهم .

ولا يُنسى أن لطفي جمعه هو أول من كتب عن الفلكلور عام ١٩٤٣ في مجلة المقتطف عدداً من الفصول الضافية .

وكان يطلق على منزله « بيت يحيي وزكريا » في عين شمس . وقد ترك انتاجا كثيرا موزعاً على الصحف والمجلات ولعل مما يعرف به أن كتاباته جادة صارمة بعكس مرافعاته التي اتسمت دائما بروح المرح والدعابة .

ويروى لطفي جمعه قصة أيام التحصيل في فرنسا حيث وصل إليها فجر يوم من شهر أغسطس ١٩٠٥ وكان من زملائه هناك منصور فهمي وتوفيق الساوى وسيد كامل . وقد نزل فندق جان جاك روسو الذي ينزله كل طالب مصرى عند قدومه الأول إلى باريس .

ويتحدث لطفي جمعه عن ذكرياته ويخص بالذكر منصور فهمي الذي كان يبحث عن قبقاب وابريق للوضوء وسيد كامل وهو يبحث عن كتاب سينيوس في تاريخ أوربا الحديث .

وقد كان يحلو له أن يجلس تحت تمثال الكاتب الذي أحبه «جي دي موباسان» وقت الأصيل وبين يديه كتاب من مؤلفات الرجل حيث يستعرض حياته وكتبه ومصيره .

* * *

وهنا جانب قوى من حياة لطفي جمعه الفكرية ذلك هو قوته في السجال وصموده في معارك الفكر . وقدرته على الصولان والجولان وإصالته في مهاجمة خصمه ولقد دخل معارك كثيرة كتب له فيها النصر . كان أسلوبه في الجدل أو سخريته وتهكمه . أو قوة بيانه . أو استغلاله العوامل النفسية في الجماهير .

كل ذلك مما أدى إلى انتصاره على مناظره . ولعل قوته كمحام مرن على الدفاع أمام الحاكم وأحرز نجاحا كبيرا كانت من العوامل التى أتاحت له النصر فى حلبة مساجلات الأدب .

وكتابه « الشهاب الراصد فى الرد على الشعر الجاهلى » من أقوى الكتب التى ألفت للرد على الدكتور طه حسين . وقد قرأت له مساجلات حامية مع زكى مبارك وغيره من الكتاب والمفكرين كان فيها قديرا على إدارة الحديث وتحقيق النصر .

وقد كتب « لطفى جمعه » سبع سنوات فى البلاغ وله مجموعة ضخمة من المؤلفات كان أولها قصته « فى وادى الهموم » التى ألفها عام ١٩٠٥ وأبرز مؤلفاته كانت عن الاسلام والشرق والعرب وفلاسفة الإسلام .

محمد كرد على

المؤرخ الأديب الصحفى الذى أنبتته دمشق . فأحب القاهرة وعاش حياته يعمل للعروبة والاسلام وأمجاد الشرق كاتبا يشرع قلمه فيكتب وينقد ويدخل المساجلات ويصارع فى قوة عارضه . وإن كانت عاطفته تسبق عقله أحيانا فتهدم الحده مابنته الفطنة . وذلك عيبنا فى الشرق عندما تتصل أقلامنا بالحاضر الممثل فى أناس نعيش معهم ونختلف معهم أحيانا على أمور شكلية أو نلتقى معهم على مصالح ذاتية . وقد دافع كرد على عن هـذا الاتجاه فقال « ... أنا من أنصار الـكتابة الحارة لا الباردة ولا الفاترة . لاعتقادى أنها تأتى بالفوائد . أريد من الـكتابة أن تبقى أثراً فى النفوس وتنزع قديما باليا وتستعيض عنه بجديد مفيد ... »

وقد اشتغل صاحب المقتبس بالصحافة وهو فى سن السادسـة عشرة أى عام ١٨٩٦ وهو فى خلال هذا العمر الطويل — إلى أن توفى عام ١٩٥٣ — أكثر من سبعة وخمسين عاما حرر ألواناً مختلفة من الدراسات التاريخية والأدبية وكتب فصولا فى النقد والتاريخ والقومية والاسـلام وكانت حياته الصحفية ضخمة حافلة . القلم الجهير الصارم المندفع فى الهجوم على الظـــلم التركى والولاة ورؤساء الأعمال الظالمين وشيوخ الدين الجامدين حتى أنه تعرض فى سبيـل ذلك للاضطهاد والقتل .

وقد حرر « كرد على » أول جريدة ظهرت فى دمشق قبل إعلان الدستور العثمانى وأطلق عليها اسم « الشام » ومضى يحررها ثلاث سنوات ثم اتصل بالمقتطف

وكتب عن الوهابية . ثم حرر فى طائفة من الصحف المصرية كالرائد المصرى والظاهر . ثم كتب فى المؤيد . وأصدر مجلة المقتبس ثم عندما عاد إلى دمشق واصل إصدارها هناك كما كتب فى المنار .

ويقول شفيق جبرى فى كتابه عنه أن « المقتبس أصبحت له مكانة لم تحرزها جريدة من جرائد السلطنة العثمانية التى تصدر باللغة العربية لأنها كانت تجربة زائدة حتى ليظنها العارفون جريدة من الجرائد الوطنية فى مصر تصـدر فى عهد العميد كرومر » .

وقد بلغ من أثر كتابات « كرد على » أن طلب القبض عليه وأذاع الوالى فى رجال الأمن بأن من يقبض عليه حيا أو ميتا يرقى ويكافأ وقد استطاع الهرب . كما روى فى مذكراته أنه جرت محاولة لاغتياله من قبل الاتحاديين وكان قد أصلاهم ناراً حامية بالنسبة للسياسة التى نهجوها مع العرب . وقد جرت محاولات لإغرائه بالمال ليعدل من لهجته فى نقد أعمالهم دون جدوى .

ومن أروع كتابات كرد على التى كان لها أثراً كبيراً ما كتبه عن سـير الأعاظم من رجال التاريخ « لتحريك قلوب العرب وعقولهم » وإن كان قد أخذ عليه أن حرر فى صحف جمال باشا السفاح عدو العرب أبان حكمه لدمشق .

* * *

يقول كرد على أن أساتذته هم طاهر الجزائرى والسيد محمد المبارك والشيخ النجارى . وأن الرجل الذى سقى روحى « الدعوة للاصلاح الاجتماعى والأقدام على التأليف والنشر وأشراب محبة الأجداد . والتناغى بآثارهم والحرص على تراث حضارتهم أستاذى طاهر الجزائرى » وقد تشبعت نفسه بكتب الغزالى وابن حزم وابن تيمية وابن قيم الجوزية قال « ودرست الإسلام دراسة علمية ، تدبرت القرآن

وسيرة الرسول وأصحابه . وأخذت الشريعة من أصفى مصادرها .

وقد عاش أكثر من أربعين سنة ينظر فى الكتب المصرية التى تخرجها المطابع فى الشرق والغرب . وقد قرأ المطبوع والمخطوط . وأكثره له صلة بالتراجم والتاريخ والأدب .

وقد أحاط بتاريخ الاستشراق . وطالع بالفرنسية أهم ما كتبه فولتير وروسو ومونتسيكو وسبنسر ورينان ولوبون وسانت بوف . وكان مشتركا فى المكتبات الأوربية لترسل إليه كتبها الجديدة شهرا بشهر . وقال عن نفسه أنه طالع ألوفا من الكتب باللغات العربية والتركية والفرنسية .

وكانت دعوة كرد على فى مبدأ الاشتغال بالصحافة إلى إظهار دفائن المدنية العربية وبث خزائن الحضارة العربية وقد أبرز هذه الدعوة فيما نشره فى جميع الصحف .

« أن مفاتيح كنوز الأجداد التى انتقلت إلى النشء بالأرث الصحيح لاغنية لهم عن معالجتها بالفتح لاستمالة ما فيها . والاستظهار بمعنوياتها ثم بماديتها لأن هذا الحاضر الذى يحاول بعضهم الاقتصار عليه هو ربيب الغابر ووليده بل سليله وحفيدة وطريده .

والجمود على القديم هو العقم بعينه . وقطع الصلة على المدنية الحديثة مضرة ومعرة . ولا خير فيمن جهلت أصوله . ولم يتخلق بأخلاق جيله وقبيله » .

* * *

وقد سافر كرد على ورحل وطوف وجاب الآفاق . وكانت رحلاته مادة فكرية له . زار أوربا أعوام ١٩٠٩ ، ١٩١٣ ، ١٩٢١ ، ١٩٢٨ يقول « ... كانت الغاية من رحلاتى تجديد مارث من قواى ، وترويض الجسم . وتسلية الروح .

والتعرف إلى مدينة الغرب ، ودرسها فى أرضها . درسا عمليا بعد صرف جانب من الوقت فى درس النظريات » .

وقد زار فى رحلاته الجامعات ودور الكتب والمتاحف وحادث العلماء والمستشرقين . وقد ألف إعلى أثر رحلاته كتابا قيما هو « غرائب الغرب » وكان لبلاد العرب نصيب من رحلاته . وكانت بعض هذه الرحلات هربا من الظلم .

« ... قضيت ثلاثة وعشرين يوما فى زيارة مدينة الرسول . وآثار وادى موسى أو البتراء المعروفة بالعربية وبلاد مآب أى الكرك وأرض الشراه التى كان يسكنها بنو العباس فى أيام بنى مروان .

فلما عدت من عناء السفر فاجئتنى الحكومة المحلية بما عودتنيه أيام الحكم المطلق — بقصد الاعتقال — . ولذلك أرسلنا ساقينا للريح ساعة أن بلغنا أن الحكومة فى سوريه تريد القبض علينا فسرنا يوم ١٧ ابريل ١٩١٢ بدون ريث بين حدائق صالحية دمشق حتى بلغنا الزاوية الغربية الشمالية فيها . ومنها قصدنا إلى دمر من طريق الجبل مشيا على القدم . ثم انصرفنا من دمر إلى المزه بالتصعيد فى الجبل . وهناك اختبأنا فى إحدى قرى وادى العجم أياما حتى تهيأت لنا أسباب العزيمة على حصان فى صحابه صديق لنا قديم ... »[1] .

* * *

ولقد ألقى كرد على بعض الأضواء على شخصيته فى لمحات من أقواله « ... إذا خلا إلى نفسه فانما يخلو إلى كتبه . وإذا اعتزل دمشق إلى ريفه فى الغوطة فإنما يعتزلها ليصغى إلى أحاديث كتاب يجالسه أو اصغاء إلى خفيف شجرة وزقزقة طيره وثغاء غنمه وخوار بقره فما عرفنا فى عصرنا من غلبت عليه محبة القراءة ومشغله الميل إلى التأليف مثله .

(١) من كتابه القديم والحديث .

وقد وصف نفسه فى قوله « ... يانفسى لا تغضبى . ولا تعتبى فقد عمرت طويلا : ومتعت كثيرا وفتنت بجمال الوجوه وجلال الطبيعة وهمت بصنع الخالق والمخلوق . واستكثرت الخلان والمعارف . وسعدت إذ كنت أقرب إلى التفاؤل من التشاؤم وإلى الرجاء أدنى إلى القنوط . »

وقد وُصف كرد على بأنه حجة فى تاريخ العرب والاسلام . وأبرز مؤلفاته « خطط الشام » هذا الكتاب الضخم الذى صدر فى ستة أجزاء وأنفق فى تأليفه ربع قرن كامل .

وقد عرف عيله إلى السرعة فى القراءة مؤمنا بالمذهب الذى يقول بأن الاعتماد فى القراءة يكون على الكثرة لا على النوع .

وقد أحب مصر وصرف هواه إليها . زارها ١٩٠١ وتعرف فيها بعديد من أعلامها أمثال محمد رشيد رضا وأحمد تيمور وعبد العزيز جاويش ومحمد عبده وقاسم أمين وحفنى ناصف واسماعيل صبرى والبارودى وحافظ ابراهيم .

ووصف شفيق جبرى مزاجه بأن « الحدة تغلب عليه فلا يحتمل ما يمكن إحتماله من أمور يسيره فاذا غضب فإنه لايبالى نتائج غضبه . ويكون همه إرضاء نفسه فى غضبه » .

وقد ظل كرد على رئيسا للمجمع العلمى العربى فى دمشق طيلة حياته وعمل وزيرا للمعارف فى سوريا وعضوا فى مجمع اللغة العربية .

وهو يرى أن اللغة العربية « تامة أدواتها . وليس فى اللغات ما يماثلها كثرة ولا سيما فى الشريعة واللغة والشعر .

وقد أحدثت مذكراته عند اصدارها دويا فى المحيط العربى كله فقد كشف

فيها الشام عن كثير من الحقائق التى لم يجرؤ أحد على كتابتها واذاعتها وأن وصفت بأنها متضاربة وأن الجانب الشخصى قد غلب على أحكامها .

وله كتاب القديم والحديث وكتاب دمشق الذى تحدث فيه عن الشام وجمالها وتاريخها والغوطه وأثرها فى نفوس الشعراء والفنانين .

ويعد كرد على واحداً من أولئك الرواد القلائل الذين كتبوا قصة الفكر العربى الحديث[1] .

---

(١) الأعلام الألف لأنور الجندى .

من الرواد

— ١٣ —

اسماعيل مظهر

كانوا ثلاثة هم الذين نشروا النزعة العلمية فى الفكر العربى المعاصر : فرح أنطون وشبلى شميل ويعقوب صروف . وقد كون هؤلاء الكتاب جيلا من الشباب الذى كان مؤمنا بالحضارة الأوربية والنزعة العلميـة وتحرير الشرق من «روحانيته» ودفعه فى طريق داروين وماركس وفرويد . أول من أبرز رجال هذا الجيل وحملة هذه الدعوة اسماعيل مظهر صاحب العصور[1] فقـد كان تلميذاً مخلصا من تلاميذ صروف وأحد الذين تعلموا فى مدرسة « المقتطف » كان يحمل الدعوة إلى تحرير الفكر من كل التقاليد والأساطير الموروثة ، وتحرير العقل من آثار الماضى التى لاتتفق ونزعه العصر الحاضر .

وفى عام ١٩٢٨ كانت العصور تشن حملات ضخمة على الجامدين وتتحدث عن نشوء الفكر العربى وتطوره بالنقل من الحضارة اليونانية . وعن أصل الأنواع ونشوئها بالانتخاب الطبيعى وحفظ الصفوف الغالبة فى التناصر على البقاء وهى عبارات « داروين » وكتبه .

كما ترجم « الضحية » للشاعر رابندرات طاغور . وكتب فصولا عن « مكس نورداو » ونظرته فى الحياة .

---

(١) أقرأ فصلا عن مجلة العصور فى كتابنا نزعات التجديد فى الأدب العربى المعاصر .

وكان اسماعيل مظهر من المعجبين أشد الاعجاب بالانقلاب التركى . وقد ترجم كتابا لقابيل آدم . يصور فيه الفرق بين العقلية الشرقيه والعقلية الغربية

وقد كتب فى صدر مجلة العصور هذه العبارة :

« ... حرر فكرك من كل التقاليد والأساطير الموروثة حتى لا تجد صعوبة فى رفض رأى من الآراء ، أو مذهب من المذاهب اطمأنت إليه نفسك وسكن إليه عقلك ، إذ انكشف لك من الحقائق ما يناقضه » .

وقد أحب مظهر أستاذه صروف وأعجب به وأتيح له من بعد أن يجلس على كرسيه رئيسا لتحرير المقتطف .

وقد تحدث عنه عند وفاته فقال « ... فى يوم الأحد ١٠ يوليه ١٩٢٧ كنت قد اعتدت أن ألتقى بأستاذى الراحل العظيم الدكتور يعقوب صروف بعد أن وصل إلى سمعى نعيه ببضع دقائق ، ولم أكد أقف أمام حجرته حتى رجعت بى الذاكرة إلى حكمه رينان .

فقلت فى نفسى « لعل الله كان أقرب إلى هذه الحجرة منه إلى أى مكان فى الأرض ... » .

« كان يقول لى — أى صروف — إذا لم تكن الحياة فى عالم آخر غير هذا العالم كانت هذه الحياة عبث فى عبث ، وإذا كانت هذه الحياة مقدمة فلابد لها من نتيجة ، وأى نتيجة يؤيدها القياس المنطقى أكثر من الاعتقاد بحياة أخرى تكمل مافى هذه الحياة من مناحى النقص ... » .

وهو يشير فى أكثر من موضع من مؤلفاته إلى أن صداقته بصروف استمرت سبع سنوات وأن الكلام كان يجرى بينهما عن تاريخ الحضارة العربية — ولصروف

فيها رأى — كان لا ينفك فى تشجيعه على المضى فيه والتمكين له بكثرة البحث والقراءة . وهو أثر الثقافة اليونانية فى حضارة العرب ...

وقد كان يدعو لهذا الرأى طه حسين وإسماعيل مظهر فى وقت كان الانتقاص من حضارة العرب أو الشرق جزءاً من خطة ضخمة تملأ نفوس الكتاب المصريين للغض من أمجادنا وتاريخنا القديم .

ولعل اسماعيل مظهر نفسه قد رجع عن كثير من آرائه تلك التى دفعته إليها حماسة الشباب ، بل إنه بعد عشرين عاما (١٩٤٦) يقول « ... ذهبت تلك الفلسفة المادية بمقالاتها ومبادئها وقضت روح الانسان الاستشرافية على تلك المادية الجامدة . وإنى لهذه المادية أن ترضى فى الانسان خليقته الأصلية ، خليقة الاستمداد من قوة فوق قوته وعقل فوق عقله ، وتدبير فوق تدبيره ! تلك طبيعة الانسان ، وثوب يسنده جود ، وعقل يسنده خيال . وفكر تقويه عقيدة . » .

ويرى أن العلم والدين والفلسفة ثلاث صور من صور الفكرة تستمد من ثلاث كفايات مختلفة فى الغريزة الانسانية . فالعلم يستمد من كفاية التجربة البحث فى ظواهر الأشياء ، والدين يستمد من كفاية الاعتقاد ، والفلسفة تستمد من كفاية التأمل .

وقد سجل مظهر شهادة طيبة للحضارة العربية ذلك قوله « أن حضارة العرب كانت أقل الحضارات تأثرا بالأساليب الرومانية واليونانية . ولعل السبب فى هذا أن مدنية العرب قد تأثرت بدعوة جديدة قامت على أساليب مغايرة تمام المغايرة لما سبقها من الأساليب . وليس لنا أن نبحث الآن فيما كان من أثر هذه الدعوة فى الحضارة العربية . وأن كان اجمال القول فيما ينزع بنا إلى الاعتقاد بأنها كانت ضرراً ، وأن ضررها قد ظهرت صوره بارزة فى كل صفحة من صفحات التاريخ العربى » .

ولم يعرف لإسماعيل مظهر مذهبا سياسيا واضحا فقد كان من قلة الـكتاب التى لم تتخذ الأحزاب سلما للظهور والشهرة . وان كان من المخاصمين للعقاد وطه حسين . وهو الذى أفسح للرافعى فى مجلته كتابة فصول جريئة فى نقدأدب العقاد تحت عنوان « على السفود » .

وقد اصطنع أسلوبا علميا أقرب إلى أساليب صروف وشبلى شميل وترجم كتاب نزعة الفـكر الأوربى فى القرن التاسع عشر .

ويؤمن اسماعيل مظهر بالتحقيق العلمى ولذلك فهو يقف موقف المعارض لـكثير من المتواترات التى وصلت إلينا معنعنة سواء فى السير أو الأخبار أو الأحاديث .

وقد أهدى اسماعيل مظهر كتابه « معضلات المدنية الحديثة » إلى والدته « إليك يا أماه أهدى هذه الصفحات . وهى أثر من آثارك وبقيه من فضلك . فإن كان فيها أثر من استقامة الفـكر أو علالة من طيب النزعة فتلك حشاشة من نفحاتك . وفضله من نفثاتك ، وإن كان فيها ما يذم فذلك من أثرى وفعل بيئتى .. إلى روحك الطاهرة بل إلى ذكرى الآلام التى تحملتها فى سبيل أن أكون رجلا ... »

ولاسماعيل مظهر مؤلفات متعددة منها « تاريخ الفـكر العربى » وهو مجموعة مقالات يرى فيها أن الفـكر العربى تطور بالترجمة والنقل من الحضارة الأوربية . وقد تضمن أيضا دراسات عن جابر بن حيان وأبو العلاء المعرى واحمد شوقى ومهيار الديلمى . وبشار بن برد .

وقد تناول فى مجموعة من المقالات دراسة ماهية التاريخ من الناحية الفنية والوصفية والفلسفية .

وفى مقالاته شىء عن احمد عرابى لا يقول فيه رأيا صريحا عن هذا البطل بل نجده متردداً بين أن يكون عرابى بطلا عظيما أو غير ذلك ويعلل تردده بقوله :

« ونحن بعد لما نبعد عن عهد عرابي إلا نصف قرن من الزمان ، فكيف يمكن أن نحكم على حادثات أعرق من هذا قدما وأشد ايغالا في أحشاء الزمن؟...»

وجملة القول أن اسماعيل مظهر كان من أبناء الجيل المتشكك المتردد الذي كان يضع أسئلة ولا يجيب عليها . شأنه في ذلك شأن هيكل وطه حسين وغيرهما من الذين تأثروا بمذهب ديكارت في وضع علامات استفهام تاركين للزمن فرصة الرد على تساؤلهم ؟

ويرى اسماعيل مظهر : أن الأديب المنقطع للأدب في عالم العربية لا وجود له في عصرنا هذا « فصاحب القلم توليفه عجيبه من شتى النزعات فهو أديب وسياسي وشاعر وقصاص وروائي وكاتب مسرحي ومترجم وناقد وصحفي وطالب مجد .

وهو كل شيء ولا شيء . وانما نرد للأدب اعتباره إذا تجردنا للأدب والأدب وحده ... »

* * *

ويرى اسماعيل مظهر أن أهم حادث أثر في مجرى حياته وفي أدبه هو دراسته لكتاب مذهب النشوء والارتقاء للدكتور شبلي شميل . وأن رسالة الكاتب كما يفهمها هي أن يرفع الناس إليه ولا يتدنى إليهم . والمرأة عنده موحية روحية وأن الله نور السماء والحب نور الأرض .

وقد بدأ اتجاهه الأدبي معجباً بأساليب العصر العباسي وقد انتحاها لتكون وسيلته إلى نشر حركة الفكر . وأصدر جريدة الشعب أسبوعية ١٩٠٨ وهو لم يزل طالبا . وأول كتاب أصدره هو ترجمته « لأصل الأنواع » لداروين ولا يزال أثره ثابتا في جميع نواحي تفكيره .

ويرى اسماعيل مظهر أن اللون الذى تخصص فيه هو المزاوجة بين الأدب والعلم . أى تطعيم الأدب بالعلم مع مراعاة الأسلوب العربى الصميم والعناية بالجملة العربية الصحيحة . وأحب كتبه إليه « ملقى السبيل فى مذهب النشوء والارتقاء »

ويقول أن هدفه الأدبى هو أن يصل حب الفن إلى القلوب ، ويتجه اسماعيل مظهر إلى كتابه أطراف من نشأته وقصة حياته بعنوان « البزرة والحصاد » كما يكتب مجمل أفكاره ومذهبه فى كتاب عنوانه « مرآة ذاتى » .

وأحب الكتب إليه هى تلك التى تعالج تاريخ الفكر الانسانى وهوايته المفضلة التفرد والسكون . وعنده أن الرحلات توسع الأفق وتمنح التجارب الحية . والسعادة عنده هى فن أسعاد الذات بالعمل على إسعاد الغير . والفضيلة والسعادة صنوان عنده .

أمير بقطر

تغلب على « أمير بقطر » طبيعة العلماء بالرغم من نفسيته الشاعرة وعاطفته المشرقة . ولعل أبرز ما يتميز به أدبه أنه يخلط العلم بالأدب فى مزاج جميل . تجد فيه العاطفة والعقل يوازنان المعنى وينتظمان الرأى . ولست أعرف كاتبا تناول نفسية المرأة والرجل والصراع بينهما كما تناولها أمير بقطر فى عشرات من المقالات .

وقد سافر أمير بقطر إلى العالم الجديد منذ أكثر من ثلاثين عاما . وهو من كتاب الهلال الدائمين الذين قل أن يتخلفوا عن الكتابة عن مسائل تتصل بالمجتمع والمرأة والحب والحياة يعرض فيها أحدث النظريات ويبسطها فيجعلها يسيرة سهلة قريبة من القارىء الوسط . وأنت تحس حين تقرأ له إحدى مقالاته أنه قرأ عشرات الكتب والابحاث مضافا إليها تجربته الخاصة .

وقد أغرم بالرحلة فأصبح لا يقبل الصيف حتى يكون قد أعد حقائبه لرحلة من الرحلات فى شرق الأرض وغربها . وهو حين يتحدث عن البلاد التى زارها يتحدث فى حنان وحب عجيب : نياجرا . البندقية . ملكة الأدرياتيك . بودابست . الدانوب الأزرق . هونولولو . كابرى . ستريزا فى إيطاليا . بروج فى بلجيكا .

... يقول « أن فى المصايف سواء على الشاطىء أوفى مرتفعات الجبال . مايغذى النفوس والعقول . ويهذب العواطف والأذواق . ويسمو بالأذهان والأجسام » .

وهو يصور ذكرياته فى رحلاته فيقول :

« يذكر كاتب هذه السطور فى الألب والتيرول والبرنات ليالى قضاها فى منزل صغير أو خان على ارتفاع ألفين أو ثلاثة آلاف متر . هناك يحس بذلك الصمت الرائع الذى لا يسمع فيه سوى خرير الحياة يتخلل البساط السندسى الذى يكسو كل شبر من مرتفعات الأرض ومنخفضاتها . وانسياب ماء النهيرات ومساقط المياه المتدفقة من قمم الجبال الشاهقة إلى بطون الوديان ... وإذا ما طلع النهار تخلل هذا السكون العميق جلجلة الأجراس المدلاة من رقاب الشجر بأنغامها الشجية المنوعة وهى ترعى بين الرياض والأدغال ...

وتحس بتجربته الصادقة حين يتحدث عن السعادة : هل السعادة هى الجاه أو الحب أو الشهرة أو الجمال ؟

« الجاه والشهرة سراب كاذب ينفخ صاحبه بنار الغرور والشهرة على حد قول من قال . طعام شهى فوق طبق متحرك . وما الصيت الذائع الافقاقيع سرعان ما تذهب فى الهواء والحصول عليها أسهل من المحافظة عليها . والجمال أشد تخديرا للنفوس من الخمر العتيقة التى تسكر شارب الكأس . والمرأة سرعان ما يفيق الرجل من سكرة بين ذراعيها فيجد نفسه فى قبضة يديها . والثروة كالعروش الواهية سرعان ما تمتد من جهاتها الأربع . والحب جواز سفر يخول صاحبه ركوب سلم متحرك بين الجنة والنار . والاستمتاع بالحياة لا يتوافر إلا بشىء واحد هو راحة الضمير أو السلام الروحى ... »

ويتحدث عن دقائق الفرق بين الصداقة والحب « الفرق بين الصداقة والحب » أن الصداقة تسود فيها عناصر الرزانة والطمأنينة وكياسة المعاملة فى حين أن الحب تسود فيه عناصر العنف والبهجة والخوف وفى حين أن الصداقة يغلب فيها الهدوء

والصفاء. فأن الحب تغلب فيه الزوابع والعواصف الصاخبة الجامحة والخوف. خوف الحبيب من أفلات شريكة من يده. »

وأمير بقطر كما وصفه بعض نقاده عظيم التواضع شأن العالم الحق. له إدراك دقيق عميق للحب والجمال المادى وله عاطفة دقيقة مرهفة منذ الصبا. وقد كتب عن روميو وجوليت فى كراسه الانشاء.

ومن كلماته التى تعطى صورة واضحة لشخصيته واتجاه تفكيره قوله [1] :

- أن أسهل الأشياء الوسط. ولكنه أقلها انتاجا وأسرعها زوالا وأخفها أثراً فى النفوس.

- الجاه والشهرة سراب كاذب ينفخ صاحبه بناز الغرور ويملأ جوه بالغيرة والحسد والأحقاد. والشهرة على حد قول من قال طعام شهى فوق طبق متحرك وهى والراحة ضدان قلما يجتمعان. وما الصيت الذائع إلا أنفاس الناس. والشهرة فقاقيع سرعان ماتذهب فى الهواء والحصول عليها أسهل جداً من المحافظة عليها.

- السعادة راجعة إلى الفضيلة. والفضيلة وسط بين طرفين أو نقيضين فبين النقص والزيادة توجد الفضيلة. وبين العنف والجبن توجد الشجاعة وبين الاسراف والبخل يوجد السخاء. وبين الطمع والخضوع يوجد الاعتدال. وبين الملق والاحتقار توجد الصداقة. وبين الحياء والوقاحة توجد الحشمة.

- أن آلام الحياة وأحزانها كالهوى داء تداوى به النفوس الصحاح وراحة البال الدائمة والاطمئنان المستمر وغيرها من الأحلام والأوهام مخدرات تستهوى بها الأجسام العليلة والنفوس السقيمة.

- أن الخالق أراد المرأة أن تكون أما للزوج والولد والانسانية أجمع. ولذلك

(١) من مجموعة مقالات فى إعداد مجلة الهلال.

خلقها كالسمكة فى بحر العواطف . شديد الدفء شفاف الماء واسع الأفق » .

* * *

من هذه اللمحات نرى صورة أمير بقطر وشخصيته . ونلمس عمق فهمه للحياة فقد طوف بالعالم ماطوف حتى وصل جزر هاواى بالمحيط الهادى ... وعب من الحياة حتى بلغ الغاية فى فهمها . وهو بالرغم من طابعه العلمى شاعر تنتفض نفسه للحسن وتتأثر للجمال منذ مطلع شبابه الباكر .

« ... كنت فى بدء حياتى المدرسية . وقد استيقظت مرة على غير عادتى . وإذا بصوت المؤذن الرخيم يشق عنان الفضاء ويخترق سكون الليل العميق فشعرت برهبة السكون ووحشة الليل . ومنذ ذلك الحين تنزع نفسى إلى الاستمتاع بهذا السكون الذى يجلله صوت المؤذن ويحمل لحنه العذب الذى يملأ الوجود . ويشعر السامع باللانهائية التى يمثلها سكون الليل » ...

وفى فصول الدكتور أمير بقطر التى تنشرها الهلال فى خلال سنوات طويلة عمق وأصالة . وخبرة وتجربة . ومع ذلك فهى مازالت منثورة فى أعدادها لم تجمع بعد فى كتب لتقرب إلى القارىء ولتكون أكثر نفعا وفائدة .

توفيق دياب

الخطيب الذى اتجه إلى الكتابة . والعالم الذى هجر الجامعة إلى الصحافة .. أول من درس « فن الالقاء » فى بلاد الغرب وأعجب بطريقة سعد فى الخطابة فكان يملى مقالاته ولا يكتبها . يمشى فى الغرفة جيئة وذهابا وهو يتخيل أمامه عالما غصت به مقاعده . وأسلوبه لهذا كله ضخم فخم بليغ وقد أوغل « توفيق دياب » فى الصحافة والسياسة والحزبية وكان عنيفا أغلقت صحفه واحدة بعد أخرى . وهو يصور هذه المرحلة الخطيرة من حياته التى تعد نقطة تحول ضخمة فيقول « ... هجرت مكانى من إدارة الجامعة واتخذت مكانى بين أصحاب الصحف وكلما أصدرت جريدة حجبوها بعد فترة تطول أو تقصر بين أسبوع وعام حتى انتهى الطراد إلى جريدة الجهاد فعاشت سنوات ثمان ... لقد توهجت فى صدرى شعلة من الحماسة للدستور عام ١٩٢٨ فطار بى وهجها من نعومة الوظيفة إلى خشونة النضال »

ويقول أنه وهو الخطيب الذى يلقى المحاضرات فى الأخلاق وروائع المثل الأعلى والحياة السامية ، ... « كان محالا على مثلى وتلك منارتى وقبلتى طيلة أيام العمر أن أكفر برسالة الأخلاق لأستبقى جريدة الجهاد . لم يكن إلى بقائها فى سبيل سوى التلوى والعوج ، سوى قبول المال . والمال الكثير . أن لم أقل الثراء العريض من جهات شتى يشترى التأييد بالمال الكثير ... » وهكذا انتهى به الأمر إلى إلى أن بادت جريدة الجهاد وهى فى أوج قوتها .

ولقد كانت مشكلة العدل الإلهى تحيره فى أول شبابه فماذا حدث له؟ ...
يقول « عملت فى نفسى هذه الشكوك وأنا فتى كثير اللقاء لعلماء الدين . وكثيرا ما كنت أفضى إليهم بما يخالجنى من ريب ، كنت أسألهم كيف يتفق والعدل الإلهى ما نشهده فى دنيانا من تفاوت بعيد جد بعيد بين حظوط الناس من صحة الأبدان وصحه العقول والأخلاق ومن عيشة كدره وعيشة راضية ، فكان أكثر الجواب أن جل شأنه لا يسئل عما يفعل ...

... لكن هذه الهواجس لبثت تهاجم فكرى بين حين وحين ، حتى اتفق لى الوقوف على مذهب التناسخ فابرأ فكرى من هواجسه واكد فى قلبى خالص إيمانه بالعدل الإلهى ... »

تلك أزمة مرت فى حياته ثم حلها الزمن ...

ولعل أزمة أخرى استغرقته وأفات منها أيضا ... تلك هى فلسفة الصوفية « ... أرادت لى مطالعاتى للامام الغزالى وفلسفة الصوفية فى القلب والروح . ومطالعاتى للفلسفة الهندية أن أترك أكل اللحوم وأجتزىء بأغذية النبات . وأن أنطوى على نفسى وعلى تلمس النور من ربى سنوات . أكثرها قضيته طالبا فى الغرب وبعضها قضية فى عزله عن الناس فى ريفنا العزيز ...

وقد بلغ به ذلك أن أقام سريراً فى بعض الحقول بعيدا عن القرية بعض الشيء . وجعل إلى جانبه منضده عليها كتب قيمة شرقية وغربية . « فكنت لا أفكر إلا فى الملأ الأعلى يقظا ، ولا أكاد أحلم إلا به نائما . وما أعجب ما أحسست به . أحسست أنى جزء لا يتجزأ من الكون كله وأن لى أخا فى كل نجم وكل كوكب إذا جن الليل ... »

واقد مر « توفيق دياب » فى حياته بكثير من الأزمات حتى أنه يطلق على

تجاربه فى هذا الميدان « فلسفة الشدائد » ... يقول « فلسفة الشدائدعندى أستاذ رهيب دروسه عملية وعصاه قد تكون مؤلمة دامية ، ولكنها مع ذلك عصا ربانية تمحص بوقعها جوهرنا وتنقيه . وتنفى عنه الزغل والدخل والأوهام . فقد أفقد ما أفقد من عرض الدنيا وعتادها وآمالها . ثم أرجع إلى نفسى فاجدها قرية تتعزى عما ضاع وتمتز بما بقى بالكرامة والشرف وبالمثل العليا فى السرور والعلن ... »

وتوفيق دياب من أبناء المدرسة المجددة التى ظهرت بعد ثورة ١٩١٩ مع حفاظه على بلاغه التعبير وجوده البيان . ولكنه يمتاز بطابع عجيب فى خطاباته وكتاباته فيه خيال عميق وسخرية حفيفة وتطلع إلى آفاق المجهول البعيد .

وهو من أبناء المدرسة الرومانتيكية المحبة للاستعراض البيانى . يبدو ذلك واضحا فى كثير من آثاره ومنها قوله ... « الشهر يونيو . والوقت صـــباح . والساعة منتصف السابعة . والسماء صافية الأديم . تتهادى فى أعطاف قبتها العظيمة الحانية سحائب صغار بيض . كأنها زوارق من فضه . تسير الهوينا فى بحر ساج من بحار المحيط . والنسيم الباكر عاطر بأنفاس الشجر والزهر . بليل بأنفاس النيل . فما افتح نوافذ مكتبى حتى تمتلىء الحجرة من نشر ذلك العبير . ويمتلىء به صدرى وتصحو نفسى من الفتور بعد أن صحا جسمى من النوم ... »

* * *

وتتلخص حياة توفيق دياب فى أنه عاد من انجلترا عام ١٩١٧ بعد أن أحرز إجازة علمية فى فن الخطابة وبدأ فى إلقاء محاضرات فى فن الإلقاء . وكتب « نظرات » فى السياسة و « لمحات » فى الأهرام ثم استقال من الجامعة عام ١٩٢٨ ليصدر صحف بلغت أثنى عشر نالتها جميعها يد التعطيل وبقى « الجهاد » ثمان سنوات حتى وأده صاحبه على حد تعبيره .

ومن الصحافة إلى السجن عام ١٩٢٣ حيث أمضى تسعة شهور . وهو فى خلال هذا الزمن الطويل من عام ١٩١٧ إلى اليوم وهو يكتب . لم يتوقف قلمه إلا فى خلال الحرب العالمية الثانية حيث اعتـكف فى الريف يقرأ ويدرس ويتأمل ثم عاد بعدها إلى المنبر والـكتابة والخطابة . والخط البارز فى حياته الفـكرية والوطنية هو الشعور الدافق الذى لايكتـُب بل يملى لأنه إلى الخطب أقرب منه إلى الـكتابة . فيه ذلك الجيشان القوى والعاطفة الدافقة . وهو مشغول دائما بالحديث عن الأخلاق والمثل العليا وفيه نزوع إلى الصوفية وعنده ثروة لفظية ضخمة .

يقول بعد عودته من لندن «عدنا[1] من معاهدكم ومجامعكم ياجون بول لاأوعيه من فخار صبت فيها علوم ومعارف بل عدنا مشاعل حرارتها من القلوب وضوءها من الرءوس — عدنا نحمل إلى أمتنا رسالة الحياة» ويقول بعد خروجه من السجن «جنيت من سجنى رجحان الجوهر على العرض . واللباب على القشور . فأصبحت لا أبالى ماذا ارتدى ولا كيف أنام» ويقول حرية المرأة «هى لعقلها الفـكر ولعواطفها المتدفقة بأنبل المشاعر المتحفزة لأبر الأعمال .»

وهو ينصح الشباب بأحياء النزاهة وتجنب المخدر القوى وايثار حياة الـكفاح والأقدام والإيمان بالعلم كوسيلة وأن للحياه غاية .

ويقول أن الحياة علمته أشياء كثيرة : «لوعلمت فى شبابى الأول قيمة الثقافة لما أنفقت عمرى فى قراءة التافه المبتذل أن لم يضر فلا ينفع .

ولو أيقنت يومئذ بما أوقن به اليوم من أن حضارة العصر حضارة علم لسلـكت نفسى فى زمره طلاب العلوم .

---

(١) من كتابه «لمحات» .

« ... وعلمتني الحياة أن أزن النجاح بوسائله لا بثمراته .

« ... وعلمتني الحياة أن أزن الناس بما تحتوي أنفسهم لا بما تملك أيديهم أو تحتوي خزائنهم .

« ... وعلمتني الحياة أن أتحسس في الناس معادن النفوس فمن كانت نفسه من خزف لم أقومها إلا بقيمة الخزف .

« ... علمتني الحياة أن أقيس أصحاب المناصب والمراتب ، لا بعلو الكراسي ولا بسعة النفوذ . ولكن بعلو الهمة وسعة الأفق ...

عباس حافظ

انصرف « عباس حافظ » عن عالم الأدب فترة طويلة تربو على العشرين عاما ثم عاد مرة أخرى ليكتب مذكرات وذكريات فى مجلة الرسالة الجديدة . وهو من الكتاب الذين يحفلون بالأسلوب لأنه تلميذ مدرسة « البيان » التى كان يصدره المرحوم عبد الرحمن البرقوقى . وكان زميلا لمحمد السباعى وغيره من أبناء المدرسة التى عرفت بتقديرها لجزالة الألفاظ .

وعباس حافظ من أدباء الجيل الذى ظهر بعد ثورة ١٩١٩ والذى شارك فى صراع الحياة السياسية والأدبية فى مصر . ثم لم يلبث أن اتجه إلى الترجمة فبرع فيها وتخصص لها وترك الأدب إلى العمل الصحفى ولم يكن فى استطاعته أن يتخذ الأدب مهنة يتجرد لها لأن الأدب لم يكن يعطى المورد الذى يقيم الأود .

« ... ما كان الأدب — ولا هو اليوم — ولن يكون على الأيام مهنة » ولم يكن محمد السباعى ولا المازنى ولا العقاد ولا شكرى الشاعر ولا أنا أدباء أصحاب مهنة . ولم يكن الأدب يوما مهنتى ولو اتخذتها كذلك لمت من الجوع . ولكنى كنت مترجما فى وزارة الحربية أترجم إلى اليمين دور وكتفا سلاح وأربعات تشكيل . أما الذين ارتضوا الأدب مهنة — لأنهم لم يكونوا يملكون شيئا سواه — فقد عاشوا فى أيامنا الماضية شرداً هيما منكودين بل لقد ظلت قلوبهم كذلك إلى قرابة عشر سنين خلت . ذلك لأن الأدب لم يكن مهنة فى ذاته ولكنه

كان هبة واستعداداً فطريا ونزعة غلابة فى كل ما يأتى منها كأجر يذهب فى سبيل تحميسها ... » .

ومما يرويه عباس حافظ عن نفسه أنه كان صديقا لمحمد السباعى والبرقوقى فقد كانوا يلتقون كل يوم يضحكون على « طوب الأرض » فى كل مجلس « وعلى بعضنا البعض فى كل مفارقة تبدو منا . أو تصرف غريب نتصرفه . وكانت أكثر تصرفاتنا فى الواقع دليلا على شذوذ وهوس وجنون » .

ولد عباس حافظ عام ١٨٩٦ . وقد تتلمذ فى سن السابعة عشرة على صادق عنبر الذى صاحبه فى عمله طويلا . وعرف فى جريدة العلم أمين الرافعى وكان تربا لطائفة من أعلام القانون والفكر ؛ عبد المجيد نافع وأحمد فريد رفاعى وعلى بدوى ومحمد عبد الله العربى .

وأول مقال كتبه كان فى جريدة العلم بامضاء « صاحب مبدأ » ويقول أنه عاش صاحب مبدأ فلم يصب منه إلا المكاره ولا ذاق منه غير المر والصبر .

« ... ولو أنى درت مع الأهواء حيث دارت وتقلبت مع الناس كما تقلبوا وعرفت كيف أصانع وأتملق وأنافق وأخادع لما بكت العين ولا كان الحال حالى » .

وقد عاش عباس حافظ « يمزج مادية الحياة بخليط من الخيال الذى لا يجسم الأشياء تجسيما ولكن يصغرها وينقصها من أطرافها وحواشيها ، بشىء من الفلسفة يملل كل هم ويسكن الألم ويجعل الحياة تسير فى رفق » .

وقد عرف الحب صغيرا وازدادت معرفته به كبيرا واتسعت آفاق الخبرة به على طول السنين « لأنه لم يعد إحساسا فحسب بل أصبح أيضاً تفكيراً وفلسفة ومنجاه وسلوه وشباب قلب وحده خاطره » ومما صور به عاطفته قوله :

« وجدتنى فى بداية الصبا أحب واكتب واقرأ وارتع والعب . وقد بادرنى

الحب صغيرا قبل أن أدرك الحلم فنشا عاطفة ولم ينشأ غريزة . وحينما جاءت الغريزة وجدت العاطفة قد سبقتها فلم تضل . وبقى الحب معى رفيقا تطيب رفقته . وأنيسا تحلو صحبته . ولا تغالبه الغريزة يوما إلا غلبها . وظل قوياً على الكبر لأنى لم أرهقه فى الشباب ... »

وقد صور عباس حافظ العصر الذى عاش فيه بقوله : كان العصر الذى عشنا فيه لا يشتغل فيه بالنشر أو التزام الكتب غير بضعة سريحة أو قلة من المطابع علكها أفراد كانوا من قبل صفافين ثم اشتروا كم صندوقا من الحروف وبدأوا يطبعون الكتب بالتقسيط فيشترون الورق بالدين ويدفعون المؤلف أو المترجم دفعات من ريال فطالع . »

وهذا القول يصور مدى ضعف أجور الكتاب فى ذلك الوقت حتى أن عباس حافظ فيما يروى أعطى أحد هؤلاء ، ويدعى « حمدان » كتابا عن حياة « سعد زغلول » عائة وخمسين قرشا أخذها على ثلاث مرات ولكنه يقول أن قلة الأجر لم تكن فى ذلك الوقت حطة « لأننا لم نكن نعد الأدب مهنة كما نصفها فى معرض الاعتزاز بها » .

ومما رواه أيضا أن الكتاب القدامى — أمثاله — كانوا يعيشون على باب الله إذا لم يسعفهم الحظ بوظيفة أو شغلة أخرى أو عمل مستمر فى الصحف « ولم تكن هناك أجور مقررة فكل أمرىء واجتهاده » .

ويرى عباس حافظ أن هناك فارقا بين الكاتب والأديب « فالكاتب لا يعتمد على أسلوب خاص يصور شخصيته ويمثل روحه وذاتيته ولكنه يعتمد على مدى التعليم الذى تلقاه . أما الأديب فذلك كله مطلوب ليكون إلى جانب الخاصية الأولى فيه وهو الأسلوب لأن حياتها كلها فيه وروحه كلها سارية إليه . والذين يستهينون

بالأسلوب لا يعرفون للزهر أرجا ولا للنغمة الموسيقية وزنا ولا للجمال عندهم قيمة ولا للفنون مكانا ... »

* * *

ويتميز عباس حافظ بأنه تخصص فى الترجمة من الأدب العالمى ثم انتقل إلى ترجمة التلغرافات التى كانت تحمل خطب تشرشل أيام الحرب العالمية الثانية . ثم أنشأ مدرسة للترجمة وأخذ عنه الكثيرون وأدخل تجديدا على لغة البرقيات فرفع منها لغة « أكلونى البراغيث »

وقد ترجم عن شكبير ودستوفسكى وطاغور .

فاذا أردنا أن نتحدث عن شخصيته ألفيناه رجلا وفيا طيب القلب لا يميل كثيرا إلى الصراع الأدبى وينفر عنه ويرغب فى السلام ويحرص عليه . وقد حاول أن يبعد نفسه عن أشواك الحياة ولكن هذه الأشواك سمت إليه وشاكته ... يقول « كانت غلطتى الوحيدة اننى اقتصرت على الاستمتاع بالدوح الذى كان يبدو لعينى فى الجانب المشمس من الحديقة وتحاميت الجانب الآخر القاتم الذى يغمره الظلام فكنت أخشى الخيبة وأشفق من الفاقه وأوجل من الحزن وأخاف الألم والهم والندامة ... ولكن الأيام أرغمتنى على مذاقها . والدهر أكرهنى على تجربتها واحدة بعد أخرى ... »

ولعل من أشق الأزمات النفسية التى مرت به وفاة ابنته « نبيلة » التى كان يحبها أعنف الحب ...

« منذ خمسة عشر عاما ذهبت ابنتى نبيلة فى سفرة أبدية ليس منها اياب

وما نسيت يوما قبل ذهابها ولا غاب عن خاطرى يوما بعد رحيلها أن الحياة تافهة وأن الآجال مكتوبة وأن الحزن لا يجدى . ولكن ذلك كله لم يصرفنى عن التفكير فيها صبحاً ومساء بل أنى لأتمثلها فى وجه كل فتاة وبسمة كل عذراء ... »

ويقول عباس حافظ أنه تعلم على صادق عنبر وكتب فى العلم والشعب واللواء . إن أول أجر أصابه من الاشتغال بالأدب كان جنيها وأكلة لحم مسلوق . ومما يذكره أن العقاد كان يكتب فى البيان بالملزمة أى ثمانى صفحات لقاء جنيه أو جنيه ونصف على الأكثر .

عبد الرحمن شكرى

لا أريد أن أكرر هنا ما تناولته فى بحثى عن « مكان عبد الرحمن شكرى فى الأدب العربى المعاصر[1] » وإنما أحب أن أرسم صورة لشخصية هذا الرجل « المظلوم » الذى حيل بينه وبين أن يأخذ مكانه الحق فى الأدب . والذى كان ضحية صديقيه المازنى والعقاد .

ولو أوتى قلما جارحا كقلم الرافعى لما استطاعا أن ينتزعاه من مكانه . ولكنه من ذلك النوع الذى يسرع إلى الانطواء عندما يرى العواصف .

ولكن عبد الرحمن شكرى الشاعر هو الذى انطوى بعد طبع دواوينه الأولى . أما « شكرى » الكاتب فقد ظل يظهر ويختفى على طول هذه الفترة كان يكتب فى المقتطف بتوقيع « ع . ش » ثم كتب فصولا فى الهلال . ثم نشر بعض الفصول فى الرسالة إلى عام ١٩٣٦ .

ومن مجموع هذه الفصول تحس بالرجل الذى يريد أن يتنفس . فيحاول أن يصور هذا فى ابحاث « موضوعية » يستطيع من يتأملها أن يجد فيها نفسه وأحاسيسه وما يريد أن يقول .

والقارىء يستطيع أن يصل إلى ما يدور فى أعماق « شكرى » إذا قرأ له قوله « ... أن النجاح فى الحياة يستلزم طبائع لا يستقيم إلا بها . وأنه ليخيل إلى

(١) فصل آخر عن شكرى فى كتابى «نزعات التجديد فى الأدب العربى المعاصر» .

أحيانا أنه ليس عندى هذه الطبائع مثل التمليق والرياء والنفاق والضعة . والاهتمام بالأشياء الصغيرة الحقيرة « والمكر والتطفل وارتفاق الفرص الوضيعة . واتخاذ كل وسيلة مهما كانت دنيئة لاكتساب ثقة الناس . والإلحاح فى طلب المنافع منهم . وإظهار الحاجه إليهم . والتذلل لهم . والتهافت عليهم . واخفاء مقابحهم مهما عظمت . وإظهارها فى مظاهر المحامد والفضائل » ... وهو فى مقال آخر يقول ...

« إن للنفس عامية . مثل عامية العقل . فمن أراد أن يكون عامى النفس كان خليقا به أن يزجيها إلى التماس جلالة الحياة ، فإن للحياة جلالة لا يفهمها قتلى المظاهر الذى يحقرون أنفسهم بمزاولة الحقير .

... نحن نرث الزمن والزمن يرثنا . وانما الخلد أن يضيق المرء إلى أن يحمل روح الحياة الخالدة بين جنبيه . فهو من أجل ذلك معبد من معابدها ...

ومن هذا المعانى جميعها يمكن فهم نفسية الرجل الذى أحس بالظلم فحول معاركه إلى دراسات نفسية ونقلها إلى مباحث قائمة على أصول من العلم . وهو فى هذا لم يواجه خصومه بالنقد أو السجال أو الهجاء كما فعل الأدباء المعاصرون . ولكنه تناولهم فى مثل هذه المقالات حتى لتكاد ترى صورهم وراء هذه التعبيرات

ولا شك أن هذا الاتجاه من شكرى يصور مدى إيمانه ونفسيته وشخصيته .

ولعل جرأته فى تصوير حياته عارية فى كتابه «الاعترافات» قبل أن يفعل ذلك أى من أدباء مصر ، هو عمل آخر يجرى فى اتجاهه النفسى الصريح ... وقد نشره فى الجريدة ١٩٠٩ — ١٩١٣ وكان فى سن العشرين .

ولقد كان شكرى يستطيع أن ينزل إلى الميدان السياسى ويحرز نصراً شبيها

بالذى أحرزه زملاؤه ولكنه نأى من أسلوب الحزبية وواجه الهجوم المجحف بنفس قادرة على الصبر والتجاهل .

وقد وُصف شكرى بأنه سوداوى النفس . ومرجع ذلك عنده حياته الاجتماعية وظروفه التى حالت بينه وبين مواجه الحياة بالابتسام .

« ... كنت أتمنى أن أقطف أزهار الحياة كلها . وأن أخرج من الحياة عطرها . فان للحياة عطرا لما لازهر عطرا . كنت أتمنى أن أمتع نفسى بكل شىء فى هذا الوجود وفى كل وجود تتصوره وتتوق إليه النفس . كنت أتمنى أن أعانق الوجود وأن أقبله قبلة أسقى بها كل ما فى روحه من الجمال والجلال ... »

وفى كلام آخر له يتمنى لو أن يكون طليق النفس مشرق العاطفة[1].

« ... من لى بساعة أقف فيها بين الحياة والموت . والبقاء والفناء . وأنا قوى العضد لا أبالى الأقدار والأخطار . الهو بالفناء والموت واسخر من الحوادث والمصائب .

من لى بساعة أحمل فيها روحى فى يدى كالرمح أرمى بها كل مرمى وأطعن بها كل مطعن . من لى بساعة أصالح فيها الحياة بيد والحمام بيد وأنا قوى مثل الحياة قوى مثل الممات . مستقل عن الحياة والممات ... » ولعله يصور نفسيته وسوداويته فى قوله .

« كنت فى صغرى كثير الاعتقاد فى الخرافات . التمس العجائز من النساء فاسمع قصصهن الخرافية حتى صارت هذه القصص تملأ كل ناحية من نواحى عقلى . وحتى صارت قصراً كبيرا ملؤه السحر والعفاريت . وحتى صارت العفاريت حولى تحل حيث أكون ... »

* * *

(١) من مقالات له فى الرسالة الجديدة عام ١٩٥٦ / ١٩٥٧ .

ولد شكرى عام ١٨٨٦ بالاسكندرية ونشأ فى بيئة فيها شعر وأدب ٠ وفى مكتبة أبيه وجد ديوان ابن الرومى وابن الفارض والبهاء زهير ٠ وقرأ «الوسيلة الأدبية» التى صنفها الشيخ المرصفى من شعر العرب . وقرأ الشريف الرضى وأبا تمام وأبى نواس والبارودى ورأى عبد الله نديم إذ كان صديق والده . وتعلم فى مدرسة المعلمين بالقاهرة وكان ينظر إلى الشعر على أنه أدب ترف وزخرف وتشبيهات فلما سافر إلى أوربا للدراسة والتحصيل أوغل فى دراسة الأدب الانجليزى فاتسعت ثقافته وتحول تفكيره واتجه إلى الشعر الفكرى والفلسفى وبدأ ينظر إلى الأدب نظرة جديدة .

وقد اشتغل بالتعليم بعد عودته ثلاثين عاما : مدرسا وناظرا ومفتشا وكان خلال حياته بعيدا عن الظهور . غير محب للشهرة ٠ وقد استقال من الوظيفة ورحل إلى بور سعيد حيث اعتكف هناك منذ عام ١٩٥٠ وفى أكتوبر ١٩٥٥ انتقل إلى الاسكندرية وأقام فى سيدى بشر وبلغ السبعين ولم يتزوج بعد ٠ وقد أصيب بشلل أعجزه عن الحركة والكتابة ٠ وأسلوبه فى النثر غير واضح المعالم ٠ وإن كان المعنى أغلب فيه على اللفظ وكان يكتب رسائله بيده اليسرى وهو قريب من أسلوب أحمد أمين .

وقد شهد معاصروه لأدبه فقال العقاد أن شعر شكرى لا ينحدر انحدار السيل فى شدة وصخب وانصباب ولكنه ينبسط انبساط البحر فى عمق وسعة وسكون .

... وفى شعره روح الرجولة ما يكظم الأهواء ويكفكف من غلوائها فلا ينطلق إلا بما ينبغى لها من التجمل والثبات وقال الدكتور أبو شادى : لقد عنى شكرى بالجانب الفكرى التأملى وبتجديد ما خلفه أمثال المعرى وابن الرومى

وملتون وبوب وبالمزاوجة بين هذه التأملات الفكرية والنفسية والتأثرات الوجدانية والانطباعات الصوفية والعاطفية والطبيعية .

وقال الدكتور مختار الوكيل : أن شاعرية شكرى تحتضن الحياة جميعها وتصور الوجود بأسره لأنه شاعر عبقرى لا يقف دون التعبير من شعوره حيال الكون كله » .

وقد أصدر شكرى دواوينه : ضوء الفجر ١٩٠٩ . الجزء الثانى ١٩١٣ الثالث ١٩١٤ . الرابع . الخامس ١٩١٦ . السادس ١٩١٨ . السابع ١٩١٩ .

وفى النثر أصدر الصحائف ١٩١٨ والاعترافات وحديث ابليس والثمرات ١٩١٦ . ولم يطبع شكرى مؤلفاته مرة أخرى بعد طبعتها الأولى .

وحديث ابليس يدور فيه الحديث بين ابليس ومفكر من الناس وصفه بقوله : هذا الكتاب فيه شيء كثير من البحث النفسى والتساؤل والشك والسخر الذى هو محرك يحرك النفوس ويوقظها فهو يعبر عن تلك الحياة التى فى كل نفس .

ولعل أبلغ تصوير لدقة إحساس شكرى قوله « إن عبادة الجمال تطلق المرء من عقال التحيز والغباء وضيق الذهن وتفيض على روحه نوراً يضىء له أسرار الحياة .

ومن كلماته التى يمكن أن توجه على أنها كشف موضوعى لآلامه وموقفه من خصومه قوله « لا يحسد المرء المال الموروث قدر حسده العقل الموروث . ومما يحير الألباب أن ترى انسانا فقيرا لا حول له يحسد على صفات العبقرية التى هى فيه أو التى يحسبها الحاسد من صفاته أكثر من حسد الحاسد للغنى . يقول شوبنهور أن حسد المرء للشىء يكون على قدر يأسه من نيل مثله . وهذا اليأس سبب من أسباب الحسد » .

عبد الرحمن الرافعى

المؤرخ الجرىء[١] . الذى غلب عليه الحياء فلم يذهب به مذهب الاعلان عن نفسه سنوات وسنوات فظل يعمل صامتا أكثر من ثلاثين عاما قدم خلالها تاريخا كاملا لمصر فى أكثر من ٣٠ مجلداً لا يمكن لـكاتب أن يعرض لمسألة من مسائل هذا التاريخ دون أن يجد فيه مرجعه .

وقد بذل الرافعى فى سبيل تحرير هذا التاريخ من الجهد والوقت زهرة شبابه فهو بحق « جبرتى » القرن العشرين . وفى سبيل كتابة هذا التاريخ ضحى الرافعى بكل شىء فلم يطمع فى معونة أحد . أو يتطلع إلى أية غاية . واستطاع بفضل الجرأة النفسية أن يكتب تاريخ اسماعيل فى عهد فؤاد . وتاريخ فؤاد فى أيام فاروق وأن يواجه اخطاءهما مواجهة صريحة ولعله المؤرخ الأول الذى كشف عن حقيقة دور سعد زغلول بعد أن كان فى نظر الـكثيرين قديسا وبطلا كبيرا . كما صور بطولة عرابى فى وقت ما كان أحد يجرؤ على وصفه بالبطولة ولم ينس فى نفس الوقت أن يحصى عليه اخطاءه وهو فى عرضه للشخصيات والأحداث فى خلال هذه الفترة الطويلة من تاريخ مصر كان غاية الانصاف والسداد على نحو قوى مجرد من أى نزعة تهدف إلى إنصاف الحزب الوطنى الذى هو عضو فيه .

* * *

نشأ فى بيئة الدين . فلما شب اتصل ببيئة مصطفى كامل وبدأ يجرب خطواته

(١) اقرأ فصل « المؤرخ الجرىء » فى كتابى (جولات فى الأدب والفن والحياة) .

فى التحرير والكتابة وشارك فى الحركة الوطنية واعتقل . ودعا إلى التعاون وساهم فى انشاء النقابات .

ثم اشترك فى الحياة النيابية . فكان معارضا نزيها وكسب سمعة طيبة جعلت مكتب المحاماه زاخراً مما كان له أحسن الأثر فى تفرغه لكتابة تاريخ مصر القومى ثم اختير وزيرا الفترة قصيرة . وفى سنوات مابعد ثورة ١٩٥٢ اختير نقيبا للمحامين .

وتحس وأنت تقرأ للرافعى أو تتصل به من قريب بروح الدين ممثلة فى خلقه وحياته وزهده فى مغريات الحياة واستقامة طبعه ولعل هذا يرجع إلى البيئة الأولى عندما كان والده القاضى الشرعى يوقظه قبل الفجر ليؤدى الصلاة فى مسجد سيدى ياقوت العرشى بالأسكندرية وقد صور هـــذا فى مذكراته المطبوعة « ... كنت من ناحيتى مرهف الحس من الوجهة الدينية والروحية افهم من هذه الشعائر والتعاليم أنها اتجاه من النفس إلى الله واستشعار بالخشوع له والعمل على اكتساب رضاه . وهذه الأحاسيس كان لها دخل كبير فى تكوينى الروحى وفى حياتى الوطنية . لأننى كنت ولا أزال أرى فى الالتجاء إلى الله والاعتماد عليه القوة الروحية التى تعود النفس الصمود للعقبات والشدائد ... »

وفى بيئة كلية الحقوق بعد أن رفض رغبة والده فى إدخاله الأزهر — تتلمذ على مصطفى كامل . وأحب « اللواء » واعتبره المدرسة التى تلقى عليها مبادىء الوطنية . والتقى عبد الرحمن الرافعى بمصطفى كامل لأول مرة فى فبراير ١٩٠٦ وشعر بتأثيره الروحى ينفذ إلى أعماق قلبه . « وصار بمثابة أبى الروحى » ثم اتصل بمحمد فريد وعمل « تحت لوائه سنين عديدة » ولم يلبث أن بدأ يجرب خطواته الأولى فى عالم الصحافة فنشر أول مقال له فى الصحف عام ١٩٠٨ بعنوان « تبدد الشعور الوطنى وتجمعه » وفى الوقت الذى تخرج فيه ليعمل محاميا كان يعمل بالصحافة محرراً باللواء مع محمد فريد .

كما كتب عن « آمالنا فى الدستور » ورد على تقرير السير الدون غورست المعتمد البريطانى . ثم رأى أن يشتغل بالمحاماة على أن يكتب فى الصحف ما يشاء دون أن ينقطع لها . وقال أنه أدرك مع الزمن أن هذا الاتجاه أسدى له أعظم خدمة ..

ثم سافر مع فريد إلى أوربا (سبتمبر ١٩١١) وكان لمصاحبته أثر كبير فى نفسه مما زاد الصلة الروحية بينهما . وقد كتب ملاحظاته وخواطره فى السفر.

وكتب عن التعاون عام ١٩١٤ وساهم فى تأليف بعض النقابات الزراعية وعندما اندلعت ثورة ١٩١٩ كان محاميا فى المنصورة وقد اشترك فيها مما أدى إلى اعتقاله (١٩١٥ — ١٩١٦) .

وبعد الثورة اشترك فى الحياة النيابية . وكانت له فيها مواقف قوية واضحة فقد كان أول نائب واجه سعد زغلول بالنقد الشريف . وقد قاد المعارضة دائما واحتمل فى سبيل ذلك متاعب كثيرة ، يقول : كان اتجاهى فى المعارضة سلميا قويما ولكنها مع ذلك جلبت على متاعب وعداوات كثيرة ظهر أثرها على تعاقب السنين .

ووصف سعد فى مذكراته بقوله « ... كان سعد لا يطيق المعارضة ويحنق عليها لأنه لم يكن يريد من النواب إلا مؤيدين له . وقد زاد حنقه على حين بدرت منه كلمة بجلسة ٢٤ مايو ١٩٢٤ عدت عليه خطأ سياسيا كبيراً . ذلك انى وجهت سؤالا إلى وزير الأشغال طلبت فيه العمل على وقف المشروعات التى كان الانجليز يقيمونها فى الجزيرة بالسودان .

وقد أجاب مرقص باشا على سؤالى إجابة غير مطمئنة وحصل نقاش بينى وبينه . وتدخل سعد فى النقاش موجها الكلام إلىّ « هل عندكم تجريدة » وأراد بهذه

الـكلمة أن يظهر استحالة وقف هذه المشروعات وكانت سقطه كبـيرة اتخذها خصومه مادة للطعن عليه . أما أنا فلم يزد تعليقى عليها على قول « كنا ننتظر أن نسـتمد الأمل من كلمات دولة الرئيس لا أن نسمع كلمات تبعث اليـأس فى النفوس ... »

ومما يؤسف له أن عبد الرحمن الرافعى أقصى عن الحياة البرلمانية بعد أن جاهد فى سبيل عودة الحياة الدستورية إذ أصر الوفد بعد الائتلاف على أن لا يترك له دائرة « المنصورة »

وقد صور الرافعى اتجاهه إلى كتابة التاريخ القومى فقال :

فـكرت منذ عدة سنين سبقت عام ١٩٢٦ أن أضع تاريخا للزعيم مصطفى كامل باعتبار أنه باعث الحركة الوطنية الحديثة . ولـكنى رأيت أن تاريخ مصطفى كامل يستتبع الـكلام فى ظهور الحركة القوميـة والتطورات التى تعاقبت عليها فأخذت أدرس الأدوار التى تقدمت عصر مصطفى كامل لأقف عند حد يصح اعتباره مبدأ الحركة القومية ... »

وانتهى إلى أن أول دور من أدوار هذه الحركة هو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر . وكان قد بدأ عام ١٩١٤ « يدون مذكرات عن حوادث مصر المعاصرة تـكون مادة لى عندما أؤرخ الحركة القومية . وقد ضبطت هذه المذكرات قبل اعتقالى ثم أعيدت إلى بعد الافراج عام١٩١٦ ». وقد رأى بعد أن انقطع عن الحياة البرلمانية أن يوفر هذا الوقت للانصراف إلى هذا العمل . وقد اقتضى منه هذا العمل التفرغ له تفرغا شاملا نظراً لأن تاريخ هذه الحركة يكتنفه كثير من الغموض .

« وقد تشعبت أمامى المراجع التى تبلغ مئات الـكتب والمؤلفات والتقارير

والمذكرات وما إلى ذلك فى كل مرحلة . وكان لابد لى أن أدرسها كلها وهـذا يقتضى فوق الجهد والعناء صبرا وجلدا » وظهر الجزء الأول من هذا التاريخ أول يناير ١٩٢٩ وقد سلخ ثلاث سنوات فى إخراجه . وانفق فى تأليف كتاب الثورة العرابية جهدا ضخما حيث اقتضاه التحرى عن حقائقه أن يراجع المذكرات المخطوطة لعرابى وكل ما كتبه أو قاله هو وزملاؤه ومعاصروه ممن اشتركوا فى الثورة أو ساهموا فيها . وأمضى خمس سنوات فى تأليف كتابه «ثورة ١٩١٩» .

ويحكى تجربته عن العناء الذى صادفه فى كتابه تاريخ العصر الحاضر فيقول « العناء الذى صادفته فى هذا الـكتاب كان عناء معنويا . فإن الـكتابة فيها تمس أشخاصاً تربطنى ببعضهم صلات الود والصداقة . أو أكن لهم فى نفسى شعور التقدير والرعاية .

« ... هل على أن أضحى بهذه الاعتبارات عند ما أكتب عن أشياء تمس أولئك الأشخاص . وقلت أن هذا ولا ريب واجب المؤرخ . وقد تدبرت هـذا الحرج كثيراً وانتهى بى البحث والتفـكير إلى أنه لا يجوز لمن يتصدى لـكتابه التاريخ أن يدخل عنصر المجاملة فيما يكتب وكل ما يملك إذا أراد أن يجامل أن يدع الفترة الحرجة ويرجىء تاريخها إلى حين ... » .

واعترف الرافعى بأن كتبه لم تقابل فى السنين الأولى مقابلة حسنة — لولا ماوهبه الله من الصبر والاحتمال . وبالرغم من الجهد فان هذه الـكتب لم تلق الإقبال ولا أقول الرواج الذى كان ينتظره .

« وكنت أسائل نفسى أمام الـكساد الذى قوبلت الحلقات الأولى من المجموعة واستمراره سنوات طويلة : ألا تساوى هذه الـكتب بعض القصص والروايات التى يقبل عليها الجمهور فى بلادنا ... وبالرغم من ذلك الـكساد تابعت إخراج الحلقات

التالية وكان لى من إيرادى فى المحاماة ما عاوننى على سد العجز فى النفقات[1] » .

ولقى عبد الرحمن الرافعى عنتا فى مواجهة اغراء « القصر الملكى » فقد نصحه البعض وهو يكتب تاريخ اسماعيل أن يرجع إلى وثائق السراى ورأى هو أنه إذا أكثر التردد على مكتبه القصر الملكى فقد لا يكون من « الذوق » بعد ذلك أن يكتب عن إخطاء اسماعيل . ورفضت وزارة المعارف كتابه عن اسماعيل « لأن به مآخذ قوامها أنه تحامل على الخديو اسماعيل ما يحول دون إيداعه مكتبات مدارس الوزارة » .

ولم يبدأ الاقبال على كتبه إلا عام ١٩٤٣ أى بعد سبعة عشر عاما ولا يستطيع كاتب تناول الحركة الوطنية فى مصر منذ ثلاثين عاما أن ينكر فضل كتب عبد الرحمن الرافعى .

* * *

وقد تحدث عبد الرحمن الرافعى عن حياته وشخصيته فقال « أن عدم خبرتى قد أقرن به عيب ركب فى طبعى ولم أستطع علاجه أو التغلب عليه وهو « الحياء » وأنا أعرف جيدا أن الحياء ضعف فى الانسان وعقبة كبيرة فى سبيل تكوين الثروة . ولكنى اعترف بأنى لم أوفق فى علاج هذا الضعف لدرجة أننى اقتنعت بأنه من العناصر الأصيلة فى تكوينى .

وقد سعيت فى ألا ينقلب الحياء عندى إلى ضعف فى الارادة وهذا ما نجحت

(١) قال الرافعى فى حديث له مع مجلة الإذاعة : لقد ألفت فى حياتى ٢٠ كتاباً من عام ١٩١٢ إلى الآن وظلت كتبى ٣١ عاماً بلا قراءة كنت أطبعها وأوزع بعضها هدايا على الزعماء وأحتفظ بالباقى آقرأه وحدى . كانت الحسرة تفرى قلبى وأنا أنتج ولا أحد من يقرأ إنتاجى . وقامت الحرب العالمية الثانية ويبدو أن أزيز الرصاص وفرقعة القنابل فتحت الأذهان لمركز مصر التاريخى فانهال القراء على مؤلفاتى .

فيه . وقد اقتضى منى هذا السعى مجهوداً باطنياً كبيراً حتى اطمأننت إلى عدم طغيان الحياء على الارادة ... » .

ويقول فى اعترافاته « ... أكبر خطأ ارتكبته فى حياتى أننى لم أكون لنفسى ثروة ثابتة . وكان ذلك فى استطاعتى لو وجهت نفسى هذه الوجهة . ولكنى أهملت هذه الناحية من الحياة . وهذا خطأ لا ريب فيه ، ولقد شعرت بهذا الخطأ فى مقتبل حياتى .

... ويقول : من اخطائى فى الحياة أننى أحسن الظن بالناس أكثر مما يحب . وأن راحة النفس هدف جوهرى فى الحياة . وحسن الظن بالحوادث مرادف للتفاؤل ... »

وتحدث عن الحب فقال « أقر على نفسى بأنى تورطت مرة فى الحب عن طريق الحياء . وكان ذلك فى باكورة الشباب وأنا بطبعى مرهف الحس . وهذا باب ينفذ منه الحب فى يسر وسهولة . ولقد أحببت حبا عاطفيا روحانيا . ولكنى أدركت مع الأيام أن الحب أمر متعب لا لزوم له ولا فائدة منه فتخلصت منه وكان للحياء دخل فى نهايته كما كان له أثره فى بدايته » .

وبعد فالرافعى رجل فيه أيمان وعناد وصمود لما يعلم أنه الحق ولقد أداه إيمانه هذا أن يقف فى المحيط السياسى المضطرب خلال الحياة الحزبية الماضية معارضا لا يلين . لا يغريه العطاء ولا يخيفه الوعيد وقد كتب له التاريخ صفحة الشرف ...

منصور فهمى

خطيب أكثر منه كاتبا . وداعية إلى الإصلاح اللغوى والعمل فى الحقل العربى والاجتماعى أكثر منه مؤلفا . رأى قاسم أمين وكان من المنادين معه بحرية المرأة . أما اليوم فهو يرى أننا يجب أن نحتفظ بشىء من مميزات شرقيتنا وعروبتنا . كان من طليعة شبابنا الذى ذهب إلى باريس فى مطلع القرن فقد سبق طه حسين وهيكل وعاش فى باريس خمس سنوات ونصفا ، حصل بعدها على أجازة الدكتوراه فى الفلسفة وعلم الأخلاق عام ١٩٠٨ وكانت رسالته أول رسالة مصرية فى الجامعات الغربية .

فلما عاد إلى مصر كتب فى الأهرام فصولا أطلق عليها « خطرات نفس » جمعت بعد فى كتاب (١٩١٥ — ١٩٣٠) وهى مجموعة من الخواطر وصفها خليل مطران بأنها فتح فى الأدب العربى .

درس الفلسفة فى كلية الآداب ، ومن تلاميذه عثمان أمين ويوسف مراد والدكتور زيور وزكى مبارك . ثم عمل أستاذا بمعهد المعلمين ثم عميدا لكلية الآداب فمديرا لدار الكتب . فمديرا لجامعة الاسكندرية وتزوج فى سن الأربعين . ثم عمل بالمجمع اللغوى أمينا للسر . وهو فى خلال حياته الطويلة لم ينفصل عن حياة الفكر واللغة والعمل الأدبى .

فقد درس فى كليتى الحقوق والآداب . وحصل على شهادات فى العلوم الفسيولوجية من كلية العلوم . وانتقل من دراسة الفلسفة إلى دراسة اللغة . ولم

ينشر في خلال ربع قرن أي مؤلف بعد « خطرات نفس — ١٩٣٠ » ألا كتابا عن « الـكاتبة مى » نشر عام ١٩٥٤ .

وفي الدكتور منصور فهمي غيرة واضحة على آرائه وأفـكاره تتجلى في غيرته اليوم على اللغة العربية وتظهر بوضوح في تقريره السنوى الذى يلقيه أمام المجمع وقد علم تلاميذه في الجامعة علم الجمال وفلسفة الأدب والفن .

وكانت رسالة الدكتور منصور فهمي التي تقدم بها إلى السربون عن « المرأة في الاسلام » وقد « أحدثت له هذه الرسالة كثيرا من المتاعب بعد عودته إلى وطنه واهاجت ثائرة الناس عليه واشتدت المعارضة له حتى انتهى الأمر بالحيـلولة بينه وبين منصبه في الجامعة سنوات عدة[1] » .

* * *

تأثر منصور فهمي في مطلع شبابه بمجموعة من الـكتب قرأها في هذا الوقت الباكر . قرأ طائفتين من الـكتب . أما الأولى فتتصل بمخطوطات من كتب الأوراد والتمائم . أما الثانية فطائفة من الروايات المختلفة ومن أهمها روايات جرجي زيدان يقول :

« كتب الأوراد والتمائم أثرت في نفسي أثرين أحدهما إيجابي والآخر سلبي . أما الإيجابي فيتلخص في أني توجهت بنفسي إلى حقائق أخفى من الحقائق الظاهرة السطحية . وربما كان في هذا سبب من أسباب النزعة الفلسفية التي نزعت إليها فيما بعد . أما الأثر السلبي فيتلخص في أني أخذت اعتقد أن المعلول يرجع إلى علة

---

(١) ص ٢٤٤ الاسلام والتجديد في مصر .

من نوعه بعد أن أخفقت فى ربط المعلولات بعلل مباينة لها : مثال ذلك إنى أخذت مخطوطات الأوراد والتمائم التى كنت اقرأها أن نجاح الإنسان قد يتم إذا قرأ كذا وكذا من الأوراد والأدعية . فتقدمت إلى بعض امتحاناتى معتمداً على هـذه الأدعية والتسابيح دون أن أعتمد على الدرس الذى هو عليه النجاح فاخفقت . وطفقت استنتج فى المستقبل أن لكل المسببات أسبابها الملائمة دون الاعتماد على الأسباب المغايرة ... » .

وبعد أن أنهى منصور فهمى دراسته فى مصر سافر إلى أوربا عضوا فى بعثة الجامعة المصرية لدراسة الفلسفة .

وعاد ليعيش فى مصر عشر سنوات ثم أتيح له أن يسافر مرة أخرى . ترى ماذا كانت مشاعره :

يقول « كنت كمن انتقل إلى عالم آخر حين صعدت إلى الباخرة المرة الأولى بعد عشر سنين لم أبرح فى أثنائها مصر ولم أعبر فى خلالها بحرا فتذكرت أياما خلت . كابدت فيها أسفاراً وقطعت فيها أمصاراً . تذكرت عمراً كان ألصق بالشباب ونفسا كانت أكثر قبولا لمعانى الحياة . وخيالا كان أوسع لصور الأمل[1] ... » .

وسافر إلى باريس مرة أخرى بعد زواجه من السيدة انصاف سرى عام ١٩٢٥ وطاف ببعض معالم حياته أيام الطلب . وزار مسكنه رقم ٢٩ شارع جرسيو الذى احتواه مدة إقامته هناك من قبل وزار خادمته مرجريت التى كانت تدير حوائجه . ذهب مع زوجته إلى بيتها « ... وما كان أسعدها بلقاء الفتى الذى تولت رعايته

---

(١) البحر ٢٨ يونية ١٩٢٣ .

زمنا وفترة من حياته . ولو كان لمثلى أن يقبّـل هذه الشيخة لقبلتها . وأودعت قبلتى كل ما أملك من عواطف التقدير للأمانة والوفاء . ولقد أشرق وجه زوجتى لرؤية الشيخة التى تعهدت بعض شئونى فى الصغر . وكان ولدى الذى أنس بلقائها يتدخل فى الحديث على نحو ما يتخيل كأنه يشعر بقلبه البرىء أن عند هذه الزائرة بعض السر لشباب أبيه .

وقالت مرجريت لزوجتى «كان زوجك جادا فى حياته وشبابه».

وكتب لطفى جمة (١٩٠٧) عنه : لازلت أذكر صلاح «منصور فهمى» وتقواه إذ كان يبحث عن قبقاب وأبريق للوضوء فقد كان هذا عهد تصوفه وانشغاله بقراءة كتاب عوارف المعارف للسهروردى .

* * *

ولقد سئل منصور فهمى عن «أهم حادث أثر فى توجيه حياته» فقال أنها المرأة «عندما استعرضت الحوادث الكبيرة التى كان لها الأثر الأكبر فى حياتى . أرى شبح المرأة يظهر بوضوح وجلاء . وإذا ذكرت المرأة فاننى أذكر تأثيرها فى شخصيتى من الناحية الخلقية .

.. أراد الله عند ما كنت فى دور الشباب أن أترك مدرسة الحقوق والتحق بالبعثة الأولى التى أرسلتها الجامعة المصرية إلى باريس لدراسة الفلسفة .

وهناك عرفت فتاة روسية من المأخوذات بالمثل الاجتماعية العليا . والمولعات بالميادين الديمقراطية فأثرت معرفتى بها فى توجيهى إلى دراسة المسائل الاجتماعية وتقوية عطفى على الطبقات الضعيفة وحب الانسانية الواسعة .

ولما شارفت الأربعين تزوجت فشاهدت فى حياتى الزوجية ماقد يصادف النساء

من آلام الأمومة وما يعرض لحياتهن فى سبيل ذلك من المخاطر وتعلمت من وظيفة الأمومه أكبر درس فى إحترام المرأة والشفقة عليها وتقديس العرض . وأصبحت أنظر بمقت شديد إلى من يستخف بحرمة الأعراض » .

وكان الدكتور منصور قد التقى بزوجه على مائدة العلم « التقى الفكر والتقت الميول . وكان صديقنا المغفور له مصطفى عبد الرازق صاحب الفضل الأكبر فى اتمام زيجتنا الموفقة » .

* * *

ومرة أخرى يواجه منصور فهمى تجربة جديدة : تلك هى تجربة الخروج من برج المفكر إلى دنيا الناس . وما يلقاه المفكر المؤمن بالمثل العليا من أعنات ومتاعب .

يقول « ... خرجت من عالم الكتب إلى عالم الناس . وكنت أتوهم أن الناس يلقوننى لأعمل معهم وأكتب تحت أعينهم صحيفة من سفر الحياة الواسعة فأملأها برسوم الحق والواجب . وآثار العمل والأمل . وأصور فيها صورة الأب الصالح . والزوج الوفى . والوطنى الصادق . والإنسان العادل فى نفسه وفى الناس . وكنت أظن أن كلمات الحرية والإخلاص والفضيلة والرحمة وأمثالها تسمها معاملات الناس بعضهم لبعض . على أننى صدمت صدمة بالغة حين رأيت أن الناس يسيرون على خلاف ما كنت أظن وأن الحياة تكاد تكون جارية بمقادير غير ما كنت أقدر . وأن السجايا التى كنت أظنها من صفات البشر انما هى لمخلوقات خيالية تبصرنا ولا نبصرها .

هالنى وأفزعنى أن أرى فى الحياة مسرحاً واسعا للنفاق والرياء والخـــداع

والأباطيل . وأن هذه الأشباح قد صرعت تلك المخلوقات الشريفة التى نسميها الفضائل . واستبدت وحدها بميدان الحياة كله ... »

* * *

وقد عرف منصور فهمى بحبـــه لفلسفة الجمال وكلفه بدراستها وهو هنا فى موضعين يصور فـكرته « ... أن الجمال له أسلوبه الخاص المميز فى أن يتقدم إلى النفس يباغتها بذاته قبل أن يباغتها بما تتخلف عنه أو تتصل به من الأسباب الأخرى . فقدار الحرص لذاته دون مخلفاته ومعقباته يكون أثره فعالا فى النفس عميقا . ووقعه عزيزاً عندها لذيذا لديها . أنه معنى ربانى يعلو بجناحى الحرية والاستقلال عن كل علاقة . هو فى نفسه غاية . وهو يبدو فى الشيء المحدود وفى الشـكل المحسوس ليمثل إحدى قوى الوجود فى القيد المحدود والمطلق المحدود والمرئى الخفى . والمادة والروح . والصورة والمعنى . فهو شعاع ربانى يتصل بالمعانى العليا واصل الأصول الذى هو روح كل شيء وبادىء كل شيء . والله يحب الجمال » .

ويقول فى مقال آخر عام ١٩٤٧ .

« ... الجمال فى الأدب يقترن معناه باللذة التى من أجلها يساق القول الفنى المركب . فإذا كان الأديب قاصداً من وراء قوله أن يثير الأشجان ويهيج الأحزان فأهاجها ونبهها فى النفوس فان كلامه يكون جميلا . وأدبه رائعا . لأنه أثار إنفعالا قويا ومعنى أبديا . حين نرى أن الفرح والحزن كلاهما من طبيعة النفوس ومن فطره الله التى فطر الناس عليها .

« ... دعامات الجمال التى يقوم عليها الأدب الرفيع هى الأسلوب والمعنى والذوق العام .

« ... لكى تكون العبارة جميلة ينبغى أن يتوفر فيها بعض صفات منها رقة الكلمات وألفتها ومنها جمال جرسها ورخامتها .

« ... أن الذى يثير فى نفوس الناس شهوات دنيئة هو مؤثر بلا شك ولكنه غير جميل . وليس كل مؤثر يصح أن يخلع عليه صفة الجمال » .

* * *

ومنصور فهمى محب للحياة والليل ... « مازلت محبا للحياة أعانقها إجلالا لما فيها من عظمة . وحرصا على ما تظهر به من جمال فبفشانى الليل ويجود لفترة هادئة تقبل فيها طوائف الرغبات وإذا بخل الدهر جاد الليل لنا بجميل العزاء » .

وهو صوفى مؤمن عميق الصوفية والإيمان وفى مقال له كتبه فى عام ١٩٢٧ يقول « ... إذا ما انطلقت السفينة بعيدا فى البحر اللجى وهبت الزوابع وتسابقت الرياح وتلبد بالسحب الفضاء . واكفهر وجه السماء . وأبرق البرق . وأرعد الرعد وكانت ظلمات بعضها فوق بعض : ولعبت بالسفينة الأمواج وأجهد البحر جهده . وأفرغ الربان حيلته . وأشرفت السفينة على الغرق وتربص الموت من كل صوب . وحدّق إذ ذاك يشق ضياؤك هذه الظلمات والمسالك وتحيط راحتك حول هذه الأخطار والمهالك . وتصل بحبال نجدتك المكروبين والبائسين . وإذ ذاك يردد القلب واللسان ...

أنت ... أنت الله ... »

* * *

ومنصور فهمى يحب قاسم أمين ورينان وكنت . وهو غيور على اللغة العربية

شأن كتاب جيله . وكان فى شبابه يهوى الرياضة العنيفة مثل الشيش والسباحة والملاكمة . أما اليوم فقد انصرف إلى هوايه التأمل والتفكير والقراءة ومناقشة آراء المصلحين الاجتماعيين .

ولقد التقيت به منذ سنوات وتحدثت معه عن أمانيه فى الحياة فقال لى « كلما تقدم بى السن تمنيت أن أعمل عملا صالحاً ألقى به النهاية والقى به وجه الله . وقال أنه يتمنى أن يعود إلى الريف . وأنه لو عاد إلى الشباب مرة أخرى لألف كتابا ضخما عن القرآن ينير للناس مسالك الايمان ويحول بينهم وبين الإلحاد .

ومن قوله أن القيم الدينية قيم حقيقية لا يعرف الشباب قيمتها إلاعندما يصل إلى الشيخوخة . وقد عاش بها السعداء من الناس فحمتهم من التيارات المادية .

الجيل الثانى

- ٢٠ -

الباقورى[1]

خطيب أكثر منه كاتبا . هو خلاصة نقيه لثقافات الأزهر القديمة التى تبلورت فى محمد عبده ورشيد رضا والمراغى . وفى أسلوبه مزيج من الجاحظ وطه حسين .

فقد نشأ فى أبان النهضة الأدبية التى قادها الكتاب الذين ثقفوا ثقافة أوربية . فقرأ لطه حسين والزيات وزكى مبارك ومصطفى عبد الرازق وكلهم من أبناء الأزهر الذين سافروا إلى أوربا وعادوا يحملون منها أرقى الدرجات العلمية فكان فى نفسه ذلك التطلع إلى عبور البحر .

لعل أبرز أحداث حياته: موقفه خلال ثورة الأزهر على الجمود والرجعية والحزبية العمياء فقد تألق ولمع وكانت بلاغته ونبرات صوته ولباقة حديثه وجرأته من العوامل التى جعلت منه قائداً لتلك الثورة .

فلما انتصرت الثورة وتحقق أمل الأزهريين . عاد إلى الصف . ولم يقبل أن يستغل موقفه . وان كان هذا الحدث هو الذى أبرز « الباقورى » فى الميدان العام فإنه كان طوال حياته ناقما على العهد البائد . معارضا ناقدا مرير المعارضة والنقد .

فيه ذلك الطابع « الصعيدى » الذى يتمثل فى الوفاء والصراحة والوضوح

---

(١) فى كتابنا « شخصيات عرفتها » دراسة أخرى للباقورى نشرت فى مجلة الأهداف .

وفيه روح « اللباقة » التى اكسبته أياها التجربة والخبرة فهو يعلن رأيه دون أن يصادم . ويقول كلمته دون أن يجرح . ويستطيع أن يواجه المواقف المتعارضة فيجد لها المنفذ الذى يربط بينها أو يمنع ارتطامها .

اكسبه ذلك اتصاله بالناس فقد زار قرى مصر وأقام فيها أياما . وخطب ودرس مع الناس مشا كلهم . وتحدث واستمع خلال سنوات طويلة ، ثم أتيح له من بعد أن يسافر إلى الشرق والغرب فيذرع فضاء الله من الصين إلى نيجيريا . دارسا يبحث ويناقش أحـــوال المسلمين وقضايا العرب ومشا كل الشعوب فزار أندونسيا والهند والباكستان وإيران وسوريا ولبنان والأردن والقـدس وليبيا وتونس ومراكش والأندلس وايطاليا ...

وأعطاه هذا السفر خبرة وعمق مفاهيمه للأمور والأشياء . وهو فى خـلال ذلك العمر يكتب . كان يكتب مقلا قبل أن يلى الوزارة ثم ألزمته مسـئولياته أن يكتب كثيرا . ولـكنه فى كل ما يصدر عن قلمه هادىء العرض . بليغ الأداء . عميق المعنى . يقلب الأمور ويعرضها وينظر فى جوانبها المختلفة . نظرة فيلسوف ثم يصورها تصوير واقعى . ويحرر أخطاءها تحرير مؤرخ ويوجه نقداته توجيه باحث اجتماعى متعمق ...

والباقورى كاتب مقل معنى بما يكتب متمهل فيه . يتأنق عبارته ويتعمق معناه ومبناه . وهو معنى فيما يكتب بأهداف واضحة ومثـل عليا صريحة . ولعله منذ شبابه يسير فى خط واحد نحو هذه المعانى فهو من طلاب الحرية والحق والعدالة . كانت تلك دعوته ولا تزال وهو من أجل هذه المعانى سجن واعتقل وشرد . ومن أجلها مضى يقاوم ويكتب ويخطب . وآراؤه فى هذا الاتجاه مستمدة من الاسلام . وفهمه للاسلام فهم يسير صريح بسيط . يستمده من المنابع الأولى . بعيـداً عن

التعقيدات والحواشي . ولعله في هذا يمثل طائفة قليلة من شباب الأزهر ، هذه الطائفة التي لم تسافر إلى أوربا ولكنها استطاعت أن تربط الدين بالحياة . في أسلوب المجتهد الباحث . والعالم المرن الذي يوجه علمه إلى تطويع الحياة للدين بحيث لا يشق على الناس في أمرهم وينفسح لهم المجال النافع .

وله في الجهاد والموت رأي يختلف مع الآراء العامة يقول « إن الذين يموتون في سبيل عقائدهم موتا سريعا انما يذوقون الموت مرة واحدة . فأما الذين يعيشون في سبيل هذه العقائد يجاهدون ويكافحون ، فإنهم يذوقون الموت مرات كثيرة . فيذوقونه كلما هتف بهم هاتف من الجنوح إلى الراحة والاخلاد إلى المتعة أو لاح لهم لائح من جاه أو منصب زائف ومجد حكم ذليل . فاضطروا أمام عقائدهم ومناهجهم أن يزايلوا ظل الحياة الوادعة وأن يفلتوا منه وأن يستبدلوا به حياة مجاهدة لا تهدأ ولا تستريح ... »

كذلك كان الباقوري — وهذه عبارة كتبها عام ١٩٤٧ — يؤمن بالكفاح في سبيل تحقيق الهدف الذي يملأ قلبه : الهدف الذي كان يراود قلوب الأحرار وهم يتطلعون به إلى فجر كان قد أوشك على أن يشرق .

* * *

والباقوري أزهري مجدد ومحافظ . يؤمن بحقنا من الأخذ من الحضارة والنهل من الثقافة العالمية دون أن تتأثر شخصيتنا أو تضعف معالمها الأصيلة . نأخذ ونضيف إلى شخصيتنا القوية فلا نفقدها ولا ننساها .

وهو يؤمن بأن المرأة ليست نصف الرجل كما يقولون ولكنها الرجل نفسه وذلك لأن الرجل بغير المرأة لا وجود له .

يقول « رايت المرأة من الأطلسي إلى الهادى . المغاربة أشـد تدينا منا . وعندهم فى كل حزب شعبتان . شعبة نسائية وشعبة رجالية . وكل نساء الوطن يعملن فى المجال الثقافى والسياسى والخدمة الاجتماعية .

وفى الصين رايت المرأة تعمل إلى جانب الرجل تماماً . لم أجد امرأة فى الصين إلا ليلة الأحد . تلبس فستانا أنيقا فى هذه الليلة فقط . أما باقى الأسـبوع فهى تلبس البنطلون والسترة الطويلة وتعمل فى المصنع . النسيج . اصلاح السيارات . إصلاح الدبابات إلى جانب الرجل .

والشعب الذى يعيش بالرجال فقط . كالجسم الذى يعيش برئة واحده ... لقد كان خطؤنا فى الماضى أن النساء اللواتى كن يشاركن فى الخدمة الاجتماعية يتعالين على المجموع . كما تربى السيدة الدواجن ، لا ترفعها إلى درجة نفسها . انما تعنى بها ليسلم لها الانتفاع والاستغلال فقط . وهذا المعنى أخطر ما يكون على الشعوب أن يقوم بالخدمة نساء منفصلات - من الناحية الانسانية — عن المجتمع ... »

ويحاول دائما أن يدعونا إلى التحرر من مركب النقص ... « علينا أن نتحرر من الوهم القائل بأننا كنا أمة مستعبدة . فهى أكذب قضـية . فانما عشنا دائما فى ثورات على الدخيل . وكان كل من يجىء بيتنا يصطبغ بصبغتنا . فنحن لم نستسلم أبداً . بل كنا فى خلال تاريخنا الطويل نقاوم الغزو ... »

وهو يؤمن بالقومية العربية إيمانا صادقا لا فرق بين مسلم ومسيحى « ... أن الإستعمار لم يدع وسيلة من وسائل التفريق إلا حاولها . فحاول أول ما حاول بالفرقة تنشأ عن طريق الدين . والحق فى ذلك أن الإسلام هو ميراث العرب الذى اعتز به المسلمون فإن المسيحيين العرب يعتزون به كثرات مجيد . وقد كان الأخطل شاعراً نصرانيا وكان يحج إلى الكعبة ويقول : أنكم تحجون ارضاء لعواطف دينكم

وأحج استرضاء لعواطف آبائى وأجدادى . فالمسلم العربى يأخذ الإسلام عقيـدة والمسيحى العربى يأخذ الاسلام تراثا رفع من شأن العرب . وطوح بهم فى آفاق الدنيا وحملهم على أن يضعوا البذور الأولى للمدنية التى ينعم بها العالم اليوم ... »

وفى خلال رحلته إلى المغرب والأندلس رأى صورة أعجبته « ... عندما طوفت بملك العرب فى الأندلس فى رحلتى الأخيرة إلى المغرب ، كان علماء الآثار يرفعون الأتربة عن مدينة كاملة مطمورة من مدائن العرب يعرفها التاريخ باسم مدينة الزهراء . وقال دليلنا أنه قد اكتشف من بين مخلفات المدينة « بانيو » أشـبه بالذى نستعمله اليوم وقال — وهو رجل ليس عربيا — أن هذا البانيو كان العرب يستحمون فيه يوم كان غسل الوجه فى أوربا جريمة يعاقب عليها القانون ...

* * *

صور الدكتور طه حسين حياة الباقورى فقال « ولدتَ فى بيئة صوفية فى قرية من أعمال أبو تيج فى أقليم أسيوط كان والدك متصوفا وعسى أن يكون غاليا فى التصوف . وفى التصوف المصرى الساذج العميق . الذى يؤثر فى حياة الناس العملية وفى حياتهم العقلية وفى سيرتهم مع أبنائهم . وتصوف والدك هو الذى أرسلك إلى الـكتاب وكلفك حفظ القرآن . وهذا التصوف لم يثق بالمدرس أو الفقيه الذى يقرئك القرآن وانما كان يشق عليـــك بالذهاب إلى الـكتاب وباقرائك القرآن فى بيتك أيضا . ثم أرسلك إلى حيث يدرس الدين وتدرس علومه ولم يكد معهد أسيوط الدينى ينشأ حتى كنت من تلاميذه الأولين فدرست فيـه وهناك نشأت لك العقدة الأولى فى حياتك العقلية . نشأت لك قبـل أن تبلغ الشباب . كنت تذهب إلى معهدك راكبا حماراً وكان جيرانك فى الحارة التى تسكنها من الصبية المسيحيين يغدون معك إلى مدارسهم المدنية فـكنت تنظر

إلى أزيائهم وتعرف من أنبائهم مايسخطك على معهدك وعلى زيك ثم على حياتك تلك كلها . كنت إذن تتوق إلى المدارس المدنية . وكنت تمنى نفسك أن تلوى لسانك باللغة الأوربية التى يلوى بها شباب المدارس ألسنتهم . ولكن تصوف والدك حال بينك وبين ما كنت تتمنى ... » .

ولكن هل هذا التصور صحيح . وأن الباقورى كان يحب الزى المدنى وأنه لذلك اختار دار العلوم وأتم دراسته الأزهرية فى سن الحادية والعشرين بعد أن تعلم الفنقلة مع المفنقلين ... وأنه حيل بينه وبين دار العلوم كما حيل بينه وبين مدرسة الصيارف . كما حيل بينه وبين البعثة الأوربية ...

وأنه قد تخصص فى دراسة اللغة العربية والبلاغة والأدب فتخرج أستاذاً فى سن الرابعة والعشرين .

مهما يكن من أمر ذلك فإن الباقورى أحب عمامته وزيه الدينى من بعد . وأتيح له أن يصبح أكبر مما كان يرجو من مدرسة الصيارف ودار العلوم . وأنه دخل ميدان الصراع الوطنى — ولا أقول السياسى — منذ شبابه فى ثورة الأزهر وفى مواقف مختلفة منها حادث ٤ فبراير . وأنه كان ساخطا أشد السخط على الحزبية والقصر والانجليز . وأنه شارك مع كل طائفة آمنت بمصر أوصارعت الظلم أو اختصمت مع العهد الذى غرب مشاركة قوية بما فيه من قوة الإيمان الحكمة والأناة والتطلع إلى نور يغمر مصر ، يجىء من هنا أو هناك .

ولقد شارك الباقورى بلسانه وقلمه فى مشاكل المجتمع والدين والوطنية وكانت له فيها جميعا آراء ناضجة واضحة جريئة . كان مجدداً محافظاً كما قات . كان بالنسبة للأزهريين متقدماً أعطته تجربته وصداقته لأحرار الفكر الذين عرفهم وقرأ لهم خبرة وعمقا وسعة أفق ولباقة ومرونة لم تتح للكثيرين من الأزهريين .



وكان أسلوبه منذ أول الشباب أنيقا عميقا . وهو كما قلت فى كتابى « نزعات التجديد فى الأدب العربى المعاصر » ثمرة بالغة النضوج للأزهر القديم فى بلاغته ودقته والأزهر الحديث فى اتصاله بالأساليب الحديثة وأسلوبه الفريد ينبثق من الجاحظ وطه حسين والمراغى هذا مع الاعتراف له بالاستقلال الواضح ... »

وقد اختير الباقورى عضوا بالمجمع اللغوى فى المكان الذى خلا بوفاة « أحمد أمين » .

وفى الباقورى وفاء فهو لا يدع الأيام تمضى دون أن يذكر أساتذته ويقول فى واحد منهم « أن أبناءه ومريديه ليحبونه أشـــد الحب ويؤثرون مناهجه فى الاصلاح أشد الايثار لأنها فى أنفسهم خليقة بالايثار ثم لأنهـا تراث الشيخ الأثير لدى العقول والقلوب جميعا . ولا والله لن أنسى ما عشت مجلسى منه خاليا فى داره وهو يردد للامام الجليل ابن تيمية رضى الله عنه قوله :

« إن الدولة الـكافرة العادلة خير من الدولة المسلمة السالمة » وأن الأمة التى يقوم فيها الحاكم بأداء الأمانة والتزام قواعد العـــدل أمة لا تفوتها غاية ولا يدركها انحلال . »

وقد كان الباقورى يكتب هذا وينشره قبل الثورة وفيه ما فيه من توجيه القول إلى الحاكمين فى أسلوب فى التعريض والتورية وابلاغ قولة الحق من أى طريق ...

ومن الرجال الذين أحبهم الباقورى وتأثر بهم قديس الصحافة المصرية « أمين الرافعى » وقد كان أول ماقاله من شعر فى رثائه .

ولا ننسى أنه هاجم جميع زعماء مصر بعد حادث ٤ فبراير بمنشورات وطنية نارية .

يقول : « نزع التعصب من قلبي : رجل وامرأة : أما المرأة فهي السيدة دميانة صديقة جدتي الحميمة ... »

ومما عملأ نفسه حزناً أن مات والده وهو سجين في معتقل ماقوسه في المنيا وقد حرم الاعتقال عليه رؤيته قبل موته .

وقد تحدث الباقوري وكتب وخطب في مصر وابيريا وساحل الذهب والهند والصين وأندونسيا والمغرب والسودان : في الوطنية والدين والعروبة فقال كثيراً من الأفكار والآراء . هذا بالإضافة إلى ذكرياته ومشاهداته وتأملاته وكل هذا ينبغي أن يضم في كتاب كبير يسجل معالم فكره وحياته وقلمه ...

ولعل حديثه إليّ عن ذكرياته في زيارة الأندلس يدل على مدى أهمية هذه الدراسات والمذكرات قال « في رحلتي إلى بلاد المغرب طوفت بأسبانيا . وكنت أقدر أن مجد العرب في هذه البلاد قد اقتصر على غرناطة واشبيلية وطليطلة . إلى أن زرت مدينة لشبونه ولم يكن في نفسي أن أجد فيها شيئاً مما يتصل بالعرب . قد بقي إلى هذه الأيام .

ولم أكد أدخل المدينة حتى شممت ريح العروبة وأمجادها . وحتى امتلأ احساسي بأنني في بلد عربي في جوه وروحه . ولم يكذب ظني فسرعان ماحدثنا متحدث بأن هناك على مقربة من لشبونة ضاحية جميلة تحتفظ بقصرين من القصور العربية على ساحل المحيط الأطلسي وقد زرت القصر الكبير ... قلعة تشرف على لشبونة فتكشف معالمها جميعاً .



وهذا القصر آية من آيات الفن العربي في تصميمه وقوة بنائه وضخامته ودقة الفنون المودعة به . ولقد طوفت بارجاء هذا القصر العظيم وأنا ذاهل عما حولي من آيات الطبيعة الفاتنة . وانصرفت نفسي كلها إلى القصر وما يتصل به

من تاريخ عزيز . وظللت أعيش فى هذا الجو نحو ساعة أردد النظر هنا وهناك . فى أسقفه وفى حوائطه وشرفاته وأبهائه . وقد تحولت جوانب كثيرة منه إلى متاحف سيق إليها كل ما خلف ملوك البرتغال من آثار . ومع هـذا فقد طغى الروح العربى على كل هذه التحف فغرقت فى جوانبه وبدت هزيلة باهتة أشبه بالرقعة فى الثوب الجديد . وتجمعت فى نفسى خواطر وفاضت من عينى عبرات حين خيل إلى أن هذا القصر الواجم مصفد فى أغلال الزمن ... »

ويرى الباقورى أن الحركة الأدبية الحديثة فى أغلب صورها حركة لا تقوم على أصول صحيحة والاعتماد فيها على الأثارة أبين من الاعتماد على التوجيه والتقويم .

وأحب شعراء العربية فى نظر المتفنى فى القديم وشوقى فى الحديث .

بنت الشاطىء [1]

« إليك فى غسق الدجى . والأطياف سارية · والأرواح هائمة · إليك فى جوف الليل والكون هاجع والدنيا نائمة · إليك فى رهبة الصمت · وقد سكنت الأصوات · وثقلت الأجفان وهمدت الأجساد . إليك فى روعة التجلى · وقد أخليت لى الآفاق ، وفتحت أبواب السماء ... إليك إليك أرفع نجواى » .

* * *

هذه مناجاه الدكتورة « عائشة عبد الرحمن » تصور نفسية هادئة ناعمة فيها روحانية خالصة تبدو واضحة فى كل آثارها وانتاجها · وهى أصيلة فى روحانيتها فإن البيئة الدينية التى استهلت حياتها بها أمدت روحها بذلك الفيض من الإيمان ·

ولقد كون شخصية « بنت الشاطىء » إلى جوار هذا العامل : عاملان آخران هما الريف والماء · فهى ريفية بالطبع · ولها من ريفيتها طابع المحافظة · ولها رأيها المعتدل فى أمر المرأة فهى ترى « رسالة » المرأة فى بيتها — الذى هو مملكتها — وبين أولادها وزوجها · وقد بدأت حياتها الأدبية بالكتابة عن الريف المصرى ·

وهى محبة للشاطىء · « شاطىء دمياط » الذى ولدت عنده . وكان لها معه مأساة · وله فى نفسها ذكريات لا تمحى فقد شهد الشاطىء

(١) انظر ص ١١٧ من كتابنا نزعات التجديد فى الأدب العربى المعاصر .

مصرع أم شابه . ورأى فاجعة بيت وأحزان أسرة . ولعل هذا هو الذى حملها على أن تطلق على نفسها هذا اللقب. ويتميز «أدب» عائشة بالحزن والـكآبه . وذلك هو طابع نفسها ، وهى تعلله بأنه يرجع إلى « نفسية » أمها التى أصيبت قبل ولادتها فى أمها الشابة ، حيث ذهبت إلى شاطىء النيل فسقطت فيه ولم يعثر على جثتها .

ولعل ابرز صورة لريفيتها تلك السذاجة التى استقبلت بها القاهرة لأول مرة وما ذكرته من أن سؤالا جاءها فى الامتحان عن « الترُمس » ولم تـكن قد رأته فى حياتها من قبل وظنت أنه عن البقلة المرونة « الترمس » بكسر الميم لا ضمها . فرفعت صوتها متسائلة وقالت « لعلهم فى المدينة يرطبون الماء بالترمس كما نفعل نحن فى القرية حين ننقى الماء بنوى المشمش »

وسئلت عندما خرجت من الامتحان عن الترمس فقالت : أننا لا نستعمله فى البلدة وانما نستعمل نوى المشمش . فقالوا لها أتحفظون الماء فى نوى المشمش . فقالت بل نروقها به وهى فى الآبار فتغامزت زميلاتها ضاحكات « ومضت احداهن فجاءت باسطوانة معدنية طويلة لم أدر ما هى ... »

* * *

وتحب عائشة أمها حبا قويا تصوره هذه اللوحة الرائعة[1] .

« لاح لى طيفها حين دخلت قاعة الامتحان . فلم أكد أرى وسط ذلك الجمع المحتشد سوى وجهها الحبيب . وصورتها المشرقة ، بل لم أكد أميز شيئا غير روحها السامية المذبة تحوم حولى وتطيف بى وتبارك مسماى . كانت هناك ...

---

(١) جريدة الأهرام ١٥ /٤/ ١٩٥٠ وهو يوم حصولها على اجازة الدكتوراه.

ملء المكان . تلك التي طواها الموت منذ أعوام ثمانية وحملت إلى القبور في أمسية حزينة واجمة من يوم خميس ...

أجل يا أمي : كنت دائما معي . ملء نظري وسمعي تستحثين خطاي نحو الغاية التي قطعت مراحلها الأولى على كتفك . وتهونين على ما ألاقى من عناء . وما ألقى من متاعب . فإذا أدركني الضجر أو نال مني الأعياء الفيتك إلى جانبي : تشدين أزرى وتثبتين قدمي وترفعين على وتلوحين لي بسمو الهدف وجلال المثال

وحين توج المسعى بالنصر . وعدت إلى بيتي قبل منتصف الليل أحمل درجة الدكتوراه . وجدت من حقك على يا أمي أن أفعل شيئا وقد فعلت ... تسللت في رفق إلى مخدع طفلتي النائمتين في سلام فركعت أمام مهديهما خاشعة أصلي لمن جعل الجنة تحت أقدام الأمهات ... وأمجد ذكرى واحدة منهن نشأت في صميم جبل الحريم ... » .

ولقد جاهدت عائشة طويلا وظلت تدفع عجلة الزمن من مدرسة متخرجة من مدرسة المعلمين الأولية إلى أن حصلت على أرقى درجات العلم ...

* * *

ويعطى أدب عائشة صورة الأنثى في مختلف صوره . فهي ابنة بيئتها . وبنت طبيعتها ... تقول « ... حياة الأنثى مثقلة بهموم كبار . وهي تبدأ من طفولتها الباكرة . إذ تسيء الدنيا استقبالها وتلقاها كارهة إلا في القليل النادر . في القصر والكوخ . وفي البادية والحضر وفي الشرق والغرب جميعا . تخرج الأنثى إلى الدنيا غير مرغوب فيها . ولو نشأت في بيئة نجحت بناتها . وخاب بنوها . فالقوم لاينتظرون بها الأيام ليعرف مكانها في الدنيا . وإنما يتلقونها منذ اللحظة الأولى واجمين كارهين .

وإذا ما اجتازت الأنثى مرحلة الانتظار . ومضت إلى بيت الزوجية انتظرتها هناك ... لسنا نعنى اعباء البيت . ومطالب الحياة الزوجية فهى جميعا مما يستطاع حمله . ويهون إحتماله . وانما نشير إلى نضال الأنثى فى سبيل الاحتفاظ برجلها وحماية بيتها من التصدع والانهيار ... وهو نضال مرقاس طويل . يزداد على الأيام قسوة ومرارة . فالزوجة فى أول عهدها بالزواج تجد فى قوتها المذخورة وشبابها المتفتح وتخففها من أعباء الأمومة ما يعينها على هذا النضال . حتى إذا تقدمت بها الأيام فلت أسلحتها تلك بما تفقد من نضرتها وجدتها ... وما تبذل لأبنائها على حساب زوجها ... »

وهى هنا تعرض لأزمة نفسية تساور كل امرأة وتمر بكل أنثى وإذا أردنا أن نسأل عن نفسية « عائشة » فيما يتصل بينها وبين الحب والعاطفة نجدها تصور ذلك فى وضوح وصراحة فتقول ... « لكل منا صورة الرجل المثالى ، تصورها فى عالمها الخاص ، وتطبعها بطابعها المتميز . وترسمها بالوانها المحببة . وتضفى عليها ما تعكسه ظروفها وشخصيتها وتجاربها من أضواء وظلال . ثم لا ترضى باختيارها عنه بديلا . ولو أوذيت فى سبيله وعبرت إليه على جسر رهيب من الأيام ... »

وهى تصل إلى أبعد من ذلك . بل لعلها تضع هذه القاعدة فى صورة حية حينما تتحدث عن قصة ارتباطها الروحى بزوجها واستاذها « أمين الخولى » العالم النابه .

« سبع سنوات من التلمذة المتصلة . صحبت فيها أستاذى اتلقى عنه وآنس إليه واغفر له ما ألقى من مشقة الدرس ! سبع سنوات لا أذكر أنى تخلفت فيها مرة واحدة عن حضور مجلسه العلمى وكنت أجد فيه الأستاذ والموجه والزميل والصديق . وأشعر نحوه بمثل ما يشعر به المريد نحو شيخه . فكانت تلمذة روحية عقلية . عميقة قوية . تستجيب لما فى شخصيتى من أثر النشأة الأولى فى صميم

بيئة صوفية . وفى كنف أب شيخ له تلاميذه ومريدوه .

وحين عز علىّ أن استغنى عن أستاذى . تزوجته بعد تلك السنوات الطوال من التفاهم النفسى والتجاوب العقلى . والانسجام الروحى . وما زلت حتى هذه اللحظه أبارك اليوم الذى لقيته فيه منذ أثنى عشر عاما وبعض[1] عام — حسبى من زمانى انى لقيته . واستشرفت إليه . وحسبى منه هو . أنه حفظ على إيمانى به وثقتى منه . فى هذا الزمن الكافر الذى تتهاوى فيه المثل أمام أعيننا وتنهار ... »

... ومضت عائشة تكتب وتنتج . محتفظة بشخصيتها . وطابعها الخالص بالرغم من الزواج والأبناء . وهى سيدة بيت ومع ذلك فانها مازالت تحفظ للأدب أمانته ، وقد اتهمت يوما أنها تختفى وراء مقالاتها عمامة . وكان ذلك عندما هاجت الزيات ونقدت كتابه « دفاع عن البلاغة »

وهى — شأن الريفيات — وفية . يتجلى هذا الوفاء فى تقديرها لأستاذها مصطفى عبد الرازق « ... كان رحمه الله أحد الأساتذة القلائل الذين أمسكوا علينا بقية من ايماننا بالحق والخير والجمال . وعصمونا من الانهيار أمام الصدمة المباغتة حين تهاوت بين سمعنا وبصرنا أكثر المثل التى رسمها لنا الوهم وزينها الخيال ... »

ويبدو اعتدال رأيها فى تحديد وظيفة المرأة ... « على أن كبرى الكبائر أن ينسى بعضنا الفروق الطبيعية بين الجنسين أو يتجاهلها أو يسعى إلى الغائها . مع أن الطبيعة والحياة تأبيان علينا مثل هذا المسخ الذى يريد الأنثى مخلوقا شاذا هو امرأة بطبعه ورجل فى تطبعه ... وكان المرجو من نسائنا أن ينادين باحترام الأنوثة ويتشبثن بها فى حرص واعزاز . ويأبين على الرجال تجاهلها واغفالها . ويحاربن كل دعوة عابثة تنحرف بالمرأة عن فطرتها . وتنأى بها عن عملها الطبيعى ووظيفتها فى الأسرة والبيت والمجتمع ... »

---

(١) كتبت هذا الفصل عام ١٩٥٤ .

وجملة القول أن « عائشة » أديبة أصيلة . ذات أسلوب نسوى رقيق . وأنها كلفه بالترحال وقد زارت أجواء كثيرة من أوربا والشرق وكتبت فصولا ممتازة من أسبانيا والحجاز وسفوح الألب .

— ٢ —

هذا ما كتبته عن الكاتبة « بنت الشاطىء » منذ ثلاثة أعوام . وقد عدت إلى بعض ما كتبت المترجم لها فاستخلصت منه حقائق جديدة عن حياتها أجابت على بعض الأسئلة التى كانت تشغلنى .

● سر جمال أسلوبها أنها حفظت القرآن فى صباها مما منحها هذا الوضوح وهذه البلاغة بالإضافة إلى البساطة والأشراق فى الديباجة .

● الوفاء لأبويها يبدو فى أكثر من موضع فهى قد أهدت كتابها بطلة كربلاء إلى والدها لأنه هو الذى هداها إلى هذا الاتجاه ... « لم أنس يا أبى على بعد العهد وتطاول الأيام مجلسك فينا تحدثنا عن آل البيت الكريم . أولئك الذين أشربتنا منذ الصغر حبهم . وعلمتنا أن نزهو بشرف انتسابنا إليهم ... »

● الكفاح واضح فى حياتها منذ أول الشباب « ... يوم تقدمت لامتحان الدراسة الابتدائية لم يكن ذلك فى حسابى انما دفعتنى إليه ظروف تشبه أن تكون قصة تروى . فقد حدث أن تقدمت من المنزل لامتحان كفاءة المعلمات فكنت أول الناجحات فى القطر كله ... ولكن فرحى بهذا الظفر امتزج بحرارة وأسى حيث عز علىّ أن أتخلف عمن سبقنهن جميعا فلا أتم الدراسة بالقسم الاضافى مثلهن . فاذا مضى عامان تخرجن مدرسات فى المدارس الابتدائيـة ومدارس المعلمات على حين أبقى أنا — الأولى — معلمة فى المدارس الأولية .

ورأت لى أمى ... رحمها الله — أن أدرس فى المنزل ما يدرس فى المدرسة ثم امتحن معهن بعد عامين فأكون الأولى . ومضت الشهور وأنا عاكفة على الدرس فى دأب وأصرار وجلد . حتى إذا جاءموعد الامتحان طلبت الدخول فيه وأنا واثقة من الظفر . ولـكن أوراقى ردت إلى مع اعتذار جاف بأن نظام الالتحاق بالامتحان من الخارج قد ألغى منذ عام .. »

٤ — تحتفظ لمدينتها « دمياط » ذكريات حزينة وتصورها فى صورة رائعة « يحيطها النيل بذراعه اليمنى فتسكن إليه فى دعه وأنس . مطلة على البحر من ناحية ورانية إلى بحيرة المنزلة من ناحية أخرى ... » .

وتصور كيف بدأت الـكتابة أول مرة ... « بدأ للفتاة يوما فجلست تنفس عن نفسها ما رهقها من مشاعر . وتصور ما يتراءى لها من خواطر وأحلام فراعها أن وجدت فى ذلك راحة نفسية . مالبثت أن صارت نشوة فاتنه ، ثم لم تـكد تجد مشاعرها مسطورة أمامها حتى أحست رغبة — لا تقاوم — فى أن تبعث بها إلى الصحف كما كان يفعل جدها الـكبير . وجلست فتهيأت انسخ ما كتبت . على ورق مصقول ، تعبت فى سبيل الظفر به وعكفت تتأنق فى الـكتابة والتحبير حتى إذا آن لها أن توقع مقالها وقف القلم بين أناملها عصيا جامداً ... هنالك ذكرت ما كانت نسيته فى اشتغالها بالـكتابة . ذكرت أن أباها الذى أبى أن يخرجها فى سن السادسة إلى دار العلم . وتخلى عنها يوم حملها جدها بالرغم عنه إلى مدرسة البنات يستحيل أن يسمح بظهور اسمها فى الصحف والمجلات وأنه ليؤثر أن يقرأ نعيها فى عمود الوفيات من أن يرى توقيعها فى ذيل المقالات . وهكذا طوت الفتاة ما كتبت وانطوت فى حسرة ويأس ...

وأشرفت على أمها فى تلك اللحظة الحاسمة فبدأ عهد جديد للفتاة الطامحة. لقد وجدت الأم لها مخرجا فكأنما ولدتها مرة ثانية · أنها تستطيع أن تكتب ماتشاء باسم مستعار . ونظرنا معا ، وفى لحظة واحدة … إلى الشاطىء · وأشرق وجه الفتاة بنور شاحب ثم نهضت فوقعت ما كتبت باسمها الجديد« بنت الشاطىء » .

ذلك أن لها مع الشاطىء قصة ·

٥ — القصص التى كتبتها « عائشة » هى مجموعة من الذكريات . مرتبطة بها جميعا . ترتكز على المأساة وتصور نساء عرفتهن فى حياتها . وأنت فى معظم قصصها تحس بها . وترى شخصيتها واضحة … « رأتنى ذات أصيل أتربض وحدى على الساحل · فسألت عن الطفلة السمراء الحلوة التى طالما رأتها فى صحبتى. فالتفت إليها أتأملها · وقد رنت فى مسمعى هذه اللهجة الدمياطية التى لا تخطئها إذن كأذنى · هدهدتها فى المهد ، تلك الأغانى الحلوة ذات الطابع المفرد واللحن المتميز … »

٦ — أبرز صفاتها احتفاظها بالرأى السوى فى مكان المرأة فى الحياة .

« … على أن كبرى الكبائر أن ينسى بعضنا الفروق الطبيعية بين الجنسين أو يتجاهلها أو يسعى إلى إلغائها · مع أن الطبيعة والحياة تأبيان علينا مثل هذا المسخ الذى يريد الأنثى مخلوقا شاذاً هو امرأة بطبعه ورجل فى تطبعه . وكان المرجو من نسائنا أن ينادين باحترام الأنوثة ويتشبثن بها فى حرص واعزاز . ويأبين على الرجال تجاهلها واغفالها · ويحاربن كل دعوة عابثة تنحرف بالمرأة عن فطرتها · وتنأى بها عن عملها الطبيعى · ووظيفتها المحترمة فى الأسرة والبيت والمجتمع ·

وفى حديث للدكتورة بنت الشاطىء تصور بيئتها وأثرها فى حياتها تقول «...تأثرت بتراث الأبوين فقد ورثت عن أبى المزاج المتصوف وحب العلم . كما أخذت عن أمى حسها المرهف وطبيعتها الشاعرية .

وفى طفولتى الأولى كنت أحس ظلالاً حزينة تغشى وتتراكم على الأسرة وفى نفسى منذ مولدى . كما كانت هناك مأساة عاطفية فى تاريخ الأسرة جعلتنى التفت إلى الآم وهموم البشرية منذ الصغر . ومنها أدركت مبلغ شقاء البشرية . وأدركت أيضا عبء الحياة وثقلها وقد صرفنى هذا عن ملاهى الحياة . وجعلنى أتعلق بالكتب فكان هذا مولد أعمالى» .

بشر فارس

يعد « الدكتور » بشر فارس واحداً من أولئك الذين عاشوا تمتلىء قلوبهم بحب اللغة العربية والبحث فيها وتعمقها ومراجعة قواميسها ومترادفاتها وغريبها . بالإضافة إلى فنون البحث الأدبى والعلمى التى عرف بها . وهو من ذلك الرعيل الغيور على لغة الضاد . فقد نشأ فى محيط اللغة والأدب والفقه الإسلامى . كان والده وهو المسيحى أحد الذين درسوا الفقه على المذاهب الأربعة بالزقازيق عام ١٨٦٠ فحفظ ألفيه بن مالك وديوان المتنبى والجريدة التركية التى تحوى مجموعة القوانين .

وكان والده يروى من الشعر مالا حصر له . و « يطارح » أولاده الثلاثة وكانت منشئته وخالة جده تروى له أشعار ابن الفارض . وان يكن درس فى الجزويت فان والده قد لاحقه بالعربية الفصحى على يد الشيخ « زكى المهندس » فدرس وطالع وقرأ وحفظ كليلة ودمنه والأغانى وأمهات الكتب العربية وورث مكتبة والده الضخمة فزادها ونماها . وأضاف إليها من ألوان الكتب الغربية والشرقية .

وقد شغف منذ صباه بالموسيقى فدرسها ودخل معهد الموسيقى الشرقية وأكسبه هذا التنويع العجيب بين الثقافتين العربية والفرنسية وبين اللغة والأدب والموسيقى روحا أدبية ممتازة تجلت فى انتاجه الأدبى ومؤلفاته وآثاره .

وقد نشر أول انتاج له فى المقتطف فى عدد ابريل ١٩٢٧ وكانت قصة عنوانها « جلنار » وكان والده صديقا للدكتور يعقوب صروف . ويقول أن القصة كانت

بتأثير كليلة ودمنه وفتاة اسمها جلنار أحبها الكاتب ولعلها هى التى دفعته إلى السفر إلى أوربا ·

وقد ظل والده متردداً بعض الوقت خوفاً عليه من بريق باريس الخاطف ولكنه استطاع أن يجوز هذه العقبات ويعبر البحر فيدخل السربون قسم الفلسفة ولقد أحس بأنه أقل من حيث الدرجة فى جودة اللغة فعوض ذلك بدروس خاصة بالليل ·

وكانت رسالته التى حصل بها على أجازة « الدكتوراه » عن « العرض عند العرب » عام ۱۹۳۲ ولم يلبث أن درس الموسيقى والفن إلى جوار الأدب وكان زميلا للدكتور زكى مبارك فى هذه الفترة وهناك تعرف إلى رسامة فلندية هى بطلة قصته العالمية التى مثلت فى أكثر من عاصمة من عواصم الغرب « مفرق الطريق » وعاد بشر فارس إلى مصر وكفاه ثراءه عن التوظف وبقى وقته كله ملكا له حيث أعد طابقا لمكتبته على أحدث نظم المتاحف العربية الرائعة .

وعاود بشر السفر إلى أوربا حيث يقضى منتصف العام فى الغالب هناك ثم يعود ليواصل ابحاثه العلمية . وقد سافر إلى المانيا فأمضى بها عاما كاملا درس خلالها الثقافة الجرمانية والأدب الألمانى واهتم بالموسيقى ثم عاد عام ۱۹۳٥ ... ولم يلبث أن سافر مرة أخرى إلى لندن حيث أمضى ستة شهور فى بعثة دراسية كما زار ايطاليا حيث درس فن العمارة بها ·

وقد أصدر فى خلال هذه الفترة عدداً من الكتب « مباحث عربية — سوء تفاهم — مفرق الطريق » ·

وله بعد ذلك ابحاث كتبها بالفرنسية — وأمانته لهاتنافس أمانته للعربية — وطبع منها عدد قليل من النسخ وهما كتاباه « منمنمة دينية تمثل الرسول » و « من أسلوب التصوير العربى البغدادى »

وقد شغله أعداد البحث الأول عامين كاملين وقد نشر بشر فارس ابحاثا عديدة مفردة في خلال حياته الأدبية في الهلال والرسالة والثقافة . كما تولى رئاسة تحرير المقتطف عام ١٩٤٤ بعد أن تركه فؤاد صروف واستحدث فيه باب التعريف والتعقيب وعين عضوا في المجمع العلمي المصري . والمعهد الفرنسي للآثار . ودائرة المعارف الاسلامية التي تصدر في هولندا .

وفي عام ١٩٥١ كان بشر فارس يكتب في بعض الصحف اليومية مشاركا في السياسة مقالات عنوانها « حكم المماليك » ويقول أنه أدخل على أسلوب الصراع السياسي الحزبي لونا أدبيا جديدا .وكان يوقع مقالاته بامضاء « أبو النجم » وقد حضر عدداً من المؤتمرات العالمية في مقدمتها مؤتمرات المستشرقين ويقول أنه حصل علمه بنفسه وأنه ليس له أستاذ ولا كتاب .

وأبرز فنون أدبه « الأدب الرمزي » وهو كما يسميه « البحث عن الأداء والتعبير » وقد وجد طريقه عام ١٩٣٨ في مفرق الطريق التي عاشت في نفسه عشر سنوات كاملة في عملية مخاض طويلة ثم جاءت عملية « الطرد » والافضاء فتم له ذلك في يومين بليلتين . وهي تجربته النفسية الكاملة .

ويرى الذين قرأوها أن « منصور » بطل القصة هو بشر فارس نفسه وقد سبق هذه القصة محاولات لم يكن راضيا عنها .

ويقول «أن الرمزية الأفرنجية ظهرت في أوربا عام ١٨٧٠ . أما الرمزية الشرقية فهي أقرب إلى الصوفية منها الى الأدب . ذلك أن التأملية هي طبيعة الشرق . وقد كنت أحرص وأنا أكتب القصة أن أصورها بصورة جديدة تخرج على

طريقة مقامات الحريرى . ملفوفة وقريبة من أسلوب «الاشارة» الواضح فى القرآن وهو ما اسميه عملية « التمريض » وهذه هى رمزية المعنى لا رمزية اللفظ[1] » وهو يقرر بأن قصته لها جانب فلسفى وهو تصوير الصراع الدفين بين العقل والشعور الذى كثيرا ما يقوم من « الجانب المظلم من النفس البشرية فتتولد عنه حالة شاذة . »

وبشر فارس محب للروح المصرية الخالصة : اللاية الالف والبيئة المصرية الخالصة وهو كفنان رفض الزواج وأحس بأنه يضيع عليه الاحساس بحريته وبأنه محبوب لنفسه . وقد وجد تجربة الحب مرة ومرات .

ولكنه لم ينصرف إلى فكرة الزواج وهو يرى أن الفنان الأصيل متزوج لفنه وأن التزاماته نحو رسالته تتطلب منه تفرغا كاملا ولطالما كانت زوجة الفنان مصدر أزماته ومتاعبه ...

ويقول بشر فارس الشعر . ولكنه مقل . وقد آمن بالتجربة فى عالم الكتابة والفكر منذ صباه يقول فى مقدمة كتابه مباحث عربية « ... عطفنى إلى صناعة الكتابة ميل دفين إلى قول الشعر وصياغة القصص . ومعالجة النقد ثم أنه اتفق لى ذات يوم أن فطنت إلى خفة بضاعتى . إذ وجدت شعرى لا يسفر عن طريف ونثرى لا يكاد يرجع إلى محصول فاعتزمت الاجتهاد وابتغيت النزول إلى مضطرب الحياة قبل التأليف ... »

---

(١) الأدب الرمزى وبشر فارس : ص ٢٠٣ من كتابى نزعات التجديد فى الأدب العربى المعاصر .

ولا شك أن خبرة الحياة هى مادة العمل الأدبى الأصيل . وهو يعزو نجاح « مفرق الطريق » إلى أنها كانت تجربته فعلا ولم تكن من وحى الخيال .

* * *

ولا شك أن بشر فارس قد كسب خبرة ضخمة من أسفاره ومقابلاته لأعلام الفكر فى كل مكان حل فيه ولكن هذه الخبرة تكاد تكون اليوم مقصورة على ابحاث جزئية أو أكاديمية لا تتصل بالجموع العامة ولا بالقراء جميعا وانما تقف إلى حد محدود من العلماء وأهل البحث الخاص .

- ٢٣ -

« سيد » فتحي رضوان

أريد أن أصور هنا جانب الأديب والكاتب فى شخصيته فهو الذى يهمنا فى هذا البحث . أما جانب الوزير وقطب الحزب الوطنى والرجل السياسى والمحامى القوى العارضة فليس هذا مكانه .

وفتحى رضوان أديب أصيل يتعمق موضوعاته . ويتميز بالهدف الواضح . وينحو نحو الفلسفة . وهو فى اتجاهه موضوعى يضاف إلى العقليين . ويعالج موضوعاته فى استفاضة وتبسيط ومرونة . وهو فى مجموعه ثمرة طيبة للمدرسة الحديثة التى رامها الربط بين الوطنية والأدب . ذلك أنه من أبناء مدرسة مصطفى كامل ومحمد فريد التى تنزع إلى دراسة الثورات والنهضات وأعلام السياسة والوطنية . وقد كان من أبرز القادة العالميين الذين جعلهم مثلا أعلى له : غاندى ودىفاليرا ومتزينى واقبال . وشغف يوما بموسلينى وهتلر فى جوانب من حياتهما ما تزال موضع اعجاب رواد الفكر الذين يتطلعون إلى نهضة أوطانهم .

ولقد عاش فتحى رضوان يحلم بثورة مصرية تنقلها من الظلام إلى النور . فى مؤلفاته وكتاباته وخطبه كان يتحدث عن الثورات الفرنسية والايرلندية وهو يمزج بين هذه الثورات وبين الثورة الاسلامية الكبرى التى قادها النبى وصحبه وله كتاب اسمه « الثائر الأعظم » . وفى جميع مراحل حياته كان منطلقا إلى هدف واضح : هو إيمانه بعصر وتطلعه إلى غد مشرق . فلما وقعت ثورة ٢٣ يوليو كانت تحقيقا كاملا لأحلامه .

عرف فتحى رضوان بصفة « المفكر » وقد اتصل بالصحافة منذ وقت بعيد وكان دوره فيها الكاتب صاحب القلم . الموجه صاحب المثل العليا . وقد نشرت له السياسة الأسبوعية والرسالة أعوام ٣١ و ٣٢ وما بعدها مقالات عن تأملاته خلال رحلته إلى تركيا وأوربا والبلاد العربية أبان دعوته إلى عقد مؤتمر الطلبة الشرقيين وكان توقيعه « سيد فتحى رضوان » ، من هذه المقالات « فجر فى الدردنيل » . « فى مقبرة جنوى » . « يومان فى قطار الشرق السريع » . « ساعة فى مدينة جابو » .

وشارك فى مشروع القرش . وحرر جريدة الصرخة واللواء الجديد اليومى والأسبوعى وقد عنى بدراسة الأعلام فألف عن غاندى وديفاليرا وموسلينى ومصطفى كامل وفى خلال حياته المكافحة المناضلة تعرض للاعتقال أكثر من مرة . وشارك فى كثير من القضايا السياسية كقضية عزيز المصرى وكانت آخر اعتقالاته بعد حرق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ وقد ظل معتقلا حتى قيام الثورة . وقد صور مشاعره عن هذه الفترة فى كتابه الخصب « قبل الفجر » .

وقد كان فتحى رضوان واحداً من الذين مهدوا للثورة بمقالاته النارية التى نشرتها اللواء الجديد والتى هاجم فيها فاروق مهاجمة علانية ومن بينها مقالة « عهد الكلاب » الذى قدم بسببه إلى المحاكمة بتهمة العيب فى الملك .

وترجم فتحى رضوان عن ستيفان زيفايج قصة « مارى انطوانيت » وترجم فصولا من كتاب مصر فى عهد كرومر للورد لويد وترجم قصصا لتولستوى وعنده أن قصص (الحرب والسلام) من أعظم ما كتب تولستوى وقد قرأها مرات ويقول عنها « قصة الحرب والسلام لتولستوى العظيم التى أحاطها الخلود باطار من عنده »

وقد كتب القصة الفلسفية الطويلة أخيرا (١٩٥٦) « دموع ابليس » وله مجموعة مقالات فى كتاب « حقائق وأحلام » .

وقد استقبل الدكتور محمد اقبال عند زيارته لمصر عام ١٩٣٢ .

ويمتاز أسلوب فتحى رضوان بالواقعية والوضوح والصراحة : يقول «واعنى العمق الذى يبدو فى عين البقر وهو ينظر إلى ساعها فى هذه العيون السوداء يلمح الانسان تعبيرا محزنا عن فكرة مبهمة غامضة فهل فى قرارة نفس هذا الحيوان خاطر غريب . هل يشكو هذا البكم الذى عقد لسانه . هل يضيق بحياته التى يحياها وما يستطيع أن يبين أن فى عينيه آيات الانتظار الطويل . فهل يترقب هذا الحيوان شيئا . فقد كان الفراعنة يرمزون بالبقرة إلى الحب . ويرون فى عينيها سحراً وتدلها وهياما ... »

فهذه ملاحظة عابرة رآها فى خلال رحلة إلى تركيا تدل على مدى دقته فى تسجيل كل ما يمر به .

يقول « ... أنا ممن يؤمنون بأن مآسى الحياة لا تنفصل عنها فى مهازلها وأن فى كل فاجعة باكية جانبا مضحكا . أو مفارقه تدل على ضعف الانسان وارتباكه. وتدعو إلى الابتسام رغم كل شىء . ولقد أحببت لذلك كل الكتاب والفنانين الذين يؤمنون بنفس الفكرة . والذين يحاولون دائما أن يصوروا المواقف الإنسانية كما هى بجوانبها القاتمة وجوانبها الباعثة على الضحك والسخرية ... »

ومن عبارته هذه تتجلى عمق تجربة السجن والاعتقال والسفر والرحلة والاضطراب فى خضم الحياة والتمرس بأزماتها .

وعن متاعب السجن كتب يقول : درجت على أن أقابل متاعب السجن مضايقاته . وسخف أوامره . وأوامر الحكام الذين أصدروها . بروح الفنان

الذى يبحث عن المهازل وسط المآسى . صحيح أن ذلك فى بعض الأحيان كان عملا شاقا أو كان مستحيلا لأن المآسى تبلغ ذروتها فى بعض الظروف حين يعجز الانسان عن الضحك . ولكنى لم أكف أبدا عن هذه المحاولة مشبها نفسى فى تلك الاحوال بالقطة التى تبحث فى زبالة بيت الفقير عن قطعه من اللحم » وهو يؤمن بالخلوة فى السجن ويراها حقا له « ... حق الخلوة هو فى رأيى جوهر الحرية أن ضاع ضاعت معه . والحرية الباطنة أن تخلو إلى نفسك بعض الوقت بعيداً عن أعين الناس ورقابتهم وفضولهم وتطفلهم — أى أن يكون لك حياتك الخاصة فتقول لنفسك هذه المرة ما يحلو لك وتأتى من الحركات والسكنات ما يطيب لك وأن تفصل نفسك عن المجتمع وتكاليفه ونفاقه ومجاملاته .

فى الوقت الذى أريده ، أقفل باب زنزانتى على نفسى . وأروح وأغدو فيها أذرعه جيئة وذهابا . ثم التقط الكتاب الذى أريده . فانتقل من عهد الفراعنة إلى بلزاك ومن القانون إلى مذكرات لوندروف . ثم أجلس فوق سريرى محدقا فى الأسماء مستعرضا الذكريات والأحلام وهى تبنى وتنهار وأراجع الأشياء والأمور والقرارات واضحك وأبكى وافعل فى الخيال كل الذى فقدته فى الواقع ... وأخرج وقد جددت قواى فى هذه العزلة الرقيقة ... »

وقد صور فتحى رضوان طريقته فى الكتابة فقال :

« أكثر ما أكتب يبدأ بعد أن انتهى من قراءة طويلة لا أبغى منها إلا أن أتعلم وأفهم — فاذا امتلأت نفسى بما قرأت ألم بها ضيق واحدقت بها حيرة فلا تجد لها متنفسا سوى أن أكتب . فأ كتب لنفسى غير متقيد . ولا ملتزم نظاما فلا أدرى بعد حين هل أنا بسبيل اخراج كتاب أم هذا الذى أكتبه ليس سوى حديث إلى نفسى وأن عيون الناس لن تطلع عليه » .

وفتحى رضوان الذى شغل نفسه بدراسة تراجم العظماء يصور مذهبه في الكتابة فيقول « الترجمة للعظماء فى هذه الأيام باتت فنا من فنون الكتابة يضع فى خدمة الكاتب مواهب شتى . منها التعمق فى دراسة التاريخ الجاف . وبذل الجهد فى العثور على وثائق جديدة . لم يصل إليها بعد . واستقراء القديم منها واستنباطه ثم الانتقال من هذا الجانب العلمى البحت إلى الجانب الفنى البحت فيوقظ الكاتب فى نفسه ملكات القصاص والشاعر والمصور ليحيل الترجمة إلى قصة وليتخذ من القصة وسيلة إلى الايحاء والدعوة إلى فكره ... »

ويصور الفنان بقوله : الفنان الناجح هو الذى ينقل إلى الناس الاحساس الذى يخالجه . وكأنه يتسلل إلى نفوسهم فى غفلة منهم . فإن أفكاره قد أصبحت أفكارهم وإحساساته قد باتت احساساتهم . وهو يتخلى عن هذه الأفكار ويبقون هم ، متمسكين بها ، لايبغون عنها حولا ... »

ورسم صورة النفس الانسانية : « النفس الانسانية كالجسم الانسانى إذا ضعف أحدهما سطت عليه الجراثيم والأدواء . والخوف هو أعدى أعداء النفس الانسانية واخطر أمراضها . ويكفى أن تخاف لتضعف هذه النفس حتى تبلغ أحيانا ما هو أحط من مراتب الموت » .

ويحلل عوامل النفس الانسانية فى عظمتها واتضاعها مستوحيا التاريخ فيقول : « أن مرد القدرة على الأتيان بالأعمال الباهرة لا تأتى من صفات مجهولة ، بل تنبعث من صفات بسيطة يتحلى بعضنا ببعضها . وهذه البساطة هى محنة العظمة وسرها العميق أيضا . فقد كان « كاشياس » زعيم المحرضين على قتل « يوليوس قيصر » يتساءل كيف يعجب الرومان بيوليوس قيصر . وقد سمعه يهذى حين اصابته الحمى رآه يصرخ طلبا للنجاة حينما كان يسبح فى نهر وكاد يغرق . لأن

كاشياس يتصور أن العظماء لا يستحقون الاعجاب إلا إذا كانوا من غير طبقة البشر فإذا أصابتهم الحمى · فرحوا بها وسروا سروراً عظيما وإذا غلبهم الموج غرقوا وهم يضحكون ... »

وهو فيلسوف عميق الفهم للشباب « أن الشباب الذى يؤمن لا يحزنه إلا أن تفتح له أبواب النجاة · لأنه يطلب دائما سبيل الفناء لأن هذه النهاية هى فى رأيه البداية · البداية لعهد يسود فيه المثل الأعلى الذى باعه حياته ودنياه · فلا تبحث عن ثورة فيها الشباب الوقود واللهيب · إذ أن كل ثورة هى ميدان الشباب ومجاله وثمرة آماله وخياله » ·

وفتحى رضوان يحب مصر ويتغنى بها . وهو فى هذا تلميذ صادق لمصطفى كامل وفى كل أسفاره ورحلاته تعيش مصر معه فى أحلامه وأفكاره وخواطره يقول « سافرت إلى أوربا وتمثال رمسيس يملأ خيالى ... فلقد راقبت فى شغف شديد · هذا العناء الذى كابده العمال والمهندسون · وفى كل مرة لا أخرج من هذه التأملات إلا بمعنى واحد يملأ عقلى وشعور واحد يملأ نفسى ... ذلك أن المصرى هو أقوى الأقوياء » .

ويقول عن مصر « مصر ... هى جزء لا يتجزأ من تاريخ كل امبراطورية . وكل عظمة وكل عقيدة وكل دين »

وفى نقده لقصه يقول « الرأى عندى أن سر نجاح القصة هو حياة القصاص نفسه · والمشاكل التى يكابدها والمشاغل التى تساوره والهموم الروحية التى تنازعه . فالقصاصون العظام الخالدون لم يبدأ فنهم إلا ببدء آلامهم ، وبمولد مشكلة روحية كادت تفتك بحياتهم ... »

* * *

من جماع هذه الملامح والعبارات تتجلى صورة فتحى رضوان الكاتب الواقعى الذى جعل لأدبه هدفا واضحا محدداً هو : الحرية والوطنية فهو محب لوطنه شغوف بأن ينقل إليه كل صالح يجده فى أى مكان . وهو ثائر درس تاريخ الثورات وآمن بالحرية وجعلها رسالته . وهو وطنى يفهم تاريخ مصر القومى فهما نقيا جديداً . يختلف فيه عن الفهم العامى الذى فرضته الصحافة الحزبية فى خلال فترة ما بين ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ . وقد صور هـــذا الفهم فى أحاديث أذاعها وجمعها فى كتابه « أخى المواطن » .

وهو صاحب « نظرية الهويس » فى تقارب المذاهب الشيوعية والرأسمالية والتقائها فى مذهب وسط متقارب هو « الاشتراكية » .

وهو فى اتجاهه الفكرى يمزج بين المصرية والعربية والاسلامية .

الشبيوبان

هما خليل شيبوب وصديق شيبوب . أما خليل فقد غادر دنيانا ومضى مخلفا لنا شعراً يحترق باللوعة . ويفيض بالحرمان . ويرسم صورة النفس الحساسة العميقة الحسن المتطلعة إلى جمال الوجود .

ولد[1] فى اللاذقية على البحر المتوسط . وغادر الشام فى التاسعة عشرة (١٩١٨) إلى ثغر آخر هو الاسكندرية حيث بدأ نشاطه الأدبى باصدار ديوانه « الفجر الأول » عام ١٩٢١ — وبريد الثلاثاء فى جريدة البصير ١٩٢٦ وقد نشر انتاجه الشعرى فى كوكب الشرق والأهرام وأبولو والرسالة والحديث والمقتطف ويتلخص مذهبه الأدبى فى قوله :

« أنه يجب التعبير عن المعنى الصحيح باللفظ الفصيح . وكل معنى لا يجد فى الذهن صورة نادرة أو فكرة سامية فهو سقيم وكل لفظ يصور المعنى بوجه التقريب . أو يكدر صفاء الصورة فى الذهن فهو عقيم . ونحن اليوم أكثر ما نكون حاجة إلى ابتكار المعانى وتنسيقها وجلائها والتعبير عنها بلفظ يلائمها ... »

وقد أحب البحر وكان لأبى قير وسيدى برانى نصيبا كبيرا فى شعره . فقد عاش فى أبى قير عدة سنوات ... وكان للغارات الجوية التى وقعت أبان الحرب العالمية الثانية على الاسكندرية أكبر أثر فى نفسه .

---

(١) ٢٨ يناير ١٨٩٩ .

أرى البحر مرآة هـذى الحياة فهو يحاكى مداها اتساعا

وابعاده مثـل ابعادها تضـيق على الفهـــم أن يســـتطاعا

ونحن كأسماكه فى الوجـود يغول الـكبير الصغير ابتلاعا

وكان لخليل فى شعره نظرة الفيلسوف ولمحة المشوق وعاطفة المحب .. فهز شعره القلوب

وأبرز صفات خليل الوفاء . وقد كانت حياته صورة من عقيدته وشعره صورة من حياته .

وعرف بجزالة العبارة . وفخامة الأسلوب . وعذب النغم وهو يرى أن الشعر ليس وحيا يهبط من السماء . وليس قائلوه من الأنبياء وانما هو قوة فى الشعور والخيال . وقدرة على تصوير هذه القوة حتى تدخل فى حيز من المكان والزمان ».

* * *

أما صديق شيبوب فهو الناثر الذى حول عاطفة الشاعر إلى الترسل .

خرج من اللاذقية شابا وعاد إليها بعد سبع وعشرين عاما فاستثارت فى نفسه عاطفة الشباب ...

« الجبل والبحر . صورتان لا تنقطعان فى هذا الطريق الطويل . صورتان للحياة . البحر نغمة من نغمات الأبد تموج صفحاته كأنها الأقدار التى تتأرجح عليها حياة الناس فهى تتقاذفهم فى دفع وجذب كما تتقاذف الأمواج المركب الشراعى الذى يظهر لنا ماخراً عبابها .

والجبل : أن الجبل هو رمز القوة التى تسيطر على الحياة من نظم ومبادىء وشرائع . أنه تلك القوى الراسخة التى تتحكم بمصائر الناس الجاهلين لمصدرها ومدى عنفها وبطشها » .

وقد عاش صديق شيبوب حياة أدبية خصبة ٠ قارئا ومترجما ومشاركا في الحياة الأدبية بانتاج ضخم قد لا يكون هناك من يلتفت إليه لأنه ينشر في جريدة البصير عدا مقالات أخرى نشرت في الرسالة والأهرام والثقافة خلال هـذه السنوات الطويلة ... وبضعة مؤلفات .

وصديق شيبوب يقدم كل أسبوع مقالا أدبيا ممتازاً مدروساً يعرض فيه كتابا حديثا مترجما من الأدب الغربي . فهو يتابع تطور الفـكر العالمي متابعة صادقة وهو يواصل هذا العمل منذ عام ١٩٢٦ أي أنه كتب على الأقل ١٥ ألف مقال وترجمه وبحث وقصة ٠ وقد عمل هذا صامتا لم يعلن عن نفسه ٠

ويجمع صديق في نفسه بين روح مصر والشام ٠ ويتابع اللاذقية والاسكندرية قدم من اللاذقية مع شقيقه وأقاما في الاسكندرية حتى توفي خليل في نوفمبر ١٩٥١ بعد أن أصيب بانسداد في الشرايين الأكليلية للقلب ٠

وأحب صـديق الصوفية ٠ فقد عرفها متأخراً عندما وقع في يده ديوان ابن الفارض عام ١٩٣٩ وقد هدته إلى دراسته أدبية عربية كبيرة زارت الاسكندرية وهو يقول في هذا « ولا شك أن لابن الفارض مكانة خاصة في شعرنا العربي لأنه يكاد يكون الوحيد الذي عالج شعر الصوفية على النحو الذي نحاه شعراء الفرس والترك أمثال العطار والرومي وسعدي وحافظ ، وقد دفعه هذا إلى زيارة قبر ابن عربي حين زار دمشق عام ١٩٣٥ . وقد ذكره بذلك أن خطا من خطوط الترام هناك يطلق عليه الشيخ محيي الدين ... ولم يكن يذكر أن ابن عربي هو محيي الدين ... وقد صعد إلى الجبل حتى وصل المسجد فلما جاء موعد الصلاة حاول التخلص من الشيخ وخشى أن يضيق به لو عرف أنه مسيحي .

ويعجبه من ابن عربي قوله « السفر هو عبارة عن القلب إذا أخذ في التوجه إلى الحق تعالى » .

وقد شارك صديق فى دراسات متعددة ومشاكل مختلفة ودراسات منوعة مما جرى فى محيط الأدب العربى المعاصر • شارك بالرأى القوى فى تبسيط اللغة العربية والشعر القديم والمكتوب والمسموع وشارك فى جمعية نشر الثقافة التى خرّجت عدداً كبيراً من أدباء الاسكندرية وكان من أعمدتها عبد الرحمن شكرى وزكى أبو شادى وعلى أدهم وعبد اللطيف النشار ومفيد الشوباشى وخليل شيبوب •

وقد حرص صديق ألا يجرفه العمل الصحفى واستطاع إلى حد كبير أن يظل صامداً فى مكانه الأدبى •

وقد قرأ صديق فى الأدب الأوربى وتأثر بنزعات الغربيين فى الفكر شأنه شأن هذا الجيل الذى ظهر بعد جيل الرواد ولكنه ظل الكاتب العربى الحريص على عروبته وإيمانه بالشرق • وقد امتزجت فيه الوطنية العربية والسورية ، هذا إلى أسلوب سهل وبيان واضح . وقـــدرة على النقد دون جرح أو أساله دماء • وعمق فى الفهم وتمكن من اللغة • وكفاءه فى تقدير الآثار الأدبية ورسم مكانها فى النهضة .

طاهر الطناحى

يعد طاهر الطناحى « المسجل » الأدبى للحركة الفكرية فى مصر منذ عام ١٩٣٣ حتى الآن . فقد ارتبط منذ ذلك التاريخ بالمجلة الأدبية الضخمة « الهلال » فمضى معها . ثم وكل إليه الاشراف عليها . وهو فى خلال هذه الفترة التى تزيد عن ربع قرن كان طاهر الطناحى يعيش مع كافة هذه التطورات ، ويتصل بأعلام هذه الفترة ، وتصل إلى يده نبضات أفكار المفكرين فترسم فى ظل المجلة الكبرى تيارات الفكر العربى المعاصر .

وتومىء هذه الصورة من بقاء الكاتب فى مكانه ربع قرن إلى طبيعته الصابرة الهادئة ، المتئدة ، التى عرفت مكانها واستقرت فيه وظلت تعمل فيه بإيمان راسخ .

وقد بدأ طاهر الطناحى حياته فى « دمياط » الثغر الساحلى الجميل الذى كان له فى نفسه أثراً شاعريا فهو محب للطبيعة والبحر والجمال وفيه من دمياط روح الشعر . وهو ما يزال يحن إليها .

وفى القاهرة عندما وصل إليها عام ١٩٢٣ اتصل بالأوساط الثقافية والفكرية واندمج فيها … مدرسة القضاء الشرعى ودار العلوم والجامعة المصرية الأهلية وفى هذه المحالات اتصل بأعلام الفكر المعاصر . طه حسين . المنفلوطى . منصور فهمى فى الجامعة القديمة وأحمد أمين وعبد الوهاب عزام وأمين الخولى والعبادى فى مدرسة القضاء .

وعرف المنفلوطي وعبد العزيز شاويش . في ميدان الصحافة ومحمد عبد المطلب وعلي الجارم في دار العلوم ...

واتصل بالسياسة الأسبوعية حيث بدأ ينشر فيها قصائده ورد على صديقه محمد الأسمر عن شكوى الزمان .

وفي البلاغ بدأ يكتب مقالاته عن الزي في دار العلوم ... عام ١٩٢٦ فقد حمل لواء الدعوة إلى تغيير الزي إلى الملابس الأفرنجية وخاض مع أصدقائه معركة كبرى انتهت بانتصارهم .

ويعتز طاهر الطناحي بصداقته للعقاد التي تمتد منذ ثلاثين عاما .

وقد أحب الكاتب « محمد عبده » وقرأ مقالاته جميعها وشرحه لنهج البلاغة وشغف بأسلوب المنفلوطي وكتبه وقرأ أرسطو وجوستاف لوبون ولزوم ما لا يلزم لأبي العلاء وأعجب برثاء عائشة التيمورية لابنتها . كما شغف بأشعار البارودي وشوقي في مصطفى كامل .

وهو يحب أن يعيش مع رجال الفكر الانساني : في الشرق والغرب والقديم والحديث .

والكاتب في شعره ومنهجه الفكري يؤمن بالايجابية . ونقل الأزمات الفكرية من ميدان الشكوى إلى ميدان الحل والعمل . ويرى أن الانسان بذلك يكبر على الأحداث . ولا يكون عبدا لها ...

ورسالة الكاتب عنده هي خدمة أمته ووطنه ولغته . وأن يكون أدبه صادراً عن إيمان عميق يعطي لفكره تلك النبضات الحية . ويرى أن ثقة الكاتب بنفسه تبعث الثقة في نفس قارئه .

وأحب شخصيات التاريخ إليه « محمد » ليس لأنه نبي ، وانما لأنه رجل عظيم قام بدعوة ضخمة . استطاعت أن تقضى على دولتين كبيرتين كالفرس والرومان .

وأجمل فضيلة فى نظره هى القناعة وهو يقول مع مسلم بن الوليد :

ما كل فوق البسيطة كافيا　　فاذا قنعت فكل شيء كاف

وقد ألف أول كتاب له عام ١٩٢٧ وكان مجموعة من القصص باسم « الليالى » وهى فى نهجها قريبة من أسلوب « العبرات » ... للمنفلوطى ويقول الكاتب أن فى أعماق نفسه حب التمدن والتفنن والتنويع والميل إلى التجديد فى العمل الصحفى . وأن يرى الصحافة ثقافة وفنا جميلا .

وهواية الكاتب هى القراءة فهو يعكف عليها الساعات الطوال . وينسى من أجلها كل شيء ...

وقد أتاحت الرحلة للكاتب تجربة أخرى فقد سافر إلى إيران والعراق وسوريا ولبنان والسودان . وذهب مع نهر النيل إلى السوباط ...

ومن مؤلفاته « ألحان الغروب » وأمير قصر الذهب . وعلى ضفاف دجلة والفرات ... ويعد كتابين جديدين للنشر أحدهما عن الكاتبة « مى » والآخر عن « خليل مطران » .

وهو من المؤمنين باللغة العربية ويرى أنها لغة حضارة ضخمة . هذه الحضارة التى أثرت فى العلم الحديث . وأخذ عنها الأوربيون الفلسفة العربية . كما أخذ الأوربيون القوافى المثناه من الأدب الأندلسى . وكانت الموسيقى العربية هى مصدر الموسيقى الغربية .

ويرى طاهر الطناحى أن الأدب فى الماضى كان يخدم السياسة ويخدم الحكام

ثم صار فى العصر الحديث يخدم الشعوب والجماعات ويخدم النهضات الوطنية وهو ما يعبر عنه بالأدب الوطنى الذى يعمل لتكوين المواطن الصالح وتكوين الشخصية الوطنية للأمة . وقد ظهر هذا الأدب فى مصر منذ ظهرت فيها الحركة القومية فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . ولكن الأدب الوطنى لم يزدهر إلا فى أواسط القرن التاسع عشر . ثم فى النصف الأول من القرن العشرين . وقد ظهرت طائفة من الكتاب والشعراء كان لها الأثر البالغ فى تاريخ الوطنية المصرية وهو فى حديثه هادىء وعميق ومنطقى .

يقول فى بدء العام الجديد « ... أكتب الساعة وأنا أعلم أنه لم يبق من العام غير أيام . يمضى الأول بخوفه وأمنه وفرحه وحزنه وبضحكته ودمعته . بعد أن كشفناه فلم يعد فيه ما يكشف . وعرفناه فلم يعد فيه ما يعرف . ويجىء الثانى فلا ندرى أنخاف فيه أم نأمن . ونفرح أم نحزن ونضحك فيه أم نبكى . لكنه لا يلبث أن يتكشف لنا على القلق يوما بعد يوم . فاذا المخبوء مكشوف وإذا المجهول معروف . وما يتوقع سواسيه ، لافضل لسابق فيها على لاحق . لأن الخير فيها يموت والشر فيها يموت . والأشياء على الموت يسوى بينها البلى فحاضرها واحد . وان اختلف منها الأمس قريبة والبعيد .

على أنه مهما كان حاضر الأمور ومآلها . فعلى الحى أن يأمل ما وسعه الأمل وأن يتمنى ما حلت له الأمانى وأن يحمل قيثارته إلى صدره فيضرب على أوتارها بالنغم العذب وهو يجرى الحياة فى شعاب الأرض ، لعل الأقدار تعطف وتميل فيكون كل ما يجىء به سعدا . »

وفى هذه الصور يعطينا طاهر الطناحى روح التفاؤل التى عرف بها فى كل آثاره . وطبيعته الطليقة المتدينة التى لا تنقبض ولا تتشاءم وتواجه الحياة فى إيمان .

ولكنه على طبيعته الهادئة يحب الاقتحام والعمل البنّاء .. يقول « لقد أفسد السلم المتواصل على الشرق قلوبه . وإلا فأين الأعمال الكبيرة السريعة التى تضارع المخاطر الداهمة كبرا وتضارعها سرعة » .

والكاتب شغوف بالصور الاسلامية الرائعة التى تعرضها ألف ليلة والأغانى وقد كتب عدداً منها فى الهلال . كما شغف بنظم الشعر وترجمته من الانجليزية إلى العربية شعرا . ومن أظرف ما كتب فصول حديقة الأدباء حيث صور الأدباء فى صور الطيور .

عبد الوهاب عزام[1]

«الرحالة الذى كتب عن رحلاته أروع فصول الأدب والتاريخ . والأديب الذى عنى بالأدب الفارسى وبرع فى دراسة شخصياته ومعالمه . والجامعى الذى ولى العمادة فى كلية الآداب . والوزير المفوض الذى مثل مصر فى الحجاز والباكستان . وهو فى التاريخ العربى الحديث أشبه بابن بطوطة فى التاريخ العربى القديم ، تتميز آثاره الأدبية بالاناقة وتتسم بالاتزان وتنم كتاباته عن روحه الهادئة المطامنة .

متمسك بالخلق والدين . ممتز بالعروبة والشرق . يسكب روحه المؤمنة على الورق فى اشراق . ويرسل قلمه الموثق فى أفاضة ووضوح . فلا تحس فيه غموضا أو التواء .

طاف العالم العربى . وصعد إلى تركيا وصوب إلى أقصى المشرق ووقف عند كل بقعة لها فى التاريخ ذكر . واستروح نسائم الماضى فى أماكن الغزوات والجهاد . وزار القبور والمساجد والقصور .

واستعاد ذكريات الرجال والأبطال والبلغاء والعلماء . وأنت إذ تمضى معه تراه نعم الرفيق يجنح بك إلى هذا البلد أو تلك المدينة فيحدثك عمن كان فيها من الأعلام والأبطال وعن أمجادهم وآثارهم . فلا تجد الرحلة عنده مادة قائمة على الواقع والحاضر وحده بل تراها صورة ممتدة خلال العصور وعبر القرون .

وهو فى ذلك كله رقيق هادىء . فى روحه الحسرة على الأمجاد التى انطوت وغابت . وفى بيانه الأمل فى المستقبل الذى يكاد يتألق ويشرق .

(١) ولد فى بلدة الشوبك فى أول اغسطس ١٨٩٥ .

تلحظ فى أدبه معالم الثقافة الخصبة والذكاء النفاذ . والصدق فى الفن وتراه يشرق ويغرب لا يمتوره الملل . ولا يضيق بالطريق .

وقفاته عند المسجد الأقصى . وعند جامع دمشق . وعند قبر المأمون . وعند مثوى الغزالى ... وفى تاج محل . كلها شاهدة على ذلك الحب الأكيد لأمجاد العرب وتراث الإسلام وروح الشرق ...

وفصول أخرى فى الأدب الفارسى وشخصياته ورجاله . ومعالمه وتاريخه والشاهنامه . وكلماته المنوعة فى الاجتماع والتاريخ والسياسة كلها خلاصات ذهن مرتب . ونفس عالمه . وقلب مضيء ... »

ذلك هو عبد الوهاب عزام كما صورته عام ١٩٥١ واليوم أعود لدراسة حياته فأجد أنه كان مؤذنا فى سفارة مصر[1] بلندن . وقد بنى نفسه بنفسه وتعلم ودرس . وأقذى بصره تحت أضواء المصابيح . ورسالتـــه عن الشاهنامه تشهد بتفوقه فى دراسة الانجليزية والفارسية . فقد أعد لها مقدمة وافية تستوعب تحقيقات علمية دقيقة عن القصيدة وأصلها وتاريخها وملامحها . وعن نشوء الملاحم الصغيرة والكبيرة . وعن الفردوسى ناظم الشاهنامه . وعن أبطال القصص وما حوته من أخبار الأمم والشعوب . وقد نال بهذه الرسالة إجازة الدكتوراه .

ولعل نزعته الصوفية هى التى دفعته إلى الفارسية وشعرائها فهو من الذين يكلفون بأدب جلال الدين الرومى صاحب المثنوى . والشاعر اقبال الذى ألف عنه كتابا وترجم له أكثر من ديوانين وهو إذا تحدث عن جلال الرومى ذكره بالتقدير ...

« ... يقول مولانا جلال الدين عن سنائى والعطار وعن نفسه « أن سنائى كان روحا والعطار كان عينين له . وأنا جئت فى أثرهما . ولكن هذا القول تواضع

---

(١) تعلم فى الازهر ومدرسة القضاء الشرعى واشتغل مدرساً بكلية الشريعة وكلية اللغة العربية وجامعة القاهرة .

من جلال الدين لأنه يعتبر الأول بين شعراء التصوف . فكتاب المثنوى يسمى القرآن عند الفرس . ففى المثنوى وغيره من كتب الشعر الصوفى يجد الإنسان أسمى الحقائق الفلسفية الاسلامية ممزوجة بالشعر والخيال الواسع ... »

وأبرز مظاهر أدب عزام استيحاء التاريخ الاسلامى وملامح الصوفية النقية . وهو كاتب وشاعر . روحه العربية خالصة وشخصيته هادئة فذة وأنت حين تقرأه تحس أنه أنيق السمت هادىء النفس يستقبل الحياة فى طمأنينة . له بالله صلة وفى أسلوبه نقاء وان لم يكن له طابع خاص . ورأيه فى المدنية الحاضرة أنها « مدنية زائفة »

« ... المدنية الأوربية على خيراتها — وما أجدت على الناس من علمها ورفاهيتها . مدنية مادية دعائمها المعادن والأحجار . يصاغ قلبها من الذهب والحديد وأشباههما . ويغذى بالفحم والنفط واخوانهما . وتدور بها دواليب المصانع والمنازل والمناسج ... طبع انسان هذا العصر إليها دائراً لا يألف الاستقرار ولا يعرف السلام . ولا تتمكن فى قلبه المحبة ولا تستقر فى سريرته الشفقة ... » .

فقد كتب فى التصوف مقالاته فى الرسالة ثم جمعها فى كتابه عن التصوف وفريد العطار . وله مقالات عن « عين جالوت » . « بلال يؤذن » ، « من مؤته إلى اليرموك » ، « المنصور بن أبى عامر » ، « ضربات معول » ، « عمر فى بيت المقدس » .

وهو من مدرسة الزيات ومصطفى الرافعى فى الفكر ، هذه المدرسة التى تشغف بأمجاد العرب والاسلام . وان كان أسلوبه أقرب إلى أساليب العلماء منه إلى أساليب الأدباء .

وقد طاف عزام بالشرق والغرب طواف باحث ، سواء أيام تلقيه العلم فى لندن

(١٩٢٥ - ١٩٢٧) أو فى العالم العربى والإسلامى والهند والباكستان حتى وصف بأنه ادريسى العصر الحديث .

وكان قد بدأ أسفاره عام ١٩٢٩ إلى اسطنبول ثم تابع أسفاره إلى الشام والعراق وإيران للمشاركة فى حفلات الفردوسى وعمل بالعراق سبعة أشهر ، وزار الحجاز عام ١٩٢٧ وسافر إلى أوربا وبروكسل .

وقد سجل خواطره وذكرياته فى كتابين « رحلات عزام » وكان يقول كلما لام نفسه عن التأخير فى تسجيل خواطر أسفاره يقول : أن المشاهد التى لا يبقى أثرها فى النفس سنتين لا تستحق التسجيل » .

ويقول فى وصف رحلاته : أتاحت لى الأسفار رؤية كثير من البلاد التى قرأت عنها ومكنتنى من التوسع فى درس اللغات والآدات التى عرفتها من قبل وقد حرصت على أن أرى كل الآثار التاريخية فى البلاد الاسلامية والعربية ولا سيما ما ذكر فى القرآن الكريم والسيرة والتاريخ الاسلامى وكتب الأدب » .

وقد صور الدكتور عزام نفسه فى مقال له عنوانه « إلى بثينة .. وكذلك خلق أبوك قيثارة تسر وتشجى . وتضحك وتبكى . وكذلك صب فى قلبه مرارة البحار . وعذوبة الأنهار . ليس بينهما برزخ . وهو الصخرة تقدح الشرر . وتنبثق عن الينبوع السلسبيل . أما رايتنى يابنية واجما مكتئبا . فلا تمنى على فتنكى جرح الفؤاد . وتفيض عليك بالحزن كل واد ولكن أصبرى للعاصفة حتى تمر . وللنار حتى تهمد . فإن أشفقت على أبيك أن يملكه الحزن ويزلزله العذاب فسارعى إلى بيانك . واختارى أسعد الأغانى . ثم تلطفى فى العزف ... »

وقد صور نفسه فى موضع آخر « ... لقيت الحياة مبتسما . ونشأت مترنما . أطالع تباشير الصباح مرحا كالأطيار . قد نما مع الأشجار ثم نفذ الفكر إلى ماوراء

الظاهر وتطلع إلى ما فى السرائر · فانبهم العالم واستعجم فإذا كل شىء مبهم · فالفكر فيما وراء الحجب جائل . وكل سر هنالك هائل · والضوء هنالك ضباب والبصر حجاب ·

... امحت الأشكال وخفيت الألوان · وعبثت الريشة فى يد الراسم وحار العلم فى يد الشاعر ... »

وقد أتيح لعبد الوهاب عزام أن يحقق أمله فى دراسة الآثار الاسلامية ومعالم الحضارة الاسلامية · أستاذاً وزائراً وسفيراً لمصر فى الباكستان والحجاز ·

وكتاباته الأخيرة فى هذه الفترة هى عبارة عن خواطر أشبه بالصلوات والتأملات يسبح فيها قلمه وتنطلق روحه : ومن ذلك كلمته « فى الحجاز » التى يصور فيها عاطفته ومشاعره ·

« ... الليل مهود وسنان . ترى العين سكونه · ويحس القلب سكينته · ونسيم السحر يسرى رفيقا ينضح الخليقة · لا أدرى أيبغى ايقاظها أم أنامتها · والقمر ينضح السكون بأشعته · يخفق مع النسيم نوره · وقد أصمت السماء إلا قزعا فى الأرجاء · وتبدو فى سكون الليل ونور القمر قمم الجبال : خندمه وأبى قبيس وأجياد ·

والليل هاجع والخليقة نائمة · ولكن هذه القلوب الوالهة لا تهجع · ولكن هذه العيون الباكية لا تغمض · ولكن هذه الزفرات المرددة لا تسكن ... ولكن هذه الألسنة الذاكرة لا تفتر · قد استوى ليلها ونهارها وعشيها وأبكارها ·

كم قلب محزون حمل إلى هذا الجناب شكواه · وفؤاد معذب يبث فى هذه الساحة نجواه · وكم آثم حط فى هذا الفناء الأوزار ليمحقها بالتوبة والاستغفار ··

كم نفس مظلومة ترفع ظلاماتها وكم مكلوم جاء بجراحاته وأرسل آهاته وأناته .
كل ضارع على هذا الباب . خاشع عن هذه السدة . ووراء هؤلاء من المشرق والمغرب
قلوب توجهت شطر البيت كما تتوجه الابر إلى القطب . وتزع إليه نزوع الغريب
إلى ولده وداره . فكم مصل من أرجاء الأرض من ولى هذا الجانب وجهه وقلبه .
وكم داع قصد هذا القصد على بعد المزار ونأى الدار .

أرى الدعوات تهفوا على الكعبة مع هذا النسيم . والصلوات تنزل عليها
فى هذا الضوء . وأسراب الآمال طارت فى المغرب والصين لتطوف مع الطائفين .

ما أروع هذا مشهداً . صلاة ودعاء وطواف وبكاء يسيل بها الأصباح والامساء .
من لى بخلوه فى هذا الزحام . والوحدة فى هذه الكثرة . والسكون فى هذا
العباب . والفرار فى هذا المحشر . من لى بان أقف على الساحل من هذا البحر
لأرى وأسمع ... »

وفى كلمة أخرى عنوانها « على حافة الفجر وشاطىء النيل » .

« رقى الفكر إلى هذه المشاهد العلوية ، فيوغل فيها ثم يوغل حتى ينبهر .
فيهوى حسيراً . رتاعا كشيطان رجيم يلتمس مكانه على الأرض . يهول الفكر
هذا العظمة التى لا تحد . والجلال الذى لا ينتهى . والعلم الذى لا ينال .

ثم يعيا وينبهر فيهبط إلى أرضه ومكانه ووقته وزمانه . ولكن بصره إلى
السماء . وهمته إلى العلاء . وطموحه إلى الإدراك فى الأفلاك وما وراء الأفلاك .

وهكذا يعلوا ويسفل . ويتقدم ويحجم . وينزع ويرجع . حائراً بين كونه المحدود
وطوقه المجهود . وبين طموحة الذى يأبى القيود . متردداً بين عالمه الأصغر والعالم
الأكبر . بين نفسه الصغرى والحقيقة الكبرى . بل بين الانسان والله ... »

ويقف أمام بحيرة « وندمير » فى ١٣ سبتمبر ١٩٢٦ فيكتب :

« ... الآن أيتها البحيرة أجلس على شاطئك وحيداً لأبعث فى ثناياك خيالا من الخيالات التى تمر عليك ليلا ونهاراً . ليت ضوضاء الناس تتركنى لنفسى لأحدثك حديث القلب . وابثك مافى الضمير .

حدثينى أيتها البحيرة كم طوت أحشاؤك أخيـــلة على أخيلة . كم خط فى القرطاس سطر على سطر . كم شهدت صفحتك من جذلان ومحزون . وممتع بالحياة ومغبون . كم شهدت من قلب للقاء الحبيب خفاق . وآخر يمزقه الفراق .

ليست شعرى لو تفتحت صفحاتك عما حوت . ونشرت سريرتك فانطوت . اتسكونين على صفرك تاريخ الطبيعة والإنسان فى السراء والضراء . كذلك تمر أشباحنا سراعاً على مسرح الحياة تضطرب ظلالها على الأرض . ويردد صـداها الهواء .

ثم يزول الظل ويفنى الصدى ولـكنك أيتها البحيرة أبقى على الزمن وأثبت على المحن فاضحكى على الانسان أو فابكى عليه . ومهما تسخرى أو ترثى فاحفظى فى صدرك مع الظلال المتراكة صورة فتى ركب الزورق على صفحتك وحيداً . وخطا على ضفافك فريدا . وأطال الفـكر فى ارجائك . وقلب الطرف فى أرضك وسمائك ... »

ويصور دقاقة الجامعة « نوفمبر ١٩٤٤ » .

« ... أيتها الدقاقة الهائلة فى برجها الرفيع . أأنت قلب الزمان الخافق وعرقه النابض . أم أنت تمثال الزمان الماثل ونداؤه الهائل . أأنت مرور الدهر قد تجسم أم أنت نشيده بالرنين يقسم . أوجهك هذا الفلك . وهذه الاثنا عشر بروجه . الست تسمين الزمان كله . وليت شعرى : أعقربان هذان أم هما الحدثان يسيران والملوان يتقلبان . والفتيان يلعبان أو يجدان ... »

وهو فى خواطره هذه يكشف عن نفسية العالم الصوفى الدقيق الحس فاذا عرض لآماله فى الحياة قال شيئاً جديداً :

« ... آمالى فى الحياة لا تنتهى ولا تحد . فهى لا تتحقق كلها مادمت حيا . لا أحب أن أحكم لانسان أو لشىء بأنه أعظم أو أكبر فهذا حكم فيه مجازفة وهو عرضة للغلط .

لو عشت مائة عام لا يختلف عمل الرجل الحر المجاهد باختلاف مدة العمر . وقد قلت فى كتابى الثانى .

لا أبالى يكون العمر جزءاً   فى قليل السنين أو ألف عام

ويصور الحياة فيقول « أن الحياة تضيق على الانسان إذا حدها بجسمه الضئيل فهى محدودة اللذات مملة . ضيقة المجال مسئمة . لا تفى لذاتها بآلامها ، ولا سعادتها بشقائها . فاذا عرف الانسان نفسه . ووصلها بالعالم غير المحدود ثم بالله رب الوجود وجد فيها أملا وعملا . ونجاحا ، ورقيا دائما . وعروجا دائما . ورأى أنه الكون وأنه لا يحد ولا ينتهى . فتهون عنده الآلام . بل تضيع فى الآمال العظيمة . وتمحى فى الحياة الروحية التى تسمو على كل صغائر هذه الدنيا ... »

ويصور الانسان فيقول « ... أنظر ماذا يعمل الانسان فى هذا العالم . ينظر فيفكر . فيعمل ويصنع : وهو دائب النظر والفكر والعمل والصنعة ليل نهار . على مر العصور واختلاف الأحوال .

يخطىء ويصيب حتى يتبين الحقيقة . ويرفق ويعرق حتى يستقيم على الطريقة . طموح إلى السماء وما وراء السماء . سياح فى البر والبحر . بحاث فيما تحت الثرى . غواص إلى قيعان البحار ... » .

* * *

هذه ملامح تكشف شخصية عبد الوهاب عزام : أديب له طابعه الإنساني والفلسفي الواضح : هذه النفس المصقولة التي أفادت من الرحلات والقراءات ، وتعمقت البحث والتأمل للفلسفات والآراء ، ومعرفة العظماء والأعلام ، فقد عرف عزام شخصيتين كبيرتين هما الشاعر التركي محمد عاكف والشاعر الباكستاني محمد اقبال وكان له معهما جولات وفي منحاه الأدبي من طريقتهما الشيء الكثير .

فقد رأى في شعر أقبال وفلسفته رسالة الأمل والجهاد للمسلمين فأحب أن ينقلها إلى اللغة العربية مشاركا في إذاعة هذا التراث الضخم الذي كان يوجه الدعوة إلى الحياة العزيزة ونقد المدنية الحاضرة والكشف عن أمجاد تاريخنا وتراثنا من صور إنسانية رائعة .

عبد الحميد يونس

شخصية أخرى ترى بنور القلب نستطيع أن نضيفها إلى أعلام الأدب أمثال أبي العلاء وبشار وطه حسين ومحمد غلاب. كاتب جاد مكافح يعمل دائما ولا يتوقف. يحيل كل ساعات يومه وليله عملا متصلا «لجميع الناس أجازة يوم معين من الأسبوع أما أنا فليست لي هذه الاجازة الأسبوعية».

وهو منذ شبابه الباكر يحب الأدب ويتطلع إلى طه حسين: إنه يراه مثله الأعلى. أليس طه حسين قد حطم قيود الظلام من حوله ووصل إلى الذروة حين أحرز أرقى الدرجات الجامعية. كذلك كان هو. وكذلك استطاع.

اشترك منذ عام ١٩٣٣ — أى منذ ربع قرن في ترجمة دائرة المعارف الاسلامية. وأستاذه في الترجمة الذى ما أحراه أن يكتب عنه هو «محمد بدران».

بدأ يكتب في سن السابعة عشرة إلى البلاغ الأسبوعى والسياسة الأسبوعية «عملت في الصحافة يوم كانت عند بعض الناس صناعة من لا صناعة له. وعند ما كان يصدق على بعضهم لقب «أهل الصناعات المبهمة»... ولايزال الأصدقاء الذين فروا من الصحافة وقتذاك يذكرون كيف كانوا يعملون الليل والنهار. فان طالبوا بأجورهم أعطاهم صاحب الجريدة اليومية «علبه سجاير» أو ثمن علبة سجاير. ولا يزال الأصدقاء الذين تشبثوا بالصحافة يذكرون كيف كانوا لايتقاضون على عملهم أجراً. وانما تعين لهم مساحات خاصة من أبواب الاعلان عليهم أن يملأوها وأن يأخذوا أجورها..»

ولقد كانت للدكتور يونس فى أول الشباب مغامرات فى سبيل النشر . مرت بكل أديب فى المرحلة الاستطلاعية حين كان يريد أن يرى اسمه منشوراً فى الصحف « ... حدث أن أرسلت مقالا عن الأدب المصرى لأحدى المجلات الأسبوعية . ووقع فى يد زميل تقطعت بينى وبينه أسباب المودة فرده بكلمة جافية ... فما كان منى إلا أن طمست على اسمى بحيث لا يبدو منه حرف وذيلت المقال باسم « آنسة : أمينة » فنشر وقدم له . وظللت أبعث إلى هذه المجلة بالمقالات الضافية باسم هذه الآنسة . ثم جاءنى على غير انتظار خطاب يرجو الأديبة الكبيرة أن تبعث بصورتها . فوقعت فى ورطة . ثم اهتديت إلى صورة إحدى قريباتى توفيت فى شرخ الشباب سويت أطرافها وبعثت بها إليه ... ثم ختمت هذه الفصول برسالة رقيقة تعتذر فيها عن المضىء فى الكتابة لأنها ستتزوج . وتفضلت المجلة فكتبت تهنئة طويلة عريضة للآنسة بزواجها ورجت ألا تحرم القراء من أدبها الممتع ... »

وليس الدكتور يونس هو الوحيد الذى كتب باسم « فتاة » فان هناك من لا يزالون يكتبون منذ عشر سنوات حتى الآن .

* * *

وكان الدكتور يونس يحلم وهو فى سن باكرة بأن يكون من المحامين ولكن قراءته لكتاب « الأيام » التى كانت تنشرها الهلال عام ١٩٢٦ هى التى غيرت اتجاهه ودفعته إلى كلية الآداب ... فى هذه الفترة وقع له حادث ضخم «فقد نقلت من بيتى إلى سرير متواضع فى غرفة بمستشفى القصر العينى . وحيل بينى وبين النهوض والحركة . وظللت راقدا على ظهرى بين وسائد محشوة بالرمال تضغط على رأسى من يمين وشمال . ولبثت كذلك أكثر من شهرين . وقرأ لى أحد أصدقائى الفصل الأول من « الأيام » ولم أكن أتخيل أننى أتهيأ لمكابدة تجربة فذة عظيمة كتجربة « طه حسين » .

وقالت له أمه فى أول يوم ذهب إلى المدرسة « نصيحة تبـدو ساذجة للوهلة الأولى ولـكنى أدين لها بأ كثر مما حققت فى حياتى — إذا كنت قد حققت شيئا من النجاح فى حياتى — قالت لى وهى تضع يدى فى يد الخادم « اتبع ببصرك المدرس ولا تجعله يغيب عن ناظرك » .

وفى الفترة الأولى أقامت من نفسها معلمة لى ، ثم لأخوتى فيما بعد وكنت أنا تجربتها الأولى . ولعل حماسها كان معى أشد وحزنها أ كبر » وهو يحب أمه حبا عميقا خالصا « ... ما استشعرت الرغبة فى رؤيتها إلا وجدتها تدخل علىّ . وما أحست هى الرغبة فى رؤيتى إلا وجدتنى منساقا إليها . دأخلا عليها . مقـّبلا يدها » .

* * *

وهو يجمع فى حياته بين الجامعة والصحافة : يقول الدكتور يونس « مشكلتان أساسيتان فرضتهما الحياة على منذ لحظات الوعى الأولى . ولا زلت اعتقد أننى سأظل إلى آخر العمر أواجههما حتى أصبحتا بالنسبة إلىّ صفتين متلازمتين : هما « الجرس » الذى كان يقيد خطواتى منذ دخلت المدرسة فى منتصف العام الخامس من عمرى والذى كان يؤثر فى قسمات وجهى بسطا وانقباضا ويحركنى كما يحرك المثات غيرى فى اتجاه معين دخولا وانطلاقا . قياما وقعودا .

و « المطبعة » فمنذ نازعتنى نفسى بسبب لم يكشف لى إلى الآن أن أحقق شخصيتى بالتعبير . وأن أصل ما بينى وبين الحياة بهذه الوسائط الثقافية وأنا مرتبط بهذه المطبعة التى لا تـكف مجلاتها عن الحركة ولا يقف دواليبها عن العمل » .

وهما يركضان خلفي ويلحان عليّ ويتعجلان ولا يسمحان باعتذار ولا يكادان يعترفان براحة ... » .

وقد صور الدكتور يونس حياته الفكرية بأن هناك ثلاثة نفر تجمعهم رابطة اخوة وصداقة فى الجامعة « حسين مؤنس . صلاح ذهنى . عبد الحميد يونس » « ... ثلاثة توثقت بينهم أواصر الصداقة منذ ست وعشرين سنة (يونيو ١٩٥٥) كانوا فى سن الفروسية . رغباتهم تفوق ارادتهم : وأحلامهم تغلب عقولهم . تحولت الدنيا فى نظرهم إلى عالم من المثل . والتهموا كل ما وصلت إليه أيديهم من الكتب . وتصوروا أن لهم أنظاراً ومشاعر تستحق التسجيل . ودفعوا إلى المطبعة ببعض نفوسهم . وربطوا حياتهم بالصحافة . ولم ينقطعوا عنها أبداً . ألفوا الجمعيات . وعقدوا المناظرات ... »

والدكتور يونس يقدر الكلمة المكتوبة حق قدرها « ... تعودت منذ عرفت طريقى الذى اختارته الحياة لى . أن أقدر الكلمة الملفوظة والمكتوبة على السواء . فلا أراها مجموعة من المخارج . والحركات . لا طائفة من الأجراس والنواقيس . وانما أضعها حيث تضعها الحياة تحقيقا لأكمل وأسمى ما فى الانسانية من خصائص الفكر والشعور .

وأنا لذلك أتلقى الكلمة على أنها ومضة فكر . ونبضة قلب . وارادة حياة » .

* * *

والدكتور يونس قد اختار لأطروحته فى الدكتوراه « بنى هلال » وسيرة الهلالية جزء من الأدب الشعبى الذى شغف به منذ صباه . وقد سئل فى هذا الشأن فقال : « لقد سألت نفسى هذه السؤال . وحدث مرة أننى كنت افتش بين الملفات فى أوراق

قديمة ، فعثرت على كراسة بنية اللون مما يستعمله تلاميذ المدارس . وراعنى أن قرأت على غلافها أنها « مذكرات » ثم تصفحتها فوجدتها يوميات يرجع تاريخها إلى عام ١٩٢٨ ودهشت لأننى كنت قد نسيت هذه المذكرات أو اليوميات . وأدهشنى أكثر أننى سطرت فيها آمالى ووجدت أن من هذه الآمال التخصص فى الأدب المصرى ...

والسبب هو الرغبة فى الكشف عن مقومات الشخصية العربية وخصائص الأدب المصرى حتى كان يوم جاءنى فيه ابن عم لى بمجموعة من الكتب الضخام. أكل البلى بعض أوراقها . وذهب بغلافها .وترك الزمان على أوراقها الصفراء نقطا داكنة ، وكانت تنبعث منها روائح تدل على أنها حزنت مدة طويلة بعيده عن الهواء والنور . وأن الفيران استأنست بما فيها من علم .

... كانت هذه الكتب لجدى . ووجدت على صفحات بعضها كلاما مكتوبا بالحبر السلطانى وبخط أنيق . من أجدادى يونس ومرعى ويحيى . وهم الذين اصطحبهم أبو زيد فى رحلته الأولى إلى بلاد تونس المسماة بالريادة وتلفت حولى فى موطنهم الأولى بأقليم الشرقية فإذا نحن على مرمى قوسين من قرية اسمها « بنو هلال » ...

ويقول الدكتور يونس أنه استعان بنسخة « التغريبة » الموجودة فى دارهم بالريف فى الخزانة المنقورة فى حائط المندرة منذ ثلاثة أرباع قرن . واستعان بالشاعر المحترف ليسمع السيرة كاملة كما ينشدها هذا الشاعر . ويسجل نصوصها ... »

وهكذا أتيح له أن يكتب رسالته التى حصل بها على أجازة الدكتوراه .

* * *

وقد صور الدكتور يونس أوجه التلاق والخلاف بينه وبين الدكتور طه حسين فقال « أن الأحداث التى وقعت لى تخالف ما وقع لطه حسين . لقد كف بصره وهو طفل صغير جدا . أما أنا فقد كنت فى السادسة عشرة عندما حدث فى أحد ملاعب كرة القدم أن اصطدمت بزميل صدمة عنيفة نقلت بعدها إلى المستشفى ومكثت فيه شهرين ثم خرجت فاقد البصر .

وعندما أصبت حدث انقلاب هائل فى حياتى وغلبنى التشاؤم . وكنت فتى مرحا فأصبحت عابسا وفكرت فى الانتحار مرتين وهممت بالتنفيذ مرة وذهب عنى أصدقائى وخلفونى منفرداً ثم تملت كيف أعيش بلا بصر وكيف اجتذب الأصدقاء فى الحديث والسمر وكيف أكون منتجاً كغيرى من الناس ومضت الأيام وأنا لا أحس بنقص ما على الاطلاق ... »

فكرى أباظه

فكرى أباظه من الكتاب الذين خلقوا للصحافة . وأسلوبه الكتابى من أجود أساليبها وأصلحها وأسماها . فهو واضح الملامح يمكن تمييزه من بين الأساليب . وهو كاتب سياسى واجتماعى رصين دقيق لبق . لا يحب التخريج . ولا يدخل فى غمار الخصومات . ولا يثير حول نفسه المواصف .

اشتغل بالصحافة هاويا ثم احترف وظل محتفظا بلونه « الوطنى » طوال الفترة الحزبية فى تاريخ مصر . فاكتسب بذلك ثقة الأحزاب والهيئات والزعماء .

نفاذ فى بيانه ، عميق فى مادته . يجيد إجادة ملحوظة فى النقد الاجتماعى . يتميز باتصلاته بمختلف الأوساط والهيئات أكسبه ذلك خبره قلما تتاح للكثيرين من كتاب عصره الذين عاشوا فى أبراجهم العاجية .

ويمتاز أسلوب فكرى أباظة بالبساطة والوضوح إلى جانب التهكم والسخرية . وقد أكسبه هذا صداقة الكثيرين الذين ائتمنوه على أسرارهم وعرضوا عليه مشاكلهم .

وهو رجل لفاف دوار . لا يقر له قرار . كما وصف نفسه فى كتابه الضاحك الباكى « يصعد إلى الطبقات الأرستقراطية وينزل هابطا إلى الطبقات الشعبية » وهو خبير بالجماهير والناس . خبير بالسياسة ودخائلها .

عاش فكرى أباظه حتى اليوم دون أن يتزوج شأنه فى ذلك شأن انطون

الجيل وعباس العقاد • ولعل ذلك كان كسبا للفكر والصحافة . وربما فتح أمام الكاتب أفاقا واسعة أتاحت له الاتصال بالأوساط والأسر كما هيأ له فرصة السفر إلى الخارج والطواف بالأقطار المختلفة فى أوربا وأمريكا .

ولعل هذا السفر قد أكسبه خبرة ضخمة ، لا تتأتى من قراءة ألف كتاب.

ويرى بعض النقاد أن فكرى أباظه من كتاب الصحافة الذين شاركوا التطور الصحفى الجديد الذى عرفته مصر بعد ثورة ١٩١٩ وأنه والتابعى أقاما مدرسة جديدة من مدارس النقد الصحفى وأن تميز كل منهما بطابعه •

ولذلك فانهما لا يمكن أن يضافا إلى الأدباء الخالصين للأدب .

ويرى هؤلاء النقاد أن هؤلاء الكتاب الذين يعملون فى الصحافة محترفين انما يكتبون للجماهير ويرضون رغبات الشعب • وأنهم من كتاب الألوان الشعبية التى تنشرها الصحف السيارة والتى تختلف مع الألوان الأدبية التى تأخذ صفة البقاء والاستمرار وتصلح لكل زمان وجيل •

وأن مشاكل المجتمع التى يتناولها فكرى أباظه أو التابعى أو مصطفى أمين هى مسائل موقوته . أشبه بالأمور العابرة وتطورات السياسة والمشاكل العامة •

ولكن بعض ما يكتب هؤلاء قد يبقى ويمكن معاودة قراءته خاصة مايتصل بالدراسات الاجتماعية والمذكرات السياسية •

وقد لقى أسلوب فكرى أباظه منذ فجر حياته الصحفية إقبالا من القراء وإعجابا ويرجع ذلك إلى روح الفكاهة والدعابة والاتصال بالحياة فقد كانت النقدات الصحفية قبله جافة حادة • تسير على الأساليب التقليدية • فجاء فكرى أباظة والتابعى ومن قبلهما على نطاق ضيق [أحمد حافظ عوض] فتحررا من هذه الأوضاع •

رفض فكرى أباظه دخول الأزهر وفضل المدرسة المدنية وتخرج فى كلية الحقوق عام ١٩١٧ . وسرعان ماهبت ثورة ١٩١٩ فاشترك فيها بالنشيد الثائر ومحاضراته فى أسيوط وعاش حياته له لونه الواضح : عرف بالحماسة ضد الانجليز · كما عرف بالمجاملة ووصف بأنه مجامل إلى أقصى ما يستطيع أن تحتمله طاقة إنسان ...

يقول مارست الصحافة هاويا غاويا منذ عام ١٩١٩ ولا استطيع أن أصور كم كانت سعادتى عند مارأيت أول مقال لى مطبوعا وكم كانت سعادتى عند ما كنت اسمع باعمى الأهرام الغراء فى الميادين الكبرى يشقون حناجرهم بأسمى · وبعد هذه الغواية والهواية وفد « الاحتراف » .

ويقول أنه حفظ أربعة آلاف بيت من الشعر الجاهلى والاسلامى وأنه عرف منذ شبابه مجالس شوقى وحافظ والشيخان الخضرى والبشرى .

ويرى أن أستاذه الأول « داود بركات » صاحب الفضل فى تقديمه للجماهير. وهو الذى شجعه على التزام أسلوبه الخاص فى الصحافة ويقول داود بركات أن فكرى أباظه هو الذى أخرج الكتابة الصحفية من التثاقل إلى الخفة · ومن الجمود إلى الحركة . ومن الانقباض إلى الانبساط ومن اللذيذ إلى النافع .

وعند ماسئل فكرى أباظه عن السر فى طابع السخرية الذى يتميز به أسلوبه قال لعل هذا يرجع إلى اضطهاد اخوته له فى طفولته لقبح منظره · ولذلك اضطر إلى أن ينحو إلى جانب الاستهزاء بكل شيء .

وقد تأثر فكرى أباظه فى شبابه بعبد العزيز شاويش وعبد القادر حمزة وداود بركات ومارك توين وكليمان فوتيل واحمد حافظ عوض .

وقد حمل على سعد زغلول فى أوج عظمته وقال له : نحن الناشئين أن لم نكبر على أكتافكم فكيف يعرفنا الناس ... وكتب عن هذا فى مذكراته يقول «... كنت أعارض سعد زغلول الضخم العظيم بكل قوتى ، فإذا اعتزل والتزم داره كنت من السنة حاله ، بل لعلى كنت أقوامهم لسانا . وكنت جليسه وسميره فى مجلسه الخاص ... »

* * *

ولقد عمل فكرى أباظه محرراً فرئيسا لتحرير المصور منـــذ يوم أنشائه عام ١٩٢٥ وقد كون لنفسه طابعه الخاص وأسلوبه الخاص فى الصحافة يقول : اشتغلت بالصحافة عشرين عاما أو يزيد ، شتمت فيها أكثر من مرة وجرحت أكثر من مرة وعقدت حول خصوصياتى وعمومياتى المقالات الطوال فكنت اقرأ واسكت فلا أحرك قلمى ولا لسانى وكنت أجد فى وضع المجنى عليه لذة ولوعة يرتاح لها ضمير المطمئن المسالم بل كنت استقبل لاطمى وضاربى بالأحضان » .

وعرف فكرى أباظه بالجرأة الوطنية فى كتاباته فلقد طالب بالغاء عيد ١٣ نوفمبر و١٥ مارس فى أبان عظمة الاحتفال بهما وقال أنهما عيدان رسميان يجب أن يشطبا . بل يجب أن يكونا يومى حداد وسواد « ... ولكن مغالطات هـذا البلد كانت فوق كل منطق . وكل ذوق سليم .

يقول :ومن عجب أنه مامن وزارةوطنية وفدت بعدسنة١٩١٩ وبعد سنة١٩٢٢ قد جرؤت على أن ترضى الحق والتاريخ وتلغى هذين العيدين ... وسيأتى اليوم الذى يطهر فيه الحكم الوطنى المنتصر ، التاريخ المصرى بنبذ هذين العيدين الكاذبين من برنامج الذكريات القومية الصحيحة ... » . وقد تحققت أمنية فكرى أباظة بعد الثورة .

وقد صور فكرى أباظه شخصيته وحياته فى أكثر من موضع وهذه صورة بقلمه « ... أنا مجامل . ولعلكم تلحظون ذلك فيما أكتب أتفادى أن أجرح وأن أسيل الدم . أتفادى أن انتقم أو أثأر أو أجهز ، وطالما طعن شخصى الطاعنون فررت على طعنهم مر الكرام ،

... مرهق لنفسى من غير طائل . فأنا أعمل كثيرا وأقتل ذهنى وحنجرتى ونظرى قتلا ، ومن اخطائى الصحية انى كثير السهر . كثير التدخين ... لم أتزوج فى الوقت المناسب وقد ولى الموسم وراح ،

غريزة الضعف هى التى حرمتنى من بيت وشريك وولد ! وها أنذا اليوم أحس اللهفة على بيت وشريك وولد ولكن بعد فوات الأوان ... » .

وهو قدرى على طول الخط .

« ... انى أجد الا قاعدة فى الدنيا . وأن من واجب المفكر الرزين أن يكون قدريا على طول الخط عدواً للمطامع والآمال ، يكافح ولكن بلا شجن ولا ألم . ويسعى ولكن بلا عذاب ، ويكد ويقدح زناد الفكر ولا يكل ولا يمل ، ولكن تحت شرط أن ينام فى الليل ملء جفونه وإلا يقول ... آه ... » .

وهو بالرغم من كفاحه الطويل المرير لم يكون ثروة فى مدى ثلاثين[1] عاما « وبالرغم من أننى أحتقر الماديات إلا أنها فى حكم الحقيقة والواقع عصب وعصبية وكلما تقدمت السن كلما تقدمت الحساسية نحو ضرورة المال ... »

وهو يحب الأطفال « حبا جنونيا » ويطوف عليهم فى النادى الأهلى يلاعبهم ويداعبهم ، «والآن فقط أحسست النقص فى حياتى . والنقص هو: زوجه وولد» .

---

(١) الهلال : فبراير ١٩٤٨ .

وفي الحب لفكري أباظه جولات وجولات « ... لقد أحببت أكثر من مرة . وفجعت في حبي أكثر من مرة . ولا أذكر أن الخطأ في هذه المرات كان من جانبي أبداً . وعند الهجر وبعد الهجر كنت أتلقى من صديقاتي هذا التصريح: أن فلانا أعز من عرفنا . وأعف من عرفنا . كنت اعتبر علاقتي بالصديقة سراً مقدساً وكانت النار تلتهب في ضلوعي وتحرق قلبي ولكن لا انبس ببنت شفه» ... ويقول أن ذكريات الحب بما فيها من اقبال وأدبار . ومن هجر ووصل وعذاب وتضحيات . هي التي تكون الرجال وبغيرها لا رجولة ولا رجال ... » .

لقد طاف فكري أباظه العالم . واتصل بكل بيئة وعرف الحب وفي حياته أكثر من أنثى ... ولكنهما زالت له أماني لم تتحقق .

« أنا أحلم بحب عميق . جدي . فقد حرمت الحب العميق الجدي ، وهو وحي وإلهامي وغذائي . فهل يتحقق الحلم يا ترى وأنا في هذه الحال .

وأنا أحلم في النهاية بعزلة خلوية فردوسية خيالية في كالفورنيا وسويسرا في الصيف وأسوان في الشتاء الجأ إليها لأؤلف قصصي ومذكراتي وأدبج ما استخلصته من تجارب الحياة وهو يرى أن النساء جامعة كبرى ... « بل هي في نظره جامعة الجامعات يراهن في أحاديثهن وحوادثهن مادة ضخمة ومحصولا وافراً ... في فلسفة الحياة وسيكولوجية المجتمع » وبعد ففكري أباظه كاتب مسرحي يستثير الجماهير ويأخذ بالألباب . هذا إلى عفة في اللفظ وسخرية وفكاهة .

ولاشك أن حياته الحافلة ونفسيته المشرقة وطبيعته المرحة الزاخرة تمد انتاجه بتلك الحيوية والاشراق الدافقين .

ويتحدث فكري أباظه عن صلته بدار الهلال فيقول :

« ... ١٢ يوليه ١٩٢٦ .

في تراس حمام سان استفانو جلست أجرع الكازوزة جرعا بعد حمام متعب كله صحة وعافية وإذا بشاب سمهري القد نحيل القوام . يقترب مني ويحييني . قال : أنا أميل زيدان ... عندي فكرة في اصدار مجلة مصورة ويسرنا أن تعاوننا .

ولم أكن أفهم مطلقا إلا أن أكتب وأفرح بطبع ما أكتبه ونشره وكنت أكاتب الأهرام سبعة أعوام (١٩١٩) واصبت نجاحا بلا شك .

وفي ذات يوم من الأيام استدعاني « جبرائيل تقلا » وقال لي بلهجة رقيقة: أنه جرت لي العادة في أوربا أن يقبض الكتاب المشهورون حقهم من الكتابه فلا بد أن تحدد لك أجرا . وثرت يومها ثورة شعرت كأنه لطمني لطمة مست شرفي وجرحت كرامتي . وكلما ازداد دهشة من ثورتي ازددت غضبا وحنقا . كنت كاتبا (بكراً) وظننت أن الفلوس تجرح « عذريتي » وأخذت أصيح في دار الأهرام : أنا محترف ! أنا حزب وطني . أنا أكتب للبلد لا لجيبي .

وكتبت المقالات الأولى للمصور من الزقازيق حيث كنت أقيم . وإذا بشيك ظريف يتهادى إلي بالبوستة فاقلبه مندهشا ولكن رقمه العالي يخمد ثورتي ويهدىء أعصابي ويخدرني تخديراً فاقبضه وأنا صامت وأظل اقبض — بصمت — من ١٩٢٦ إلى اليوم ... » .

محمد صبيح

بدأ حياته مؤرخا وأديبا . ثم اختطفته الصحافة منذ عام ١٩٤٤ وعاد عام ١٩٥٧ ينشر آثاره القديمة وربما يستعيده الأدب مرة أخرى فقد طلع محمد صبيح على الناس فى سنوات متلاحقة بكتب جديدة فى حجمها وموضوعها واخراجها حرص أن يقدم بين دفتيها صور البطولة فى شخصيات من أعلام الاسلام والعصر الحديث . وشهد المؤرخون[1] على أنها كانت الأولى من نوعها فى ميدانها . كان هدف هذه الدراسات توجيه أنظار الشباب إلى تلك البطولات القوية التى كان لها أثرها العميق فى معترك الحياة . وسير التاريخ . وكانت هذه الدراسات على ايجازها قوية مجودة : تدل على أن كاتبها قد أنفق من وقته وجهده الكثير فى سبيل اعدادها . وقد ظهر محمد صبيح من خلف هذه الدراسات فى صورة الكاتب المثالى المتطلع إلى المجد الظامىء إلى ميادين البطولة . ويرجع ذلك فى الأغلب إلى أنه كان أحد أقطاب مصر الفتاة . وقد صور هدفه فى هذه الرسائل « تقديم مبسطات العلوم والآداب فى أسلوب مقبول يرضى المثقفين ولا يسخط العلماء المتخصصين » ثم عدل مناهجه بعض التعديل « ... لست أقصد اليوم — كما كنت بالأمس — إلا أسخط العلماء فحسب . وإنما أريد أن أرضيهم جهد طاقتى » .

وهو يرى أن « هؤلاء الرجال العظماء أكرم علينا من أن نمر بحياتهم مرا خفيفا فنطفو على السطح ولا نصل إلى أعمق الغور . أنهم أبطالنا نحن . أنهم

(١) نزعات التجديد فى الأدب العربى المعاصر لأنور الجندى .

قطعة من حياتنا ، من تاريخنا ، استغفر الله ، بل هم قمة الإنسانية فى جميع عصورها وأطوار تاريخها ، وأن نحن استطعنا أن نبين هذا القديم الذى باعدت بينه القرون وبين مثلنا التى ننشدها فى حاضرنا ، نكون إذن قد وفقنا إلى شىء كثير . »

وهو حين يقدم دراسته عن القرآن يصور علاقته بالكتاب الكريم « صلتى بالقرآن قديمة . هى نفس الصلة التى بين كل مسلم ينشأ فى مصر وبين القرآن ، يحفظ خفاف السور وهو لم يبلغ السادسة بعد ، ويتخذها أداة صلاته فى هذا السن المبكر وأداة خوفه فى نفس الوقت ... »

وقد وصل صبيح إلى الجامعة عام ١٩٢٩ وتحدث مع طه حسين فى أول لقاء له فى الجامعة .

— لماذا تريد الالتحاق بقسم اللغة العربية .

— لأنى أريد أن أصبح كاتبا متعلما . أو صحفيا متعلما .

يقول صبيح « ... ومن وقتها وطه حسين يأخذ بيدى لأكون كاتبا متعلما . « ... ثم ذهبت إلى المازنى فى جريدة السياسية ، وجلست أمامه فى استحياء أخالسه النظر . وأدهش لهذا الجسم الضئيل والصوت الخفيض ، كيف استطاع أن يهز بقلمه الأحداث ، ولا تهزه الأحداث . وقلت له .

— أريد أن أكون صحفيا .

— لماذا :

— لأنى أستطيع أن أكتب .

ودفعت إليه مقالات عن « الحطيئة » اقتبست معظمها من محاضرات الجامعة فألقى على نظره خاطفة . وضحك ضحكة صافية وقال :

— أسوأ ابتداء لحياتك الصحفية . مالنا وللجاهلية ونحن نعيش فى الحاضر . اذهب إلى قسم الترجمة حيث تجد تمرينا صحيحا وطاقة تطل منها على صحافة العالم .

وبدأت تمرينى فى الترجمة . وبعد أيام دعانى المازنى وأعطانى عدد السياسة الأسبوعية وقال أنظر صفحة كذا .

ونظرت فوجدت مقالى عن الشعر الجاهلى منشوراً ... » .

هذا هو الخيط الأول فى حياة الكاتب الذى بدأ عام ١٩٣٧ عمله فى « كتاب الشهر » ثم انصرف عنه ثمة وعاد إليه بعد أن خرج من سجنه الذى استمر من عام ١٩٤٠ إلى عام ١٩٤٤ ...

ثم لفته دوامة الصحافة عام ١٩٤٦ ولم يعد إلى التأليف منذ ذلك اليوم وكان قد أصدر دراسات عن محمد وعلى ومعاوية وخالد وعمرو وصلاح الدين . وعن هتلر وستالين والميكادو وموسولينى وأتاتورك وديفاليرا ثم أصدر بعد الاعتقال تشرشل وروسيا والنيل .

وهو فى خلال هذه الحياة الأدبية الصحفية حرر الصرخة والوادى ووادى النيل ومصر الفتاة . ثم كتب فى السياسة وكوكب الشرق والمقطم ...

ثم عمل فى أخبار اليوم ومجلة الأسبوع وجريدة الأساس ... حتى عام ١٩٥٢ ثم حرر فى القاهرة والجمهورية والتحرير .

وكما استهل حياته الفكرية استهلالا رائعا بدراسات الأعلام والعظماء ... كذلك شارك فى نهضة التحرر الاقتصادى وانشاء مشروع القرش ومصنع الطرابيش كجزء من خطة محاربة الاستعمار ومقاومة الانجليز فقد هبت الجامعة عامى ٢٩ و ٣٠ تدعو إلى التحرر الاقتصادى كوسيلة للتحرر السياسى ... والدعوة

لإيثار كل ماهو مصرى ... وكان صبيح القادم من الصعيدالأوسط عام ١٩٣٠ أحد العاملين البارزين فى هذه الحركة ...

وفى ١٩٣٣ بدأت حركة مصر الفتاة لتتابع هذا النشاط ولمعت بها أسماء احمد حسين وفتحى رضوان ومحمد صبيح ومصطفى الوكيل وحافظ محمود ونور الدين طراف وحماده الناحل وابراهيم شكرى والدكتور عبد الرحمن الصدر وغيرهم .

ودخل محمد صبيح السجن فأمضى به أربع سنوات كانت فرصة ذهبية لقراءة عدد ضخم من المؤلفات التى كان فى حاجة إليها ... كما كانت فرصة للتأمل والتفكير والتطور .

ولذلك فإن أسلوبه بعد خروجه من المعتقل ومنهجه النفسى كان قد تحول من العاطفية إلى العقلية ...

وهو نفسه يشهد بتحوله : فقد اتسع أفق فهمه وتعمق اتجاهه . عاد يرى الوطنية شيئا غير ما رآها من قبل وبعد أن كان يقول هذا كتاب لا نحتاج إليه عندما أصدر الدكتور حافظ عفيفى كتابه « الانجليز فى بلادهم » ... قال لابد لنا أن نتعلم وأن نتابع الدرس والبحث لما نحبه وما نكرهه على السواء . والخير لنا أن نعرف عدونا من أن نجهله « ... وكأنما كانت وطنية أمس عندى تتلخص فى « ألا نعلم » ...

وتبرز خصائص تفكيره واضحة فى قوله ... « نحن[1] لن نقف موقف المتفرج والا داستنا الأقدام فى هذا الزحام . وظهور الأمة العربية فى وحدة متماسكة مترابطة يساعد على أن نقف على قدمين ثابتين ولكن لا نريد أن نقنع بالوقوف . وانما نريد أن نسير . وأن نسير دائما . وأن نسير دائما إلى الإمام . فأى سبيل لذلك . وكيف نختار أصدقائنا وأعواننا فى انطلاقنا القبل .

ليس فى وسعنا أن نعيش فى عزلة عن غيرنا . بعد أن تشابكت المصالح

(١) مقدمة كتابه عن تمرشل .

وتعقدت التيارات الدولية . وأصبح لامناص لمن يريد خوض السباق من أن يكون متذرعا له بعدته ... »

وكما أمد السجن الكاتب بالتجربة والخبرة أمدته الأسفار بتجارب أخرى وخبرات متعددة فقد سافر إلى أمريكا وأوربا والحجاز .

* * *

ومحمد صبيح من المدرسة الوسطى التي تؤمن بأن نأخذ من كل الثقافات ثم نحيل هذا كله إلى كياننا وهو في هذا يقول « إن مجتمعنا مجتمع كبير نام واع . لا نخشى عليه أن يحول اتجاهه التزييف أو الكذب أوالترخص . قد توقفه الضجة المفتعلة بعض الوقت ولكنها لاتعوق سيره طويلا ... كم أحب أن نتعمق في اختيار العوامل التي تكون حياتنا . وتحرك وجداننا . أنها ليست معركة بور سعيد وحدها . ولا بنت العزيزية والبدرشين ودروط وحدها . ولا بنت دنشواى ولا بنت التل الكبير ولكنها بنت أسماء من هذا النوع وهذا المستوى تبلغ الآلاف وتذهب في التاريخ إلى قرون لا يحصيها العدد .

أن في تكويننا ذرات مما حدث في الدرعية وحطين وعين جالوت واكتيوم . وأن هذه الذرات تقودنا وتوجهنا دون أن ندرى ... » .

والكاتب الذي بدأ حياته بالأدب والدراسات التاريخية لاينسى مثله وأهدافه في الكتابة الصحفية فهو يدافع عن الصوفية النقية ويدعو إلى القراءة والاطلاع الدائب لكل من يريد أن يشتغل بصناعة القلم ويحذر من الاندفاع وراء ما أسماه « مدرسة التفاهة ... التي تريد أن يسيطر على حركتنا الفكرية في هذه الأيام (١٩٥٧) وتتذرع لهذه السيطرة بوسائل شيطانية ... » .

وقد اتخذ صبيح لنفسه عنوانا ثابتا يكتب تحته « من النافذة » وهو في تعليقاته الصحفية دقيق الملاحظة بارع المؤاخذة ، فيه طابع من سخرية المازني . وفي أسلوبه قدرة على أن يجرح دون أن يسيل الدماء .

وهو حريص على أن يعطي القارىء دائما فكرة جديدة أو رأيا طريفا ويقول مع برتسيلي « أدركت أنه مهما كانت الكتابة خفيفة الوقع على النفس فلا بد أن تستند إلى معنى من المعاني التي تلمس أعماق النفس . لا أطرافها ... » .

وهو يواجه التيارات الفكرية المختلفة في مصر بفهم عميق يقول « المد اليساري بدأ ينحسر بعد أن ضعفت قوته الدافعة وبعد أن تبين الرأي العامل بفطرة سليمة الوسائل المصنوعة التي تحركه . نحن نطلب التوازن . لاضير من أن توجد مجلة الشرق المترجمة عن الروسية ومجلة المختار المترجمة عن الأصل الأمريكي ... ولكن يجب أن يكون بجوار ذلك تيارنا الواضح الذي يمثل التوازن الثقافي العام ... » .

وقد أراد هو أن يسهم في دعم تيار التوازن فبدأ يكتب فصولا جمل عنوانها « أنا الشرق » يصور فيها أمجاد العرب والاسلام والشرق العربي الاسلامي ...

وقد دعا محمد صبيح عام ١٩٥٥ في جريدة الجمهورية إلى كتابه تاريخ مصر[1] من جديد وطالب بالكشف عن حقائق الماضي في حرية « فان روح الشعب تستضيء من الحق . الحق الكامل . وتقدير أبطالنا لايعني ان نضعهم فوق مستوى الخطأ ولكن يحملنا ان ننظر إليهم كبشر ونبحث عن اسباب النجاح هنا وإلى الاخفاق هنا » واعتقد ان الكاتب قادر على ان يضع مشروعه هذا موضع التنفيذ فله من امكانياته ودراساته ومراجعة ما يمكنه من اداء هذا العمل الخالد .

---

(١) بدأ الكاتب في تأريخ الحركة الوطنية المصرية خلال حرب ٣٩ — ١٩٤٥ بفصول تنشرها جريدة القاهرة « يناير ١٩٥٨ » .

يحي حقي

علم من أعلام المدرسة الحديثة التي جاءت بعد جيل الرواد • وهي مدرسة ذات طابع فيه مزيج من الشرق والغرب . وإن كان هذا الطابع قد احتاج إلى أكثر من عشرين عاما ليأخذ مظهره النهائي • ولو أن واحدا حاول أن يدرس حياة يحي حقي من أدبه قبل ذلك بعشر سنين لما أمكنه أن يصل إلى لب روحه الأصيل الذي ظل يتفاعل في انتاجه شيئا فشيئا حتى أخذ مظهره الكامل في إنتاجه الأخير .

والواقع أن يحيى حقي يجمع بين النظرة الأوربية المادية والنظرة الشرقية الروحية . ويحاول أن يمزج بينهما • ولقد تأرجح يحيى حقي بين النزعتين في أول الأمر فكان من دعاة الفكرة الفرعونية ثم عاد فغلب عليه الاتجاه الصوفي فيقول : كان اتجاهي إلى الفكرة الفرعونية باعتبارها مصدراً للالهام تصل حاضرنا بماضينا المجيد . أما الآن فقد غيرت رأيي وأصبحت اعتقد أن الدين هو ملاذنا وأحس بالإسلام إحساسا عميقا بل أكاد اقول أنني متصوف • ونزعة التصوف عندي قديمة ، وتظهر في قصصي الأولى مثل قصة « قنديل أم هاشم » ففيها جانبان هامان : النظرة الأوربية المادية والنظرة الشرقية الروحية . وكانت النظرتان تصطرعان في نفسي والآن أصبحت الغلبة للنظرة الروحية ... »

وأمر اللغة معه يأخذ نفس الاتجاه : كان غاليا في نظرته إلى العامية ، وكان في ذلك على مذهب سلامه موسى ثم تحول فجأة ... أن عاملا قويا هز نفسه : ذلك هو ضياع فلسطين ... « كنت أعاني نقصا في لغتي العربية . بحيث كنت

العجز أحيانا عن العثور على الكلمة التي توافق المعنى الذي أقصده . وكان إتجاهي إلى اللغة العامية نتيجة لضعفي في اللغة العربية . ربما كان الذي نبهني إلى اللغة العربية هو ضياع فلسطين . لقد أيقظت المأساة قوميتي العربية وذكت ماضيا من ايماني العميق بالإسلام ... »

* * *

صنعت البيئة اتجاه « يحيى حقي » في الأدب فقد نشأ في محيط علم وكتب ودين « أن هوايتي للأدب تنبعث من بيئتي المنزلية فقد كان أبي رجلا تعلم في الأزهر فترة ثم انقطع عنه ولكنه كان يلبس الزي الأفرنجي . وبعد انقطاعه أكب على القراءة لدرجة النهم وكانت أمي متعلمة تقرأ كثيرا وتحفظ الشعر . وأذكر أننا كنا نستقبل قصائد شوقي أول ما تنشر من الباب ونرددها معا حتى نحفظها . وكان أخي الأكبر يكتب للصحف والمناقشات الأدبية لا تنقطع من بيتنا لهذا وجدتني أكتب القصص ... » . وقد قرأ في مطلع شبابه تولستوي وجوركي وتورجونيف .

ويحيى حقي مقل في انتاجه . ولكنه مبدع . أنه من الذين يقيسون بالكيف لا الكم . فأين عام ١٩٣١ عندما قرأنا له أول انتاجه « أبو فوده » في ملاحق السياسية الأسبوعية إلى عام ١٩٤٤ حيث أخرج « قنديل أم هاشم » إلى ١٩٥٥ عندما أصدر « أم العواجز » وصح النوم ودماء وطين ...

ولقد ظل يحيى حقي مغمورا هذا الوقت الطويل لأنه أزهد الناس في الشهرة وأرغبهم في الإعلان عن أدبه . وهو رجل فنان لا يهمه أن يكون عدد قرائه كبيرا أو صغيرا . يكتب مايعتقد أنه فن خالص . بل لعله قد نشر عدداً من القصص بأسماء الآخرين .

وبالرغم من تأثر يحيى حقي بسلامه موسى كما يذكر هو ، فاني أجده متأثرا

بكاتب آخر هو المازنى . بل لعلى اعتبره خليفته فى سخريته وبساطته وعمقه و « بلديته » .

ومقارنة أخرى بينه وبين توفيق الحكيم . أنهما من جيل واحد . وكلية واحدة وثقافتهما فيها شيء من التشابه ولكن الفارق هو الطبقة التى صنعت من يحيى حقى هذا القصاص الذى تغلغل فى أعماق البيئة البلدية وتعمقها وصورها أصدق تصوير . كتب عن السيدة والحسين والمغربلين والدقاقين . كان يعيش فى هذه الأحياء يراقب ويسجل ويختزن الملاحظات والصور والعبارات .

« ... نداءات الباعة كلها نغم حزين : حراتى يافول . حلو ع النبى صلى . لوبيه يافجل لوبيه ... لا تخلو الزيارة من بعض المومسات . فسيدى العتريس مأمور إلا يصد أحدا عن الساحة — لتقديم شمعة للمقام أو للوفاء بنذر عسى الله أن يتوب عليهن ويمحو ما على الجبين من قدر مسطور ... »

وهو إلى هذا يعيش حياته لحظة لحظة فى صوفية عجيبة « ... لا يهمنى عدد السنين التى أعيشها . ولكن يهمنى نوعها . فأنا سأعيش يومى هذا الذى أنا راضى به سعيدا ما شاء القدر لى أن أعيش فلا تستطيع أن تقول عنى أننى سأموت شابا أو شيخا فلن أخسر شيئا إذا مت غدا ولكن أكسب شيئا إذا عشت مائة سنة أخرى » .

ويروى يحيى حقى أنه وزملائه كانوا يتجمعون حول أحمد خيرى سعيد : «اللغة عندهم وسيلة للتعبير لا جمعة ألفاظ . هواه غير محترفين . لم يربح أحد منهم من قلمه فى عام ما يقيم أوده أسبوعا ... كنا نحس أننا لا نحرث إلا قشرة السطح وأن الفن لا يثير فى قلوبنا إلا استجابة عاجلة مندفعة . كنا نحس أن المادة الخام ينبغى أن تنصهر فى قلوبنا لتصبح أثرا جيلا مصقولا . كنا لا نريد أن نقلد أدباء الغرب

بل نريد أن نعيش فى جوهم عندنا . فى بلادنا . وسط أهلنا مع شعبنا . مع الفقراء والمساكين . لأنهم أقرب إلى قلوبنا من غيرهم ... »

ويحيى حقى بعد هذا رجل رقيق الجسد دقيق الحس . عاطفته متدفقة وروحه منطلقة . فيه ذلك الإيمان الذى تجده دائما عند الفنان الكبير .

رحل إلى أوربا وأقام بها وتأثر بآفاقها . وعاش فترة فى جدة وليبيا ممثلا لمصر بهما . واتصل بالوسط الدبلوماسى فترة من العمر — وقد اكتسبته رحلاته وخبرته فى أكثر من محيط ومجتمع تجربة تراها واضحة فى انتاجه وأدبه .

وليس من طبع « يحيى حقى » الاندفاع ولا الدخول فى مساجلات أو صراع .

وقد استطاع أن يحتفظ بقلمه وفنه فى خلال الصراع السياسى الطويل فى العهد الماضى . ولكنه بالرغم من هذا له آراء فى الأدب المعاصر بعيدة المدى . وقد تنبه منذ أكثر من ربع قرن إلى الأدب الواقعى فدعا إليه ووصفه بأنه مزيج من تماظم فيكتور هوجو وصلابته وتواضع بلزاك الواقعى وليونته . ومن تبشير تولستوى الرسول . ومن ألم جوركى الحائر من بطش الزمن ويده التى فى النار » .

وهو يرى « أن معظم شبابنا يكتبون أدبا من قبيل الاعترافات وحول مشاكلهم الذاتية . أو من قبيل التصوير الفوتوغرافى . وسبب هذا القصور هو عدم اتصال الفنون معا . فى الغرب الرسم والأدب والموسيقى تمازج وتتجاوب تماما . أما عندنا فالمشتغلون بهذه الفنون يعيشون فى عوالم منفصلة ... » وهو يرى أن جيله الأدبى أكثر علما من هذا الجيل .

ويقول « لقد كان جيلى من الطبقة الوسطى يعالج مشاكل محدودة عن الموظفين وبعض نماذج من عامة سكان المدن واعتقد أن هذا الميدان قد استنفد ويجب أن

تنتقل الدراسة إلى ميادين أخرى . وأزعم أن الفلاح المصرى لم يقدم لنا بعد نماذج منه فى الأدب » .

وبعد فيحيى حقى فنان مطبوع . محب محبوب . يعيش حياة خصبة ترضى روحه وهو يرى أن الفنان «شخص رقيق ذو حياء كريم ذو بذل لايحب الترصد له أو التجهم عليه والأخذ بتلابيبه وخناقه فمن فعل ذلك لم يقبض منه كفه إلا على هواء فارغ ولكن ينبغى أن توقره ليهبك أعز ما عنده وينبغى أن تترفق به وأن تصبر عليه فهو ككل رجل نبيل يكره الالحاح والملاحقة ... » .

وفى هذا التعبير ما فيه من العمق . عمق الفنان الذى قطع أكثر من ثلاثين عاما يتأمل تأملا عميقا ويكتب سطورا قليلة ... وزامل حسين فوزى وخيرى سعيد وتوفيق الحكيم ومحمد تيمور وطاهر لاشين وعبد اللطيف النشار .

والقصة شىء فى دم يحيى حقى . رؤاه وأحلامه وصوره كلها قصص . القصة فى دمه تجرى مع الدم ، والصورة النابضة بالحياة دائما على سن قلمه . أنظر إلى هذه اللوحة من ذكرياته ... « ملأ نفسى شعور بالزهو والثقة حينما ظهر بيننا اسم زميل قيل أنه صاحب قهوة فى دمنهور[1] فسافرت إلى دمنهور ... لالغرض إلا أن أحج إليه . ذهبت وفى رأسى أخيلة عجيبة . كنت أجزم أنه صاحب قهوة بلدية جلاسها يدخنون الجوزة على مقاعد القش . موقعها على جسر ترعة وأمامها المراكب المشحونة بالتبن . يعيش فيها ليل نهار قوم لا تعرف عنهم ولا عن حياتهم شيئا ... يقال لنا أن لهم أغانى جميلة ... وبجانب القهوة امرأة جالسة على الأرض تبيع لسائقى السيارات شيئا من الطعام والسجاير . يتحدثون عن معرفتها لأسرار الجرائم كلها وعن مقدرتها العجيبة — إذا جن الليل — فى فنون الحب ... »

(١) يقصد الكاتب الفنان : عبد المعطى المسيرى .

ويحيى حقى مؤمن بأن القصة هى فن المستقبل « ... أن المجال فسيح أمام كتاب الجيل الحاضر ، لقد انهدم كثير من الأصنام فلم يبق إلا أن تنطلق كل القوى الكامنة . وستظل القصة أول وسائل التعبير الفنى لأنها لم تستنفد بعد كل طاقتها ... »

وبعد فحياة يحيى حقى ، حياة هادئة كالنهر الرقراق تسير فى طريقها بغير جنادل ولا صخور ، طابعها الفن والسلام والحب ... والقصة عنده لسان الأعضاء ومادة الفكر وروح الأدب .

ويقول الدكتور لويس عوض : انه ليس فى أشخاص يحيى حقى أوغاد . وانما بينهم ضعفاء يستحقون الرثاء أو أشقياء تكيد لهم المقادير . ويفيض عالم يحيى حقى بالخير والاحسان بل وبالجمال الدقيق الذى لاتفطن إليه إلا النفس القادرة على الخير والجمال . والجمال عنده فى الشكل والمضمون . وهو يصور لنا حياة إنسان بتمامها ، فى ثلاث صفحات فلا تضيع فى التفاصيل وبل يركز فنه على كليات الحياة وكل ماله مغزى فيها .

ومما يذكره يحيى حقى عن أثر العمل الدبلوماسى فى الخارج فى قوله أنه يلائم صاحب المزاج الفنى . فهو يتيح له الفرصة لتذوق فنون وآداب جديدة والغربة تشحذ الخيال . والمناظر فى الخارج تصقل الموهبة الفنية .

ويرى أن المرأة ليست لغزا محيرا . وأن شخصيتها فى نظره أوضح من شخصية الرجل فهى تتصل بأسرار الطبيعة أكثر من الرجل حين تحمل وتلد .

الشعراء[1]

– ٣١ –

أحمد رامى[2]

الرجل النحيل الرقيق . الحلو العبارة . النقى النفس . الشفاف الذى تحس من شعره وعباراته وحديثه أنه لحنا من الصفاء والرواء . قال الشعر خالصا للفن . ثم تحول به إلى الغناء . وتأثر بعمر بن الخيام . وصنع به الحزن والحرمان ما صنع . فخلق لنفسه ذلك الطابع الفريد الخالد . تتفحت عيناه على صور الجمال فى طاشبوز باليونان حيث ولد هناك وشب بين البحر والشاطىء ومروج النرجس . فشارك هوميروس وفرجيل فى أرض المولد ثم عاد إلى القاهرة صبيا وقد تعلم التركية والرومية .

وفى مصر عاش عمرا فى حى الحنفى . فى بيت يطل على المسجد ... ويسمع منه فى السحر أذان الفجر . ويختلط بالمتصوفة يردد أورادهم .

أضف هذه العوامل أن أول كتاب قرأه هو مسامرة الحبيب فى الغزل والنسيب وقد وصفه بأنه كان بعيد الأثر فى تحديد اتجاهه .

وقد اتصل فى بدء حياته الأدبية عام ١٩١٠ بشعراء جيله : شوقى وحافظ ونسيم كما عرف لطفى جمعه وامام العبد وأعجب صادق عنبر بالشاعر الصغير .

وبعد أن أصدر ديوانه الأول عام ١٩١٨ سافر إلى باريس فى بعثة لدراسة اللغات

---

(١) اطلقت العرب على الشعراء عبارة « كتاب » فقد كان أكثر كتاب الوزراء من الشعراء يجمعون بين النظم والنثر مما هو غديرنا فى ضم مجموعة الشعراء تحت عنوان هذا الكتاب .

(٢) انظر ص ١٤٣ من كتابنا نزعات التجديد فى الأدب العربى المعاصر .

الشرقية وفن المكتبات عام ١٩٢٣ حيث تلقى فى السربون اللغة الفارسية وأصدر ديوانه الثانى والثالث عام ١٩٢٥ .

وفيما بين جزيرة طاشبور ومسجد الحنفى وباريس تكونت شخصية أحمد رامى الشاعر الفنان .

وعند ما عاد إلى مصر بدأ حياته الأدبية : عرف أم كلثوم فتحول من الشعر المنظوم إلى الشعر الغنائى . وترجم من مسرحيات شكسبير للمسرح «هملت ويوليوس قيصر والعاصفة» وأمضى زهرة شبابه فى دار الكتب . أمضى ثلاثين عاما موظفا و١٩ عاما فى الدرجة الخامسة .

وتمد أم كلثوم حدث الأحداث فى حياة رامى . حولت طريقه . فقد استمع إليها فى اليوم الثالث لعودته إلى باريس وكانت تغنى قصيدة له هى «الصب تفضحه عيونه» وكان ذلك عام ١٩٢٥ ورجع إليها الأثر فى قهر شعر الوجدان والعاطفة ليكون شعراً غنائيا .

وقد تأثر فى مطلع حياته بآثار أعطت فنه ذلك الروح الحزين المحروم المتلهف . الملىء بالأنين والدموع . حرم عطف أبيه حيا . إذ كان مسافراً دائماً . وغائبا أبداً . فقد كان أبوه طبيبا بالسودان وأمه تعيش مع والده أما هو فقد كان يعيش مع جده وعمه في هذا يقول :

لكل ناء عن حمى أوبة ... وأنت لا يؤمل منك الاياب
مر الصبا من غير «يا أبى» ... بها أناديك وجاء الشباب
لم أتمتع من أبى مرة ... بمجلس حلو نضير الجناب
نشأت فى يتم ولى والد ... فما اكتفى الدهر بهذا العذاب

وقد صور هذا المعنى فى بعض أحاديثه فقال « كنت يتيما فى وجود أبى وأمى ... »

ثم كان موت شقيقه عاملا من عوامل حزنه فقد دفعته إلى حب شعر عمر الخيام وترجمته ... إذ كان الخيام يعطيه منحة العزاء والسلوى ... ولعل هذه الأحداث قد أفاقت فى نفسه روح التصوف التى امتزجت بالعاطفة فتفاعلا تفاعلا صنع منه هذا الفن الشعرى الذى عرف به .

وقد صاحب الخيام رامى خلال إقامته فى باريس . كما اندفع إلى قراءات أخرى حببت إليه الايغال فى الخيال والأسطورة منها ألف ليلة . وجلستان السعدى . وشاهنامة الفردوسى . وتاريخ سلاطين خوارزم ...

ويقول رامى أن أول شعر له كان فى مهاجمة المستشار الانجليزى « دنلوب » وقد تعرف فى شبابه بالمرحوم محمد البابلى . وكان يحضر مجلسه عام ١٩١٩ وإليه يرجع الفضل فى روح الفكاهة والدعابة التى عرفها هذا المجلس الذى كان يرتاده حافظ ابراهيم وعبد العزيز البشرى والمويلحى ومحمد ابراهيم هلال .

وقد أحب رامى من شعراء الغرب بيرون وشيلى وكيتس وشكسبير وقد أطلق عليه شاعر الشباب ولايزال بالرغم من أنه فى الرابعة والستين اليوم (١٩٥٧) .

وهو يرى أن الخيام مؤمن وإيمانه هو أقوى إيمان لأن أساسه الشك ؛ والشك أول مراتب اليقين .

وهو يرى أن أحسن بيت شعر فى نظره هو :

فاتنى أن أرى الديار بطرفى فلعلى أرى الديار بسمعى

وهو يرى أن ألذ لحظات الحب هى الحرمان . ويعزو سر احتفاظه بالشباب

إلى الشعر والحب . وهو يكتب شعره أحيانا وهو يبكي ومن أبرز هواياته القراءة والموسيقى .

ويقول محمد علي غريب « صنم الألم رامي ماصنم . ألم عبقري موفور الجسامة . فأورثه ذلك نفاذ البصيرة وجودة الفهم وصحة الإدراك » .

ويصف الحب بأنه : يرقق العاطفة . ويرهف الحساسية ويعلم التضحية ونكران الذات ويسمو بالأرواح . وانما أعني الحب الشريف العفيف » .

ويقول « أن الموسيقى تكسر من شره النفس وتخاطب الروح بلغة الروح . وكلما كانت الموسيقى أقرب من الطبيعي كانت أحسن وقعا . وأعمق أثراً في النفوس. من ذا الذي لا تثيره موسيقى العواصف والرعود وهطول الأمطار . ومن ذا الذي لا يسيل قلبه حنينا وحنانا لنوح الحمائم . وأغاريد البلبل والكروان حتى صوت الساقية تسمعه فيشجيك » .

ورأيه في الشعر أنه صفاء الروح والوجدان . وهو يتساءل «أين شعر الغزل الذي ينبع من الحرمان بعد أن انتهى عصر الحب البريء الصادق الذي يوحي ويلهم فقد كنا فيما مضى نحب للحب حيث يرى الشاعر فتاة من النافذة ويظل يحبها سنوات طوالا . وينظم فيها الشعر دون أن يعرف اسمها أو يسعى للقائها .

« ... وليس صحيحا ما يقال عن أن البؤس المادي يوحي بالشعر إلا إذا كان هذا البؤس ناتجا عن شقاء روحي يحس فيه الشاعر بأمل ضائع أو حلم منشود . فالشاعر حينما ينظم يجب أن يشعر بكيانه المعنوي الأصيل . »

ويرى أن الشاعر الحق هو الذي ينقل إحساسه إلى الناس وتكون له شخصيته المستقلة التي ينفرد بها دون غيره من الشعراء » .

وقد عاش أحمد رامى يعمل من أجل الشعر الغنائى مما دفع به إلى الارتقاء عما كان عليه أثناء الحرب العالمية الأولى كما بعث فن الأوبريت بنظم رواية « غرام الشعراء » وكتب فى الوصف والغزل ، ودرس اللغة الفارسية خصيصا ليترجم « رباعيات الخيام » ويقول أنه عاش أربعين عاما فى درس ومطالعة لعيون الشعر العالمى دون « أن أسطو على معنى واحد أو أنقل بيتا من غيرى ... »

وقد وصفت أم كلثوم رامى بقولها « رامى يدين فى حياته بالجمال . ومن أخص صفاته الوداعة والابتسام على الدوام والوفاء لذات الوفاء . ثم هو محدث ظريف لا يخلو مجلسه من نكته طريفة ... » ورامى يتميز فى حبه باللهفة :

أتعجل العمر ابتغاء لقائهـــا	فاذا تلاقينا بكيت حيــــاتى
تمضى بى الأيام وهى رتيبــة	لا هم لى إلا اللقـــــاء الآتى
ازن الحديث أقوله عنـــد اللقا	فيضيع عنـــد تقابل النظرات
وأعود بعـــد ترقبى إقبالها	والنفس ساهمة من الحسرات

وهو يحب الطبيعة ويجلس الساعات الطويلة يتأمل الشمس ساعة الغروب ويقول « لابد أن يعيش الشاعر فى قصة حب متصلة . وأنا لى قصـة حب خالدة لا تموت ولن تموت وليس من الضرورى أن تـكون قصة ملموسة . قصـة قلب الشاعر قصيدة أبياتها تنظم من الحب والجمال سواء أكان حقيقة أم صورة . معنى أم رمزاً .

« ... وأحب الطبيعة التى وضعت جمالها طفلا . وأعشق رؤية النجوم والقمر وأسعد أوقاتى التى أقضيها مع الليل الساحر فى خلوة . وأشاركه ساعاته حتى ينبثق نور الفجر . ويولد للدنيا يوم جديد . وكذلك أحب الترحال الدائم فان فى قلبى

الحائر قلقا دائما ورغبة إلى معرفة المجهول . وقد سافرت إلى تسع دول من أوربا ولا زلت أهفو إلى السفر كأنني أود أن اكتشف عالما اسمى من هذا العالم ...

«وأنا شاعر غنائي وأعيش في أغنية طويلة . أنظم الشعر غناء ولا اكتبه إلا إذا انتهيت من نظم القصيدة كلها في ذهني وأنا أغنيها .

« والموسيقى هي الغذاء الروحي الذي لا أستغني عنه مطلقا . وأحب آخر أشعاري فهي وليدي الصغير .

ويقول « أن تأثري بالشعر لم يجيء من شاعر واحد . انما جاء عن قراءة لكتاب فيه مختارات غزلية لشعراء كثيرين من عصور مختلفة اسمه « مسامرة الحبيب في الغزل والنسيب » .

عبد الرحمن صدقي[1]

فى حياة « صدق » حادث واحد كان بعيد الأثر فى أدبه وحياته . ذلك هو وفاة زوجه . فقد كانت الفاجعة الضخمة فى فقد المرأة المحبة والزوجة المثقفة بعيدة الأثر عنده فقد جاشت نفس الشاعر بالعاطفة الحزينة والأحاسيس المريرة فذهب يقول الشعر — وكان مقلا فى قوله قبلا — بصورة غير مألوفة حتى أنه أكمل ديوانه المعروف باسم « من وحى المرأة » فى شهرين .

وقد كان صدق كاتبا أكثر من شاعراً نشر فصولا متعددة فى الصحف . كان « الهلال » فى الأغلب حلبته الكبرى . وكانت موضوعاته وجدانية تتسم بلون الدراسات الغربية فى الحب والجنون والعبقرية والفن والشباب والجمال وكل ما يتصل بهذه المعانى من صور وشخصيات وقصص . وهو فى هذا يمثل الجانب الآخر من حياة الفكر حيث يقف زميله « على أدهم » نفسه على الدراسات العقلية والموضوعية المتصلة بالحياة .

أما الشعر فكان صدق مقلا فيه ، لم تعرف عنه إلا قصائد قليلة . فلما وقعت هذه الأزمة النفسيه العاصفه : حب عميق قائم بين قلبين اتصلا . ونفسين تعارفا وروحين التقتا على معين من الامتزاج والصفاء والانسجام والود الأكيد . يقرآن معا ويجلسان إلى الطبيعة يشربانها شربا . ويتطلعان إلى الحياة فى إشراق

---

(١) فى الجزء الأول من « الأدباء المعاصرين » دراسة غير مكررة عن المرأة فى حياة صدقى .

وقد انتزعت النفسين سعادة لأحد لها . وعبد الرحمن انسان وشاعر ومرح ومحب للحياة . والفتاة الايطالية التى كانت جارة له تستعير الكتب فتعجب بالملاحظات الدقيقة الت كان يكتبها على هوامش كتبه هى الآن زوجته الحبيبة ...

وفجأة . تمرض الحبيبة . ثم ينقطع خيط الحياة وينظر صدق فاذا هو قد سُلب أغر ما كان يملك فى الحيـــاة . هنالك تضطرب نفسه وتهتز وتبدو الحياة أمامه شبحا مخيفا . فلا هو حى ولا هو ميت . ولا هو مصدق أن حبيبته قد ذهبت إلى غير عودة . ويذهب إلى البيت فيرى حجرتها موصدة فيظنها إنما تستريح قليلا ولكنه ينتظر وينتظر طويلا دون جدوى . عندئذ يعرف أن الأمر جد وأن هذا الضياء الذى كان يغمر حياته قد ذهب ...

وهنا تنفجر عاطفته فى شعر حلو حزين مكلوم . يقول أنه أراد أن يصور عاطفته بالنثر فلم يستحب له غير الشعر . وهو أديب لاسبيل له إلا أن ينقل نفسه على الورق ليحس السلوى والعزاء .

ولكن هل سلا ... ما أظن . لقد عاش يحلم بها وينتظرها ويذهب إلى موطنها فى ايطاليا فيزور الآثار العظيمة ويحس كأنه سيلقاها فى هذا المكان أو ذاك ... دون جدوى ثم يعود ليجتر حزنه ... طويلا .

* * *

تلك هى التجربة الضخمة التى مرت بصدقى الشاعر الأديب . كانت حزنا وألما ومأساة لحياته . ولكنها كانت فتحا جديدا للأدب فقد خلف ديوانا من الشعر من وحى المرأة وفى رثائها فتح أمام الشعراء والكتاب باب هذا اللون الجديد فى الأدب العربى الحديث الذى لم يكتب فيه نثرا وشعرا سوى ثلاثة هم عزيز أباظه وسعيد العريان وصدق .

ولقد كتب عبد الرحمن صدقى « ألحان ألحان » و « أبو نواس » وهما كما يقول من وحى الزوجة التى أحبها ودفعته إلى هذه الدراسات ·

ويصور صدقى ذكرياته فيقول أن فى قراره قلبه خزانة حافلة يحتفظ فيها بكل لحظة من تلك اللحظات المليئة الشائقة « التى هى وحدها كل نصيبنا نحن الفانين فى هذه الحياة · وأنا بهذه الخزانة غنى قانع · إذا صوحت من حوالى جنـة الدنيا وتساقطت أوراق المنى مثل أوراق الخريف المصفرة . وزويت عنها الطرف أسفا وانطويت على نفسى مستوحشا تفتحت مغاليق خزانتى وانفرج ما بها رويدا رويدا من غير نأمة ولا صرير · وتحركت دفائنها لعين خيالى كأنى فى حلم · فيتمثل لى · بل يخامر حواسى فيها طيف من أطياف الماضى الدفين · طيف لحظة سعيدة أحالها القوم نوارنيه روحانية خالصة من كل كدر · صافية من أدنى شائبة كما يحيل تقادم العهد عصارة الـكرم فى الدنان خمرا شمشمانية تلطف روحها وتاطف كأنما لم يبق منها غير اللون والعطر فأنعم من جديد بما نعمت به جوارحى من قبل ولـكن فى هذه المرة نعيم كنعيم الخلد ... » ·

* * *

وهو يصف فتاة أعجبته فيقول « فتاة اعرابية أقبلت علينا فى أزارها الأسود الصافى · فما هو أن رفعت إلينا طرفها الغضيض الـكحيل حتى أحسسنا أننا انتشلنا من حياة دارجة عادية إلى حياة أعلى · إلى حياة فوق مستوى حياتنا · لا تسمع لنا لاغية وفاضت الإحساسات الشعرية من داخل أنفسنا على الطبيعة التى كانت منذ هنيهة تتبرج لنا سدى ·

أما الفتاة فجمالها من نوع فريد عجيب ... ولـكن · آه · تماسك ياقلبى · رفعت إلينا عينيها فانفتحت عوالم سحر وضياء · سحر عميق لا يدرك كنهه ولا يحل عن

المسحور طلسمة ، وضياء غريب يهتك الشفاف بارقه ويصل المقول هدية ... »

ولعبد الرحمن صدق رأى فى القصة . فهو يرى أنها قد بدأت تنتشر ولكنه لا يراها خليقة بمكانها الذى تحاول أن تحتله « ... أنه لو كان من شأن القصة صرف رجالات الفكر عندنا عن بحوثهم الجدية الأخرى لتمـلكنا لذلك أشد الأسف وحسبناها عليها لا لها . ولم نجد فيها مهما بلغوا بها غناء عما فاتنا ولكنهم بحمد الله يرون فى القصة ما نراه من أنها لون من ألوان الأدب لا يصح أن يطغى على غيره بل لا يستطيع أن يحيا بنفسه مستغنيا عما عداه ... » .

* * *

وحياة عبد الرحمن صدق الأدبية بدأت بالأدب الشعبى الأسطورى . كان مغرماً بقراءة فيروز شاه وحمزه البهلوان وسيف بن ذى يزن . واللص الشريف . كان قد أحب وهو فى أول الشباب . وهنا بدأ يقول الشعر ... ثم ضاع الحب وبقى الشعر .

فلما دخل المدرسة الخديوية كان المازنى مدرس الترجمة بها فتعرف به وعرفه المازنى بالعقاد ...

وهو يقارن بين العقاد والمازنى فى مجال الشباب الأديب المتطلع إلى المجـــد « ... العقاد ليس عنده الاقبال ولا التشجيع الذى عند المازنى . المازنى يترك توجيهات شعرية تأثيرية . ولكنه لا يترك تأثيرا ذهنيا منظما . أما العقاد فيترك هذا التأثير الذهنى المنظم ... أن المازنى يخلق نفساً حية متفتحة . أما العقاد فله اتجاه فكرى خاص يروضك عليه ويخضعك له ... انه يخلق مدرسة » .

ثم يصل فى النهاية إلى القول بأن العقاد له أثره فى الشعر . والمازنى له أثره

فى اللغة » فقد طوع المازنى اللغة لتحمل أشياء كثيرة متناقضة . كالحسد والدعاية والفخامة والبساطة ... أننا نستطيع أن نقول أنه مدن روح اللغه ... »

وقد سجل العقاد فى أكثر من مرة أن عبد الرحمن صدق وعلى أدهم هما أبناء النهضة الأدبية التى بدأها الرواد . وهذا حق لا شك فيه . ولكن صدق غير أدهم . أنهما يختلفان إختلافا واضحا فلكل منهما منهجه فى الحياة ومذهبه فى الفكر. وطبيعته النفسية نستطيع أن نقول أن صدق انبساطى مرح طروب يحب من الحياة الجانب الزاهى البراق المشرق . وهو فى الأدب يكتب حول هذا اللون . وكذلك قراءاته واتجاهاته . شاعر عاطفى يحب الفن والقصة والجمال ... وهو فى هذا قريبا إلى اتجاه المازنى لا إلى اتجاه العقاد . أما على أدهم فانه قريب جدا من العقاد مع الاعتراف باستقلاله وتميزه فى أهدافه . ولعل صدق قريب من أبيقور وعمر الخيام وأبى نواس وآية ذلك ما كتبه عن الخمريات وعن هؤلاء الشعراء بالذات .

عزيز اباظه[1]

شاعر صنعته الأحزان والآلام والأشجان ودفعته إلى الصف الأول . هزته وفاة زوجته التى كانت قصة حبه الخالد . عندما يحب الرجل الشاعرى النفس . ويصدق الحب ويعطى ويمنح . ثم يصل إلى القمة حين يصبح الحب زواجا ناعما هانئا ... ثم إذا بالأمر ينتقل من النقيض إلى النقيض وإذا بالموت يقطع فى الأمر ويفصل بين القلبين المتحابين . وتذهب الزوجة الحبيبة إلى القبر ويبقى الرجل الشاعر المحب غارقا فى دوامة عاصفة من الآلام والأحزان والدموع ... عندئذ يستيقظ الأدب . وينتفض الشعر وتنتقل المحنة إلى النظم . وتصبح المأساة كلمات حارة رقيقة تتناقلها الأجيال فتجرى على كل لسان وتغنى ويجد فيها كل مكلوم عزاءاً وكل حزين صورة نفسه وأحزانه .

وهكذا أصبح عزيز أباظه بين يوم وليلة شاعراً . والشعر والأدب يعيش على الماضى ، ويصل إلى القمة تحت ضغط العواصف والأحزان . ويكره الحياة الهادئة الناعسة لأنها لا تعطى الحياة الدافعة ولا الإلهام الخالد .

فقدتها خلة للنفس كافية تكاد تغنى غناء الماء والزاد

يا أخت ذى الرونق الموشى من عمرى وعدل نفسى فى الدنيا وأولادى

قد ذقت بعدك يتما حز فى كبدى وذاقه فى ربيع السن أكبادى

---

(1) انظر ص ١٦١ من كتابنا « نزعات التجديد فى الأدب العربى المعاصر » .

كانت وفاة زوجته هي أداة الهامة وفنه فكتب « أنات حائرة » وهي مجموعة من قصائد الرثاء والنجوى كتبها في الفترة من يونيو ١٩٤٢ إلى يونيو ١٩٤٣ وقد أمضه الحزن فذهب يدافعه دون جدوى . فقصد إلى عرفات عل الأرض المقدسة أن تخفف شجنه . فاذا به يبكي على عرفات . ويبكي على قبر خديجة ، ويبكي عندما يهل رمضان ...

وقد كان تأخر ظهوره كشاعر إلى سن الأربعين موضع التساؤل وقد أجاب عن ذلك بقوله : كنت أكتب الشعر لنفسي على أن ذلك لم يمنعني وأنا طالب بالثانوي أن أنشر بعض قصائدي في الصحف « السفور . الصاعقة » ثم عرفت بعد ذلك قدر أدبي وشعري فطويتهما سنين طويلة حتى نظمت « أنات » حائرة وأنا أرزح تحت أحزان قاصمة . ودفعتني دوافع مبهمة إلى نشره ... »

وهو يرى أن الشعر « هو التعبير عن اختلاجات النفوس . التعبير الكامل الذي يقصر عنه النثر بفقدان الجانب الموسيقي فيه .

وينصرف هذا إلى فكرة الاكتفاء بالتفعلية التي ربما كانت نقطة الارتكاز في تشويه القيم الجمالية للشعر . أما الموسيقى النفسية التي يرى أصحاب التحلل أنهم بالغوها فهي موسيقى ساقطة لا يمكن أن تصل إلى قرار النفس ... »

ولعل أبرز أعمال عزيز أباظه هي المسرحية الشعرية التي يجري فيها على نسق شوقي ، وله في هذا المجال غروب الأندلس والعباسه وشجرة الدر وقيس ولبنى والناصر .

وتعد مسرحية قيس ولبنى متنفسا لعاطفة الشاعر الحزين إذ تجري فيها الأحداث على نفس النسق الذي عاشه الشاعر :

أين عش قضيت فيه ولبنى سنوات مرت كليلة عرس

زال عنـه هزاره وجفـاه فتـداعى ما بين يوم وأمس

وعزيز أباظه يحب من الشعراء القدامى جريراً وابن الرومى والبارودى ويكلف بشوقى وادمون روستان وتنسيون وطاغور واليوت .

قال عزيز أباظه فى تصوير حالته النفسية أبان نظم ديوانه « أنات حائرة » ... « نظمت — هذا الديوان — وأنا أرزح تحت أحزان قاصمة . ودفعتنى دوافع مبهمة إلى نشره . فنشرته ولم أنشره ، ذلك لأنى طبعت منه عدداً محدوداً واهديته لأصدقائى ورجال الأدب » .

ويصور طريقته فى قرض الشعر ... « تخطر الفكرة فاقيدها فى أية ورقة فى جيبى . بيتا أو بيتين وقد أهملها فتضيع . وقد أعود إليها فأمزقها غالبا أو أكملها وذلك قليل ... » أما المسرحيات فيعالجها فى ساعة الراحة التى تلى فترة الغداء . وقد أخذ معه إلى أوربا مشروع عشر قصائد بدأها ورسم خطوطها الرئيسية منذ أكثر من خمسة أعوام » .

ويقول أن الشاعرية هبة تولد مع الانسان . من الصعب جدا أن نقول كيف نخلقها . وتتوهج الشاعرية بالدراسة والمكابدة .

* * *

وقد دارت بين عزيز أباظه وشباب الشعراء مناوشات وُصف فيها بأنه شاعر محافظ قديم النزعة وأنه يفهم الشعر على هذه الصورة الجمالية التى رسمها خالقوا هذا الفن الرائع . وقد أصر عزيز أباظه على رأيه فى أن العرف الأدبى وإن كان قد سمح بالترخص المعقول فى التزام القافية واجاز امكان الالتجاء إلى اكثر من قافية فى القصيدة الواحدة ، فإنه التزم بأمرين لا معدى عنهما . أولهما بقاء الميزان الشعرى

وثانيهما الأخذ بالقافية الواحدة فى عدد من الأبيات تتحقق بترادفها وتسلسلها الوحدة الموسيقية التى هى أصيلة فى التعبير بالشعر .

وقال أن فى هيكله الفانى يسكن شخصان لا يمت أحدهما للآخر بصلة . أولهما عزيز أباظه الاقتصادى . وعزيز أباظه الشاعر ، هذا له كدحه وهذا له سبحه . وعنده أنهما قلما يلتقيان .

ومما يذكر فى مجال العرض لشخصية عزيز أباظه الشعرية أنه لم يكتب شعراً فى المناسبات . وأنه يتجه إلى تطويع الشعر لصياغة الملاحم الانسانية ويرى أن الشعر بأوضاعه القائمة قادر على أداء هذا الدور . وهو لا يؤمن بما يقال من أن قول الشعر الجزل الرصين قد أوقف نمو الذوق العربى .

ومن آرائه أن الجامعة تعلم وتثقف وتصقل . ولكنها لا تزرع موهبة ولا تنبت ملكه .

وهو ينظر إلى عصر شوقى بأكبار وتقدير « انتهى عصر شوقى بمغيب ذلك الكوكب الشعرى الجبار الذى قلما تألق مثله فى سماء الشعر العربى .

* * *

ومن مجموع آراء عزيز أباظه المتناثرة وخواطره المتنوعة نجد شخصيته الأدبية واضحة : رجل أحب الشعر والأدب من صباه . نشأ فى عصر شوقى وأحس ذلك المجد الذى كان لدولة الشعر أيام حافظ وشوقى ومطران وأبى شادى ... وقد عرف الشعر ونظمه ولكنه لم يجوده فطوى أوراقه حتى إذا بلغ الاربعين وهزته قارعة وفاة زوجته الحبيبة ، اندفع الشعر وانطلق وامتلأت به نفسه وفاضت ...

فهو ابن المدرسة الشوقية الرصينة . مدرسة القصيدة والمسرحية . وهو الرجل

الذى يعمل فى ميدان الاقتصاد فاذا انتهى من عمله وانصرف إلى نفسه عاش حياته الخاصة فى جوه الروحى الشاعرى المفرد ينظم ويحلم ويتأمل ويطيل التأمل .

كنت فى ناعم من الدهر أضحى وعلى مونق من العيش أمسى

بين وشى الهوى وفى حلل الرفه ولبنى راحى وروحى وأنسى

أين روضى الذى سقيت بدمعى أين ظلى الذى مددت وغرسى

وهو فى دولة الشعر والأدب مؤمن برسالته « أن كل جمال فى الدنيا دون الشعر والأدب »

أدباء منسيون

لو خيرت أن أحمل رسالة فى دنيا الأدب أتخصص لها وأتجرد ، وأهبها كل وقتى ومالى وجهدى ، لما رغبت إلى أشرف من رسالة البحث عن المنسيين من رجالنا وكتابنا وزعمائنا هؤلاء الذين حالت الأحداث دون أن يبرزوا أو يأخذوا مكانهم الحق ، أو تعمدت بعض عصور الظلم التى مرت بها مصر فى الماضى أن تغمط حقهم وتطمس ذكرهم .

وفى ميدان الأدب أعلام عرف الناس لهم إنتاجا قويا وأثرا حيا ، ولكنهم قد خلفوا دنيانا ولم يعد يذكرهم ذاكر أو يحتفى بهم باحث .

من هؤلاء أحمد « محرم » الشاعر البارع الذى ألف الإلياذة الإسلامية فى أكثر من عشرة آلاف بيت من الشعر رسم فيها صورة التاريخ الإسلامى وبطولاته ومواقعه ، وما زال هذا المجلد الضخم مخطوطا يعلوه التراب فى دمنهور فى منزل صديقه الوفى الأستاذ إبراهيم نعيم .

« ومعاوية نور » هذا الكاتب السودانى النابغ الذى ظهر إنتاجه فى الصحف المصرية فترة من الزمن فكان دليلا على عبقرية كامنة تتفتح ثمة فى قوة وعمق ... وقـــد اختفى معاوية ومضى فى نضارة الصبا ، وانطوت صفحته ، ولم يعد يذكره ذاكر .

ولقد حاولت أن أبحث حياته وأدبه مع طائفة من رجال السودان ، فكانوا يحيلوننى جميعا على الأستاذ العقاد الذى كان الفقيد تلميذا له خلال تلك السنوات — ١٩٣٢ وما بعدها — وما زلت أذكر فصولا ممتازة عن القصة والنقد قرأتها له فى الهلال وجريدة مصر .

وكل ما أعلمه عنه أنه تعلم فى الجامعة الأمريكية فى بيروت ، وأنه كان يشق طريقه فى الأدب فى الوقت الذى كان الموت يشق فيه طريقة إليه .

وواحد آخر وهو شاعرنا العبقرى الهمشرى صاحب ملحمة شاطىء الأعراف وملحمة « مشعلة التوتى » اللتين نشرتا فى السياسة الأسبوعية ، وهما من أجود آيات الشعر الحديث .

ولقد حدثنى عنه الأستاذ المستشار محمد احمد رجب مدير القضايا بوزارة الأوقاف فقال إنه كان عبقريا فعلا ، وكانت روحه شفافة ونفسه صافية وإنه كان ذا كبرياء وكرامة ونبالة محتد تواجهك عندما تلقاه .

ومنذ أن مات الهمشرى من أكثر من عشرين عاما لم يكتب عنه أحد من زملائه الذين عرفوه بحثا يجلى جوانب حياته ، فضلا عن أنه ليس له ديوان مطبوع .

و « محمد تيمور » ذلك الفنان المطبوع الذى رسم ملامح القصة الحديثة ، والذى ترك القصر ليعيش حياة الفنانين . أين تاريخه وحياته وأثره ؟ إننى أطالب شقيقه الأستاذ محمود تيمور — مد الله فى عمره — أن يصدر كتابا عنه يحوى تاريخا لحياته وبعض آثاره الأدبية . لقد ذهب محمد تيمور إلى أوربا وعاد يحمل فنا جديدا ، ولكنه لم يلبث أن طوى رداءه ومضى عن دنيانا ، مخلفا لوعة وحزنا على عبقريته التى انطفأت باكرة .

ومن أبرز الأدباء ضحايا الصراع السياسى « عبد الرحمن شكرى » رائد المدرسة الحديثة فى الشعر وزميل العقاد والمازنى ، الذى كان له باعترافهما أبعد الأثر فى توجيههما وجهة صحيحة فى عالم الفكر ، غير أنهما صارعاه فيما بعد واجبراه على العزلة ، واتخذت السياسة سلاحا لإلقائه فى زوايا النسيان .

و « أحمد زكى أبو شادى » هو المثل الآخر لذلك ، فقد حورب حربا عنيفة ، أخذت صورة حزبية كريهة ، وظلت الحرب تتعقبه حتى بعد أن ترك القاهرة

وذهب إلى الاسكندرية ، ممـــا اضطره إلى الهجرة إلى أمريكا ليقضى بقية أيامه هناك .

وهناك أعلام كانوا بعيدى الأثر فى عالم الفـكر قد تجاهلهم الأدب تماما ، وأغضى عنهم إغضاءاً مريرا . من هؤلاء « أحمد وفيق » الـكاتب الوطنى القوى المعارضة الذى قرأنا له فى أول الشباب فصولا عن سعد زغلول وأبحاثا أخرى غاية فى القوة والروعة .

و « أحمد خيرى سعيد » الذى كان يعد رأس المدرسة الأدبية التى جاءت بعد مدرسة الرواد ؟ و « عبد الحميد سالم » أديب الاسكندرية الذى يذكرنا « بعبد الحميد الديب » .

وهناك « أحمد نسيم » ومحمد عبد المطلب .

ولدينا الآن شخصيات أدبية تؤدى واجبها فى صمت ولا يذكرها أحد ، لأنها لا تدخل ميدان التهريج والشهرة الـكاذبة والمجاملات التى هى قوام النقد الأدبى اليوم ! ...

من هذه الشخصيات الأستاذ كامل كيلانى الذى ما زال منذ أكثر من ثلاثين عاما يعمل فى صمت ودون ضوضاء أو إعلان . يقرأ ويكتب وينشر . هذا الرجل الذى يعد « عميد » أدب الأطفال فى مصر والذى وضع أكثر من ألف قصة لم يطبع منها بعد أكثر من ثلاثمئة ..

والأستاذ « صديق شيبوب » محرر الصفحة الأدبية بجريدة « البصير » الذى ما زال منذ ثلاثين سنة يكتب مقالا أدبيا كل أسبوع يلخص فيه كتابا من أمهات كتب الغرب الممتازة ، ولا يحس به احد ، لأن صحيفته لا يقراهـــا إلا من يبحث عن الرهونات والتفاليس !

وعبد الرحمن الرافعى مؤرخ مصر القومية ، وما من كاتب منذ ثلاثين سنة

يكتب فصلا أو بحثا فى هذا الباب إلا وهو مستمد رأيه من موسوعات الرافعى الفنية بالتفاصيل .

والدكتور مصطفى الحفناوى مؤرخ قناة السويس الذى كان الرائد الأول لهذا البحث الجديد الخام عن هذه القضية الخطيرة . هذا البحث الذى قرأ له الحفناوى أكثر من ألف مجلد من كتب الغرب ، وبحث ونقب عن الأسانيد فى مختلف المكتبات والسفارات فى فرنسا وانجلترا ، واستطاع بقوة شخصيته أن يستل الأسرار المدفونة والخبايا المسجونة فى أضابير إدارة القناة المنحلة فى باريس . والدكتور إبراهيم عبده مؤرخ الصحافة المصرية ، الذى كتب عن تاريخ الصحافة وتطورهـــا وأعلامها وصحافة أوربا وأمريكا والذى كتب تاريخ « الأهرام » فى ثلاثة أرباع قرن غير مسبوق فى هذا كله بمرجع واحد .

ومحمود الخفيف ، الذى حرر تاريخ عرابى يوم كان فى نظر القصر خائنا وفى نظر الحزبيين فاشلا . و« دربنى خشبه » الذى ارتاد ميدانا جديدا من ميادين الأدب العربى هو : نقل الأسطورة اليونانية فى أسلوب رائع وتصوير جميل . ومع هذا فلم يذكر أحد لأيهما الفضل ولم يسجل لهما أثرهما فى هذه الريادة الجيدة . وفى ميدان الترجمة هناك رجل صامت له فضل كبير فى نقل الآثار الأدبية ، وأستاذ لعدد من الذين يعملون فى ميدان الأدب ، هو الأستاذ محمد بدران ، وكتبه الضخمة التى ترجمها شاهدة على تفوقه . ولا سيما كتابه «قصة الحضارة» تأليف «ول ديورانت» فقد ترجم منه حتى الآن ما يقرب من ثلاثة آلاف صفحة . وإذا كان لنا أن نذكر مالقى الأدباء بعد جهد ضخم وعمر طويل من الجهاد فلنذكر مصير زكى مبارك والمازنى ، وصلاح ذهنى . وعباس علام ، وقد مات كل منهم ولم يخلف لأهله ولا لأبنائه شيئا . حتى الكتب الضخمة التى تملأ الأسواق وجدت مبيعة إلى الوارقين بأثمان زهيدة .

١٩٥٨/٢/١٠

ثبت الشخصيات[1]

(١) مرتبة حسب الحروف الهجائية .

أضواء على حياة الأدباء المعاصرين

تضم الحلقة الأولى من دراسات الأدباء المعاصرين « ٤٢ شخصية » وهى :

- لطفى السيد
- طه حسين
- محمود تيمور
- عباس العقاد
- أحمد حسن الزيات
- توفيق الحكيم
- محمد حسين هيكل
- فريد أبو حديد
- سلامه موسى
- أحمد زكى « الدكتور »
- كامل كيلانى
- مصطفى لطفى المنفلوطى
- أحمد أمين
- مصطفى صادق الرافعى
- جبران خليل جبران
- مى زيادة
- زكى مبارك
- مصطفى عبد الرازق
- محمد السباعى
- جرجى زيدان
- عبد العزيز البشرى
- ابراهيم عبد القادر المازنى
- محمد إقبال
- شوقى
- حافظ
- الزهاوى
- على أدهم
- سعيد العريان
- ابراهيم المصرى
- زكى عبد القادر
- الصاوى
- ابراهيم ناجى
- أحمد زكى أبو شادى
- أنطون الجميل
- ميخائيل نعيمة
- جميلة العلايلى
- أمينة السعيد
- سهير القلماوى
- على الطنطاوى
- ابراهيم المصرى
- محمود كامل

صدر الكتاب عام ١٩٥٥